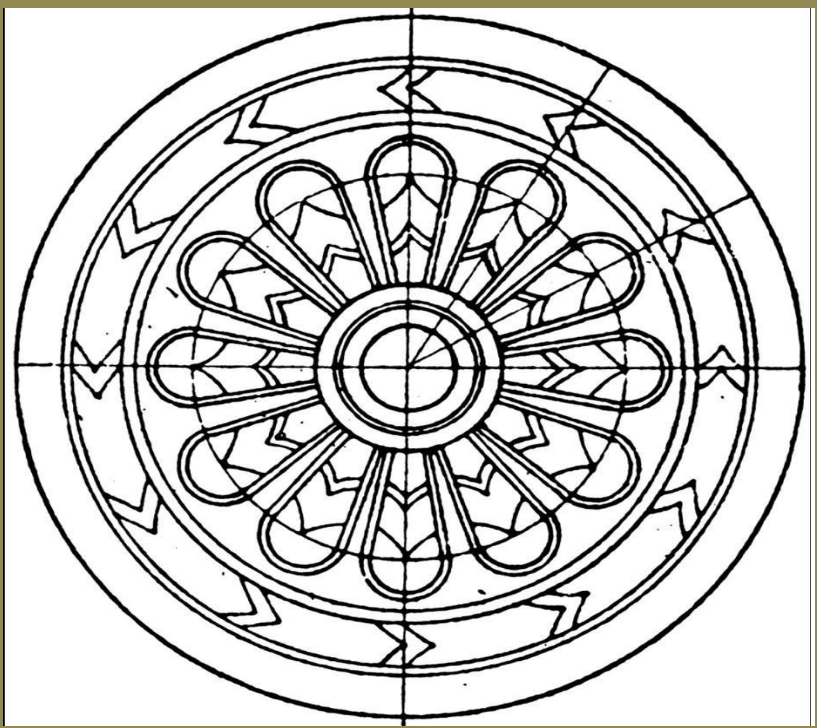
فواز فرحان

التعاليم السومرية

الجزء الخامس



فواز فرحان

التعاليم السومرية

الجزء الخامس

الطبعة الألمانية

2026

1Buche GmbH ... Oststrasse 72 ... 33332 Gütersloh
Email : info@1Buch.de Tel : 052419615700

دار الكتاب الأول للطباعة والنشر .. مدينة كوترسلوه ـ المانيا الاتحادية

فواز فرحان

التعاليم السومرية ــ الجزء الخامس

الاهداء

الى الأجيال التي تبحث عن الحقائق

في جوهر الأشياء

المقدمة

أن الأسرار التي نحن بصدد سردها لا تفتقر إلى عنصر التشويق ، وأغلب من تناولوها يلقى عليهم اللوم لافتقارهم الفادح إلى البراعة الفنية ، إذ لا شيء يمكن أن يُفسدها سوى ركاكة السرد ، فهي في جوهرها سجلٌ لتطور تلك الأفكار الشمسانية الرائعة التي صاغت هويّة جنسنا البشري وحضارته ، أفكارٍ مشحونةٍ بالاهتمام الإنساني ، وذات دلالةٍ حيويةٍ بالنسبة لنا ، وجوهريةٍ في تأثيرها على التطور البشري ، فضلاً عن كونها جزءاً لا يتجزأ من آليات الفكر الإنساني من جهة ، ومن الحضارة العراقية العملية من جهة أخرى . قد تبدو عبارة "المبادئ الجوهرية" للوهلة الأولى مصطلحاً صعباً أو ثقيلاً ، إلا أن المضمون الذي تنطوي عليه هذه العبارة أقل نفوراً منها ، فهذه المبادئ الجوهرية وثيقة الصلة بالمصالح الراهنة لكل فردٍ منا ورؤيته لموضوع الحضارة في بلادنا ، لدرجة أنها تقع في متناول فهم أي رجل أو امرأة من عامة الناس ، بل وفي متناول أي فتىً أو فتاةٍ يتمتعان بقدرٍ جيدٍ من النضج الفكري . فهذه المبادئ ليست مجرد درجاتٍ للارتقاء نحو الثقافة أو متطلباتٍ مسبقةٍ لاكتساب المعرفة . إنها ، في حد ذاتها ، جزءٌ جوهري من المعرفة التي ينبغي أن يتحلى بها كل مثقف .

ولا تقتصر مهمتنا على بيان ماهية هذه المبادئ الشمسانية فحسب ، بل تتعداها لتوضيح الكيفية التي اكتشف بها أسلافنا تلك المبادئ ، إذ سنتتبع تطور هذه الأفكار منذ بداياتها الأولى الغامضة ، وسنرى كيف أفسح الغموض الفكري المجال للدقة ، وكيف أن الحقيقة العامة بمجرد استيعابها وصياغتها أصبحت بمثابة نقطة انطلاق نحو حقائق

أخرى . وسندرك أنه لا وجود لحقائق أو مبادئ معزولة في الطبيعة ، بل إن كل جزء من قصتنا يرتبط بروابط وثيقة لا تنفصم بما سبقه وبما تلاه . ففي الغالب ، لم يكن اكتشاف هذا المبدأ أو ذاك ضمن تسلسل معين وليد الصدفة

سنتمكن من فهم قصة تطور العلم على أفضل وجه إذا نظرنا إلى كل مبدأ جديد باعتباره حجر ارتكاز لا بد أن يجد مكانه المناسب في موضعه الخاص وإذا أدركنا أن صرح الحضارة الحديثة برمته كان سيختلف عما هو عليه الآن وسيكون أقل كمالاً لولا العثور على حجر الارتكاز ذاك ، وصياغته، ووضعه في مكانه الصحيح . إن أحجار الارتكاز هذه ، مجتمعةً ، تقودنا صعوداً نحو القمم المذهلة لـ "أكروبوليس المعرفة" الذي ينتصب فوقه معبد العلم الحديث وإن قصة تشييد هذا الصرح البديع لقصةٌ تأسر الألباب وتفيض جمالاً .

قد يبدو الحديث عن "علمٍ شمساني يعود لعصور ما قبل التاريخ" بمثابة تناقض في المصطلحات فكلمة "ما قبل التاريخ" توحي بالهمجية التي حاول البريطانيون زجها في العقول السطحية لتصديقها ، في حين يبدو العلم بكل وضوح نتاجاً للحضارة السومرية . غير أننا إذا تأملنا الأمر حق التأمل ، نجد أنه لا يوجد أي تناقض ، فمن ناحية ، كان الإنسان قد تجاوز مرحلة الهمجية قبل وقت طويل من بدء ما نطلق عليه "العصر التاريخي"، ومن ناحية أخرى ، فإن العلم بشكل أو بآخر يُعدّ مُمهّداً للحضارة وسبباً لها ، تماماً كما يُعدّ نتاجاً لها . ولكي تتضح لنا هذه الفكرة ، لا بد أن نسأل أنفسنا ما هو العلم إذن ؟ إن هذه الكلمة تتردد بسلاسة على ألسنتنا في أحاديثنا اليومية ، لكن قلّما يتساءل من يستخدمونها باستمرار عن معناها الدقيق النوعي بالتحديد . ومع ذلك ، فإن الإجابة ليست صعبة إذ يكفي قليل من التأمل لندرك أن العلم الكمي بالمعنى الشائع للكلمة ينطوي على أمورٍ محددة: أولاً، جمع المعرفة عن طريق الملاحظة وثانياً ، تصنيف هذه المعرفة ، ومن ثم استخلاص أفكار أو مبادئ عامة بناءً على هذا التصنيف. فإن العلم هو "المعرفة المُنظَّمة". لكن العلم النوعي هو ابعد من ذلك بكثير ..

من الواضح تماماً ، للوهلة الأولى ، أن أكثر البشر بدائيةً لا بد وأنه كان مراقباً لظواهر الطبيعة ، غير أن الأمر قد لا يكون بتلك الدرجة من الوضوح ، أنه لا بد وأنه كان أيضاً مُصنّفاً لملاحظاته أي مُنظِّماً للمعرفة . ومع ذلك ، كلما أمعنا النظر في الأمر ، اتضح لنا أكثر فأكثر أن الطريقتين مترابطتان ارتباطاً وثيقاً لدرجة يستحيل معها فصلهما عن بعضهما ، فمراقبة الظواهر الخارجية ليست متأصلة في طبيعة العقل أكثر من استخلاص الاستنتاجات من تلك الظواهر ، لنأخذ مثالاً لغزال يمر عبر الغابة ، إنه يشم الأرض ويلتقط رائحة معينة فتتولد في ذهنه سلسلة من الأفكار لا شيء في تجربة الغزال يمكن أن يُصدر تلك الرائحة سوى الذئب ، وبالتالي، يُستخلص استنتاج علمي مفاده أن ذئاباً قد مرت من ذلك الطريق . ولكن ، ومن ضمن المعرفة العلمية للغزال المبنية على تجارب سابقة ، سواء كانت فردية أو متوارثة تأتي حقيقة أن الذئاب وحوش خطيرة ، وهكذا ، ومن خلال الجمع بين الملاحظة المباشرة في الحاضر وتطبيق مبدأ عام يستند إلى تجربة ماضية ، يتوصل الغزال إلى استنتاج منطقي للغاية: ألا وهو أنه من الحكمة أن يستدير ويفر في اتجاه آخر . كل هذا ينطوي ، في جوهره ، على فهم واستخدام للمبادئ العلمية ورغم غرابة الحديث

عن امتلاك الغزال لمعرفة علمية ، إلا أنه لا يوجد في الواقع أي تناقض أو عبث في هذه العبارة ، فالغزال يمتلك بالفعل معرفة علمية وهي معرفة تختلف في الدرجة فقط وليس في النوع عن معرفة عالم مثل نيوتن ، كما أن الحيوان في حدود نطاق ذكائه ليس أقل منطقية أو أقل علمية في تطبيق تلك المعرفة مقارنة بالإنسان . فالحيوان الذي

يعجز عن إجراء ملاحظات علمية دقيقة لما يحيط به ، وعن استخلاص استنتاجات علمية دقيقة منها ، سيدفع قريباً ثمن افتقاره إلى المنطق .

إن ما ينطبق على أسلاف الإنسان في السلم الحيواني ينطبق بطبيعة الحال وبمعنى أوسع وأشمل على الإنسان نفسه في أدنى مراحل تطوره . فقبل عصور عديدة من الفترة التي تفرض علينا محدوديةُ معرفتنا وصفَها بـ "فجر التاريخ"، كان الإنسان قد بلغ مرحلة متقدمة من التطور إذ طوّر بصفته كائناً اجتماعياً كافة مقومات الحضارة البدائية . وإذا ما تحدثنا عن حالته لأغراض التصنيف واصفين إياها بالتوحش أو الهمجية ، فإننا نستخدم مصطلحات تظل نسبية في جوهرها ، ولا تحول دون وجود صلة وثيقة إلى حد ما بين أسلافنا البدائيين ومُثُلنا العليا المعاصرة . ونحن نعلم أن الإنسان حتى في العصر الحجري قد تعلم استئناس الحيوانات وتسخيرها لخدمته ، كما تعلم أيضاً زراعة الأرض . وفي مرحلة لاحقة عبر مراحل اتسمت بلا شك بالبطء والمشقة توصل إلى تلك المعارف المذهلة التي مكنته من صهر المعادن وصناعة أدوات من البرونز ، ثم من الحديد. لقد كان الإنسان حتى في العصر الحجري صانعاً يتمتع بمهارة فائقة ، وهو أمر يمكن لأي شخص في عصرنا الحالي أن يدركه بنفسه إذا حاول محاكاة أداة بسيطة مثل رأس سهم مصنوع من حجر مشظّى . ولا شك أن الإنسان "الهمجي" الذي كان قادراً على تشكيل فأس أو سكين من البرونز قد قطع شوطاً كبيراً في معرفة المبادئ العلمية وتطبيقاتها العملية . ومما لا ريب فيه أن التطبيق العملي كان هو الهاجس الوحيد الذي يشغل بال سلفنا البدائي إذ من المرجح جداً أن التساؤل حول المبادئ العلمية الكامنة وراء ذلك لم يكن يشغل تفكيره على الإطلاق. ومع ذلك، فقد كان يمتلك دون وعي منه معرفة ببعض المبادئ العلمية الأولية ، حتى وإن لم يقم بصياغتها في قوالب نظرية .

ينبغي إدراك أن معرفة الإنسان البدائي هي معرفة قائمة على الاستنتاج النسبي إذ لا يمكننا تتبع تطور هذه المبادئ ناهيك عن تحديد من اكتشفها . فبعضها يُعد إرثاً انتقل للإنسان من أسلاف غير بشريين من كائنات تتحلى بوعي الهي ، في حين أن بعضها الآخر لم يكن بوسعه استيعابه إلا بعد بلوغه مرحلة متقدمة نسبياً من التطور البشري ومع ذلك ، لا بد أن جميع المبادئ المذكورة هنا كانت جزءاً من معارف أسلافنا الشمسانيين قبل بزوغ فجر الحضارتين المصرية والبابلية ، اللتين تشكل سجلاتهما مدخلنا الأول لما يُعرف بـ "العصر التاريخي".

من البديهي أن حركة الشمس والقمر والنجوم عبر السماء كانت من بين أوائل الملاحظات العلمية عند السومريين الأوائل . ومع ذلك ، لا ينبغي استنتاج أن هذه الملاحظة كانت تنطوي بالضرورة على تصور لدوران هذه الأجرام دورةً كاملةً حول الأرض . ولا داعي هنا للخوض في تكهنات حول كيفية تصور العقل السومري لانتقال الشمس

من الأفق الغربي إلى الشرقي وهي عملية تتكرر كل ليلة إذ ستتاح لنا فرصة استعراض بعض الحقائق التاريخية المتعلقة بهذه الظاهرة . غير أنه يمكننا افتراض أن فكرة انتقال الأجرام السماوية من تحت الأرض (مهما كان التصور السائد آنذاك عن شكل الأرض) لا بد وأنها قد طرأت على الذهن في وقت مبكر.

لقد تطلب الأمر مستوىً متطوراً نسبياً من القدرات الرصدية وهو تطور لا بد أن الإنسان قد بلغه قبل العصور التاريخية بمدد طويلة لملاحظة أن للقمر حركةً ثانويةً تجعله يغير موقعه النسبي في السماء مقارنةً بالنجوم ، في حين أن النجوم نفسها ، من ناحية أخرى ، تحافظ على علاقة ثابتة فيما بينها ، باستثناء ملحوظ لاثنين أو ثلاثة من أكثر أجرام السماء سطوعاً ، وهي الأجرام التي عرفت باسم الكواكب والنجوم المسيرة ..

الفصل الأول

السلسلة الذهبية للحضارة

يمارس الماضي ولا سيما الماضي السحيق في وادي الرافدين جاذبيةً قويةً علينا ، وهي جاذبية تنبع من قناعة راسخة في أعماقنا بأننا ، وإن كنا ننتمي إلى الحاضر ، فإن الماضي ينتمي إلينا . فتاريخ البشرية عبارة عن سلسلة متصلة من الحلقات التي تشكّل ما يمكن وصفه بالسلسلة الذهبية للحضارة ، إذ تُعد كل حضارة عند نشوئها وريثةً للعصور التي سبقتها ، كما ترتبط كل مرحلة من مراحل الثقافة الإنسانية بالمرحلة التي سبقتها . وتُعد حضارتنا العراقية فرعاً من الثقافة السومرية التي ساهمنا فيها بدورنا ببعض الإسهامات . وتمثل ثقافة المجتمع العراقي إمتداد حي للثقافة في سومر وبابل وآشور ، ولا يمكن إختصار حضارة عمرها تجاوز السبعة آلاف عام ببضعة مؤلفات قد لا تفيها حقها في التعبير والشرح ..

إننا عندما نسلط الضوء على الحضارة في بلادنا ، في الواقع ، ندرس الماضي المشرّف ، ونهتم بشيء جوهري ، بشيء قريب جدًا منا ، من فكرنا وروحنا . هذا الاهتمام المباشر بالماضي كجزء من أنفسنا هو ما يكمن وراء النشاط الملحوظ الذي انكشف في العراق وفي بلدان مجاورة في مهمة استعادة آثار الماضي ، التي ظلت مدفونة تحت التراب لفترة طويلة ..

لقد دأبت معاول المنقبين في بابل ونينوى على الكشف عن آثار الحضارات القديمة العظيمة التي استمد منها الاوربيون اغلب تشريعاتهم ونصوصهم ، مظهرةً في كثير من الأحيان سجلاتٍ بشرية طواها النسيان تماماً ، ومُتيحةً لنا استبدال الروايات الغامضة بحقائق مؤكدة ، وتمييز الأساطير والخرافات عن الوقائع التاريخية الفعلية ، وإعادة بناء باختصار تلك المراحل المبكرة من سعي الإنسان للارتقاء فوق ظروف بيئته ، وهو ما نطلق عليه اسم التقدم الفكري والاجتماعي والديني ، ولكن وبصرف النظر عن قِدم حضارتي بابل وآشور ، ثمة ظروف معينة تضفي على منطقة دجلة والفرات طابعاً خاصاً من الأهمية التاريخية التي لا يمكن تجاهل جوهرها في الحضارات ، إذ تشير التقاليد المتوارثة منذ القدم إلى أن هذه المنطقة لم تكن مهداً للحضارة فحسب ، بل كانت أيضاً مهداً للجنس البشري والإنساني . وتُعد "جنة عدن" جزءاً من ارض الرافدين ، وهو ما تؤكده بوضوح الإشارة الصريحة إلى نهري دجلة والفرات باعتبارهما

اثنين من الأنهار التي كانت تجري في الموطن الأول للبشرية . ورغم خلو قصة آدم وحواء من أي قيمة تاريخية ، إلا أن التقليد الذي يربط الزوجين البشريين الأولين ببابل يحمل دلالة كبيرة ، فالشمسانيون والايزيديون الذين ارتبطت تقاليدهم الدينية ارتباطاً وثيقاً لا انفصام فيه بسومر وبابل وآشور وحافظوا حتى اليوم على جوهرها واعتبروها السلسلة الذهبية للحضارة التي لا يمكن التخلي عنها . وعلاوة على ذلك ، فحتى بعد طرده من تلك الجنة الأسطورية ، لم يغادر الإنسان أرض بابل ، فسهل شنعار الذي يُصوَّر على أنه المكان الذي استقرت فيه البشرية جمعاء إبان بناء البرج العظيم الذي كان يُراد له أن يبلغ عنان السماء ليس إلا تسمية للجزء الشمالي من وادي الفرات وأغلب العلماء اتجهوا الى فكرة أن تكون سنجار هي المعنية بسبب ركاكة الترجمات التي قادت كتاب العهد القديم الى تدوين شنعار بدلاً من سنجار ، في حين أن فكرة البرج نفسه استُلهمت من "الزقورات" (أو الأبراج المدرجة) التي كانت سمة مميزة للعمارة الدينية في بابل ولا تزال اغلب معابد الايزيديين تبنى بنفس الطريقة رغم تجريد البريطانيين للحجارة من اغلبها وأصبحت تظهر وكانها تبنى على غابات مربعة او دائرية الشكل . تكمن السمة الجوهرية في ذلك التقليد الايزيدي الذي نسب إلى وادي الفرات ميزة احتضانه للبشرية جمعاء في وقت ما ، فضلاً عن كونه مهداً للجنس البشري . غير أن حقيقة اعتبار منطقة دجلة والفرات حتى بالنسبة للايزيديين القدماء منطقةً مأهولة بالسكان منذ أقدم العصور ، تعزز الفرضية القائلة بأن حضارةً رفيعة المستوى قد نشأت وتطورت لأول مرة في تلك المنطقة . وتُعد مصر المنافس الوحيد المحتمل لها ، إذ تشير الدلائل الحالية إلى أنه على الرغم من أن البدايات الفعلية للحضارة المصرية قد تعود إلى زمن أقدم وربما استمدتها من منطقة الفرات ، إلا أن بابل تسبقها في تحقيق وتطور إنجازات حضارية متقدمة .

كانت معرفتنا بدين البابليين والآشوريين شحيحة للغاية بسبب عدم إدراك من تصدى لعمليات التنقيب والبحث لطبيعة الدين والجغرافيا والبشر والحضارة التي تصدوا للبحث عنها والتعليق على احداثها . فلم تكن هناك سجلات معاصرة للفترة التي يغطيها التاريخ البابلي الآشوري ، ولم تتبقَّ آثار من الماضي يمكنها في غياب السجلات تسليط الضوء على الأفكار والعادات الدينية التي سادت يوماً ما في بلاد الرافدين . وكانت المصادر الوحيدة المتاحة تقتصر على إشارات عرضية تتسم بالنقص والتشتت أما البقية فما هي إلا نقل لمقتطفات من أعمال أخرى ، ولا سيما أعمال كتيسياس (معاصر زينوفون)، وبيروسوس (كاهن معبد "آدي" في بابل الذي عاش في عهد الإسكندر الأكبر أو بُعيد وفاته وتسميته السومرية هي بير عيسى) ، وأبولودوروس ، وأبيدينوس ، وألكسندر بولي هيستور ، ونيكولاس الدمشقي ، وهؤلاء جميعاً جاؤوا بعد بيروسوس (بير عيسى) ، وكانوا إما ينقلون عنه أو يعتمدون عليه . ويمكن القول عن كل هذه المصادر إن المعلومات التي تقدمها حول بابل وآشور تتعلق في الغالب بالتاريخ السياسي ، ولا تتناول الجانب الديني الشمساني إلا بقدر ضئيل للغاية لأنها لم تكن تتلائم وطبيعة عمل أبحاثهم التي كانت تحاول

إثبات ما موجود في العهد القديم . وكذلك إشارة عابرة إلى نمرود وإمبراطوريته التي شملت العواصم الرئيسية في منطقتي شمال وجنوب بلاد الرافدين ، وقصة تأسيس مدينة بابل التي تلتها حادثة تفرق البشر من موطنهم المركزي في وادي الفرات . ومع ذلك ، لم يحظَ كل من آشور وبابل باهتمام متكرر في كتابات المؤرخين وأقوال الأنبياء إلا حين احتدمت الصراعات السياسية للمملكتين سومر وبابل ضد الخضوع الحتمي للقوة العسكرية الآشورية المتفوقة ، ثم عقب سقوط آشور أمام القوة البابلية . وهنا أيضاً ، يظل الوضع السياسي هو العامل الأبرز ، ولا يبرز الجانب الديني إلا عرضاً ، إن الجوانب المتعلقة بالوضع الديني مثل الأهمية المنسوبة للأحلام ، والتباين الضمني بين ديانة بير عيسى ورفاقه وبين ديانة نبوخذ نصر الايزيدي والبابليين تفقد بعضاً من قوتها بسبب التأخر الزمني لتوثيق هذه الحقائق . وينطبق الأمر ذاته ، وبدرجة أكبر ، على "سفر نسروخ" الذي تتخذ أحداثه من نينوى مركزاً لها . وتُعد الأدبيات الشمسانية التي أُنتجت في سومر وبابل أكثر ثراءً بكثير من العهد الاشوري فيما يتعلق بالمعلومات حول الممارسات الدينية في بلاد الرافدين ، لا سيما تلك التي تتعلق بواجبات رجال الدين والتقسيم الطبقي بينهم ، فقد وضعت التجمعات الشمسانية الكبيرة في بابل التي تزايدت أعدادها باستمرار منذ القرن السادس قبل الميلاد بفضل تدفق أعداد جديدة من أتباع الديانة الايزيدية وجهاً لوجه أمام أوضاع دينية كانت تثير نفورهم واشمئزازهم . وفي التشريعات التي وضعها الشمسانيون لحماية أتباعهم من المؤثرات المحيطة بهم ، نجد إشارات متكررة سواء كانت صريحة أو ضمنية إلى الممارسات البابلية ، وأعياد البابليين ، وتماثيل آلهتهم ، وصيغ التعاليم الدينية لديهم ، وغيرها من الأمور ، غير أن هذه الإشارات تتسم بالغموض نظراً لطابعها غير المباشر والتي تمت ترجمتها بأشكال بعيدة عن الحقيقة بسبب جهل من ترجم بعادات وتقاليد الايزيدية ، وتتطلب شرحاً وتفسيراً لا يمكن توفيره إلا من خلال الإلمام بظروف تلك الحقبة الزمنية التي يفترض النص دراية القارئ بها مسبقاً . ويُضاف إلى هذه الصعوبة عاملُ التأخر النسبي في تدوين تلك المعلومات مما يستدعي توخي الحذر قبل إسقاطها على الفترة المبكرة جداً التي تعود إليها جذور الديانة الشمسانية البابلية . من المؤسف للغاية أن تاريخ آشور لم يُكتب بطريقة منصفة ، أو أنه فُقد إن كان قد كُتب بالفعل . فتماشياً مع العرف السائد في عصره ، أدرج بير عيسى منطقة بلاد الرافدين بأكملها تحت مسمى "آشور"، شاملةً بذلك آشور بمعناها الدقيق في الشمال وجنوب بلاد الرافدين والحقيقة ان التاج الملكي كان ينتقل في الكومنويلث السومري كل اربع سنوات ولذا ، كان من شأن هذا التوضيح أن يكتسب قيمة استثنائية ، ونظراً لأن شيئاً لم يكن يغيب عن عينه الثاقبة وعقله المتمرس ، كانت العادات الدينية قد حظيت بقدر وافٍ من الاهتمام والتدقيق في بعض المراجع التي تمت للأسف ترجمتها بعد عام 2009 . ومعظم هذه الإشارات ذات طابع تاريخي بحت وأبرزها ملخص لماضي البلاد وهو مزيج غريب يجمع بين الحقائق والأساطير والرواية . غير أنه لحسن

الحظ ، توجد أربع إشارات تتناول ديانة السكان ، الأولى تصف برجاً مكوّناً من ثماني طبقات يعلوه معبد مكرس للإله "آدي" ، والثانية تقدم وصفاً مفصلاً إلى حد ما لمعبد آخر مكرس أيضاً للإله "ايزيد" ويقع في نفس الحي بمدينة بابل ، وتتحدث الإشارة الثالثة وإن كان بإيجاز يثير الدهشة عن طقوس الدفن لدى البابليين والتي تتطابق بنسبة عالية جداً مع طقوس الايزيديين سواء من خلال نص الترقيني (الترقية الى عالم النور) او من خلال الموسيقى الدينية المصاحبة لعملية الدفن والاتجاه الذي يوجه له وجه الميت ، بينما يصف في الرابعة الطقوس المرتبطة بعبادة الإلهة الرئيسية عند البابليين ، وهي طقوس بدت مقدسة في نظر بير عيسى الذي عبّر عن إدراك دلالاتها البارة العميقة . وكما هو معلوم، فقد فقدت قوائم كثيرة مصداقيتها تماماً أمام الثقة المتزايدة في التقاليد المحلية التي نقلها بيروسوس (بير عيسى) لأنه إبن تلك الديانة وصاحب مقام ديني شمساني عظيم ..

إن ضياع تاريخ بابل الذي وضعه هذا المؤرخ (بيروسوس . بير عيسى) لأمرٌ مؤسفٌ حقاً ، إذ كانت قيمته ستفوق قيمة تاريخ كتاب كثيرون تصدوا للموضوع بسطحية وسذاجة مقيتة ، نظراً لاستناد بير عيسى كما نعلم إلى السجلات والوثائق المحفوظة في المعابد البابلية الشمسانية . ورغم صعوبة تحديد مدى تركيز ذلك التاريخ على ديانة الشعب الايزيدي إلا أن المقتطفات الواردة في كتابات مؤرخين شتى تُظهر أن بيروسوس (بير عيسى) قد استهل عمله بالحديث عن بدء الخليقة في المنظور الشمساني ، وقدم عرضاً وافياً للتصور البابلي لنشأة الكون والتي تتطابق تماماً مع قول الخليقة عند الايزيديين اليوم . وعلاوة على ذلك التاريخ المبكر لبابل الذي كان يغلب عليه الطابع الأسطوري كما هو الحال مع سائر الأمم ، فمن المرجح أن صفحات مؤلفات بير عيسى كانت زاخرة بحكايات عن العلاقات بين الآلهة الشمسانية والبشر ، وهي علاقات تتسم دائماً بالوثاقة في المراحل المبكرة من تاريخ أي أمة حتى وإن لم يخصص قسماً مستقلاً في عمله للحديث عن الديانة الايزيدية التي كانت لا تزال تُمارس في عصره . وتجدر الإشارة إلى أن الاقتباسات المأخوذة عن بيروسوس في مؤلفات يوسيفوس فلافيوس تتسم جميعها بطابع تاريخي تؤكد شمسانية الطقوس التي نقلت بالكامل الى بلاد الاغريق ، في حين تتناول الاقتباسات الواردة لدى كل من يوسابيوس وسينسيلوس الجوانب الدينية المتعلقة بكتاب البر البابلي الذي يتحدث عن رحلة عبور الايزيديون وكهنتهم الأزمنة والتخاطر مع الآلهة الشمسانية ، وتتضمن الروايات البابلية حول نشأة الكون ، وقصة الطوفان الذي أرسلته الآلهة ، وبناء البرج الفلكي الذي يحدد تواريخ معينة اعتبرته الآلهة كفراً بنظامها وعلى هذا الأساس تم تدميره . وفضلاً عن ذلك ، ينبغي التنويه بأن الاقتباسات التي وصلتنا عن بيروسوس ليست مكتملة ، فبينما كان من الممكن وإن لم يكن مؤكداً أن يوسيفوس كان لا يزال قادراً على الاطلا ع على أعمال بيروسوس الأصلية، نجد أن يوسابيوس وسينسيلوس يعتمدان على أبولودوروس وأبيدينوس وألكسندر بولي هيستور كمصادر لما ينقلونه عن بيروسوس الذي اعتبر قسماً

من أبحاثه محصورة فقط بالشمسانيين والكهنة الايزيديين للإطلاع عليها . وهذا الانتقال عبر عدة وسطاء يقلل من القيمة الموثوقة لتلك المقتطفات التي تتم فعلاً التلاعب بها من خلال اهمال ذكر كلمة ايزيدي وشمساني الواردة في المخطوطات الاصلية الموجودة اليوم في المتحف اليوناني ، ويجعل وقوع قدر من عدم الدقة لا سيما في التفاصيل وقراءة الأسماء العلم أمراً شبه حتمي . وأخيراً ، تجدر الإشارة إلى أن قائمة الملوك البابليين الواردة في العمل الفلكي الشهير لكلوديوس بطليموس ورغم قيمتها الكبيرة للأغراض التاريخية لا تمت بصلة إلى ديانة البابليين الشمسانية ..

إن حصيلة المعلومات التي يمكن استخلاصها من المصادر القديمة لتوضيح معالم الديانة البابلية–الآشورية كثيفة للغاية ، وتكفي لتحديد سماتها العامة خاصة من قبل أبناء الايزيدية . وعلاوة على ذلك ، فإن ما هو متاح منها يتطلب التحقق من صحته عبر أدلة مؤكدة وهذا ما قمنا به عبر صفحات هذا البحث ، وهي أدلة نجد لها أثراً في الأدب الايزيدي أو النصوص الدينية المتوارثة . وقد توفرت هذه الأدلة الآن بفضل الاكتشافات المذهلة التي أُنجزت في باطن أرض بلاد الرافدين منذ عام 1842 ، فإكتشافات تلال نينوى باعدت أي شك في أن الديانة الشمسانية كانت العقيدة الرسمية لسومر وبابل وآشور ، وكانت الطبيعة الاصطناعية لهذه التلال معروفة منذ فترة ، وقد تحققت أولى اكتشافات "بوتا" الهامة في قرية "خورس آباد"، كانت تقع فوق أحد تلك التلال . وهناك ، وعلى عمق قليل تحت سطح الأرض ، عثر على بقايا ما تبيّن أنه قصر هائل المساحة . أما المنحوتات التي وُجدت في هذا القصر سواء كانت تماثيل ضخمة لثيران وأسود بارزة على خلفيات من الحجر الرخامي وتحرس مداخل غرف القصر ، أو صفوفاً طويلة من النقوش البارزة التي تزين جدران القصر وتصور مشاهد الحروب وأعمال البناء والمواكب الدينية فقد تركت مجالاً للشك في أنها تعود إلى حقبة تاريخية ايزيدية في المنطقة . كما أكدت الكتابات المنقوشة على هذه الآثار صحة الرأي القائل بأن "بوتا" قد عثر على صرح تابع للإمبراطورية الآشورية فيه كتابات ايزيدية بحتة ، في حين كشفت الأبحاث اللاحقة عن تفاصيل هامة تفيد بأن هذا الصرح المكتشف كان يقع في إحدى ضواحي العاصمة الآشورية القديمة "نينوى"، التي كان موقعها يقع مباشرة مقابل الموصل . وقد استمرت جهود "بوتا" على مدى ثلاث سنوات وبحلول نهاية تلك الفترة ، وبعد أن كشف عن الجزء الأكبر من القصر ، كان قد جمع قدراً كبيراً من المواد شملت العديد من القطع الصغيرة كالفخار والأثاث والمجوهرات والحلي التي قد تفيد في دراسة الفن والآثار الآشورية ، في حين أتاحت السجلات المكتوبة المصاحبة لهذه الآثار ولأول مرة قدراً مماثلاً من المواد الأصلية للباحثين المهتمين بتاريخ آشور . وقد نُقلت كل القطع القابلة للنقل إلى متحف اللوفر ، ونُشرت تلك المواد لاحقاً . وخلف "بوتا" في هذا العمل "أوستن هنري لايارد"، الذي أجرى بصفته ممثلاً للمتحف البريطاني عمليات تنقيب بين عامي 1845 و1850 شملت في البداية تل "نمرود" (الواقع على بعد نحو 15 ميلاً جنوب "خورساباد") ، ثم موقع نينوى الفعلي

وتل "كونجي" المقابل لمدينة الموصل ، فضلاً عن زيارة وفحص تلال أخرى تقع إلى الجنوب ضمن منطقة بابل التاريخية مثل تل التوبة وباشطابيا . وهكذا ، تجاوز نطاق تنقيبات "لايارد" ما أنجزه "بوتا" إذ أضاف إلى القصر الوحيد المكتشف في "خورساباد" ثلاثة قصور في "نمرود" واثنين في "تل كونجي"، إلى جانب العثور على بقايا معبد ومبانٍ أخرى ايزيدية . وقد اتسمت هذه المباني بنفس الطراز المعماري للقصر الذي كشف عنه "بوتا"، كما أسفرت شأنها شأن ذلك القصر عن حصيلة وفيرة من المنحوتات والنقوش وقطع أثرية متنوعة . غير أن الميزة الجديدة في تنقيبات "لايارد" تمثلت في العثور على عدة غرف مليئة بكسر من ألواح طينية صغيرة وكبيرة نُقشت بكثافة على الوجهين بالخط المسماري وخط اعتبره تابعاً للغة الايزيدية . وقد تبين أن هذه الألواح التي وصل نحو 30 ألفاً منها إلى المتحف البريطاني هي بقايا مكتبة ملكية لآشور بانيبال ، إذ غطت محتوياتها شتى مجالات الفكر والمعرفة ، وشملت أقساماً رئيسية مثل الترانيم والتعاويذ والصلوات والملاحم والتاريخ والأساطير والميثولوجيا الايزيدية والرياضيات وعلم الفلك . كما عُثر في زوايا القصور على سجلات التأسيس ، التي تضمنت في كل حالة حوليات مفصلة (بدرجات متفاوتة) للأحداث التي وقعت في عهد الملك الذي كان ذلك القصر مقراً رسمياً له . وبفضل جهود "لايارد"، وُضعت اللبنات الأولى للمجموعات الآشورية والبابلية في المتحف البريطاني لكن أغلبها لم تترجم كما أراد لايارد لاسيما وأنه زار الموصل في وقت كان ثلثي سكانها من الايزيديين وكانفيها 21 معبداً ايزيدياً بقباب مخروطية وطراز في البناء ايزيدي الطابع .

تشغل المعروضات المتاحة للجمهور في المتحف حالياً ست قاعات كبيرة . وهكذا ، أضيفت مصادر جديدة ومباشرة للدراسة ، لا تقتصر على تتبع التطور التاريخي والديني للإمبراطورية الآشورية فحسب ، بل تشمل أيضاً بفضل ألواح المكتبة الملكية دراسة ديانة بلاد الرافدين الشمسانية القديمة . لقد أدى الزخم الذي أحدثه كل من "بوتا" و"لايارد" في استعادة السجلات والآثار القديمة التي ظلت محجوبة عن الأنظار لأكثر من ألفي عام إلى خلق منافسة مثمرة بين إنجلترا وفرنسا لمواصلة العمل الذي بَشَّرَ بنتائج أكثر ثراءً حال بذل المزيد من الجهود . وقد كرس "فيكتور بلاس" وهو مهندس معماري فرنسي بارز خلف "بوتا" في منصب القنصل الفرنسي في الموصل فترة خدمته الممتدة من عام 1851 إلى 1855 لاستكمال أعمال التنقيب في "خورساباد" ، وتكللت جهوده بنتائج هامة ووفيرة . وبفضل خبرته الفنية وخبرة مساعده "فيليكس توماس"، تمكن "بلاس" من تحديد البنية المعمارية لمعابد وقصور آشور القديمة بدقة أكبر وأكد طابعها الايزيدي . وفي الفترة نفسها (1852-1854)، أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة استكشافية أخرى إلى بلاد الرافدين بقيادة "فولجنس فرينيل" ، وضمت البعثة كلاً من "توماس" المذكور آنفاً والعالم المرموق "جول أوبير" . كان الهدف هذه المرة هو جنوب بلاد الرافدين ، حيث كانت التلال الأثرية هناك بمنأى عن أي تنقيب

سابق ، بل إن العديد منها لم يكن معروفاً حتى كأماكن تخفي بقايا مدن قديمة . وقد أنجزت هذه البعثة عملاً قيماً من خلال دراستها المتأنية لموقع بابل القديمة ، الواقع بالقرب من قرية "الحلة" الحديثة والتي تطابقت نتائجها بالفعل مع المخطوطات الاشورية المتعلقة بالديانة الشمسانية ..

وفي وضعٍ مواتٍ لاستخراج مكتشفات جديدة من التلال الأثرية في تلك المنطقة ، وذلك بفضل إقامته الطويلة كقنصل إنجليزي في الموصل . وإلى جانب إضافته لأكثر من ألف رقيم طيني من المكتبة الملكية التي اكتشفها لايارد ، تمثلت أبرز اكتشافاته في الكشف عن معبدٍ ايزيدي بديع في نمرود ، والعثور على بوابة برونزية ضخمة في بلاوات التي تقع على بعد بضعة أميال شمال شرق نمرود . وفي وقت لاحق ، انضم كل من رسام ورولينسون إلى جورج سميث ، الباحث في المتحف البريطاني ، في فكرة ان الديانة الاشورية كانت ايزيدية بحتة ، حيث أجرى سميث عمليات بحث إضافية في أطلال "تل كونجي" ونمرود و"قلعة شرقات" ومواقع أخرى ، وقدم إضافات قيمة عديدة للمجموعات الإنجليزية ، وذلك حتى وافته المنية بشكل مأساوي عام 1876 أثناء زيارته الثالثة لتلك التلال ، مما وضع حداً لمسيرته المهنية اللامعة والمثمرة للغاية وهو في أوج عطائه . وقد وسّع المستكشفون الإنجليز نطاق أعمالهم ليشمل التلال الواقعة في الجنوب وهناك وتحديداً في موقع "أبو حبة" تركزت جهودهم العملية . وقد كُللت جهودهم بالعثور على معبد آخر مكرس لإله الشمس الايزيدي ، إذ أظهرت سجلات التأسيس أن هذا الصرح كان قديماً للغاية ، وأنه كان قد تعرض للإهمال والتهالك قبل أن يعيد ترميمه حاكمٌ يمكن تحديد عهده بمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد وتبيّن أن الاسم القديم للمكان هو "سيبار"، وقد ذاع صيت المعبد لدرجة أن الملوك اللاحقين تنافسوا في تعزيز عظمته وفخامته . وتشير التقديرات إلى أن المعبد الايزيدي كان يضم ما لا يقل عن ثلاثون غرفة وقاعة مخصصة لحفظ السجلات (الأرشيف) ولإيواء العدد الكبير من الكهنة الشمسانيين المرتبطين به . وفي تلك السجلات ، عُثر مجدداً على آلاف الألواح الطينية الصغيرة ، التي لم تكن ذات طابع أدبي بل قانوني وديني إذ احتوت على توثيق لمعاملات تجارية أُجريت في مدينة "سيبار" القديمة ، مثل بيع المنازل والحقول والمنتجات والبضائع ، وعمليات الإقراض المالي ، والإيصالات ، وعقود العمل المؤقتة والدائمية ، واتفاقيات الزواج ، وما إلى ذلك . ونظراً لأن تطبيق القوانين كان بيد الكهنة الشمسانيين في بلاد ما بين النهرين القديمة ، فقد كانت المعابد الايزيدية هي المستودعات الطبيعية للوثائق الرسمية الخاصة بالمحاكم . عُثر على مجموعات مشابهة لتلك الخاصة بمدينة "سيبار" في كل تل أثري تقريباً بجنوب بلاد الرافدين جرى التنقيب فيه منذ أيام "رسام"؛ ففي موقع "جوجوما" الواقع بالقرب من موقع مدينة بابل القديمة استُخرجت نحو ثلاثة آلاف قطعة أضيفت إلى مجموعات المتحف البريطاني التي كانت تتنامى بسرعة . وبالمثل، في موقع "بورسبا" استخرج كل من "رولينسون" و"رسام" عدداً كبيراً من الألواح الطينية كان معظمها قانونياً

وبعضها ذي طابع أدبي وديني ، والتي تبيّن أن جزءاً منها يُعد نسخاً مكررة لتلك الموجودة في المكتبة الملكية للملك "آشوربانيبال".

وقد أظهرت التماثيل الضخمة المصنوعة من حجر الديوريت والمغطاة بالنقوش ، إلى جانب الفخار والألواح والحلي أن الحضارة في هذه المنطقة كانت قد بلغت مرحلة متقدمة للغاية في وقت مبكر يعود إلى عام 3500 قبل الميلاد ولقد أدى الأسلوب المنهجي والدقيق الذي اتبعه دي سارزيك بصبرٍ لا ينفد في استكشاف المدينة القديمة ، إلى توسيع نطاق معرفتنا بشكل كبير بأقدم حقبة في التاريخ البابلي معروفة لدينا حتى الآن . وقد نُقلت المكتشفات التي عُثر عليها في "تيلو" إلى متحف اللوفر ، الذي حصل بذلك على مجموعة من الجنوب شكّلت تكملةً قيّمةً لآثار "خورسباد". وأخيراً ، من دواعي السرور أن نلحظ الدور الذي لعبته بلادنا مؤخراً في هذا العمل العظيم الذي وفّر المادة اللازمة لتتبع تاريخ دول بلاد ما بين النهرين ففي عام 1887 ، أُرسلت بعثة برعاية جامعة بنسلفانيا لإجراء عمليات تنقيب في "نيفر" وهو تل يقع جنوب شرق بابل على أحد فروع نهر الفرات ، وكان يُعرف بأنه موقع لواحدة من أشهر المدن في تلك المنطقة . واستمرت أعمال التنقيب لمدة عامين تحت الإشراف المباشر للدكتور بيترز، ثم تولى السيد جون إتش. هاينز المهمة بعد ذلك، محققين نجاحاً مرضياً للغاية ، إذ تم اكتشاف معبد ايزيدي عظيم مكرس للإله "آدي" واقتصر العمل حتى الآن بشكل أساسي على الكشف عن الأجزاء المختلفة لهذا الصرح ، علماً بأن أساسات المبنى تعود إلى فترة أقدم من تلك التي تعود إليها آثار "تيلو". لقد صمد الموقع أمام تقلبات الأحوال التي مرت بها المدينة التي كان يقع فيها ، كما تركت كل حقبة من حقب التاريخ البابلي بصماتها في "نيفر" من خلال سجلات الحكام العديدين الذين سعوا لنيل رضا الإله عبر توسيع مكان عبادته أو تجميله. وقد أصبح المعبد وجهة مفضلة يقصدها الحجاج من كل حدب وصوب خلال الأعياد الكبرى لتقديم فروض الولاء والتبجيل عند الأضرحة المقدسة للايزيديين ، إذ كانت تُترك فيه قرابين نذرية تمثلت في اشكال مصنوعة من الأحجار الكريمة للكبش والثور المقدمين كنذور . وقد عُثر في الأرشيف على مجموعة غنية من الوثائق القانونية الرسمية التي يعود تاريخ معظمها إلى الفترة ما بين عامي 1700 و1200 قبل الميلاد ، وهي الحقبة التي يبدو أن المدينة بلغت فيها ذروة مجدها . كما جرى التنقيب في أجزاء أخرى من التل الأثري على أعماق متفاوتة ، وتحديد الطبقات المختلفة التي تعكس التسلسل الزمني لتطور الموقع واشكال العبادة فيه . وعقب دمار المدينة ، استمرت قدسيتها إلى حد ما بفضل تحولها إلى مكان للدفن وبذلك أمكن تتبع تاريخ الموقع وصولاً إلى القرنين التاسع أو العاشر الميلاديين ، وهي فترة زمنية تمتد لأكثر من أربعة آلاف عام . وقد تسلمت جامعة بنسلفانيا بالفعل ما يزيد عن 20 ألف لوح ،

فضلاً عن العديد من نماذج الفخار والأواني والجرار والمخاريط والتماثيل ، بالإضافة إلى مشغولات من الذهب والنحاس والألباستر .

تحتل المكتبة مكانة الصدارة ضمن المجموعة الأدبية ، إذ تُعد الصلوات والترانيم ، وقوائم المعابد والآلهة وصفاتها ، وروايات خلق العالم ، وأساطير الآلهة وعلاقاتها بالبشر ، مصادرَ ذات طابع مباشر للغاية ومن حسن الحظ أن هذه النصوص تشكل جزءاً كبيراً من الأجزاء التي استُعيدت من المكتبة . وتتسم النقوش الإهدائية التي أقامها الملوك في المعابد المشيدة تكريماً لآلهة معينة بطابع مباشر مماثل ، كما تكتسب الإشارات إلى مختلف الآلهة وصفاتها وقواها وأعمالها التي تظهر مراراً وتكراراً في السجلات التاريخية التي خلّفها الملوك أهميةً بالغة . فكثير من هذه السجلات يستهل أو يختتم بصلاة طويلة لإله ما ، بينما تتخلل صلوات أخرى النصوصَ بحسب المناسبة التي قيلت فيها . ونظراً لأن الملوك كانوا يعزون نجاح مساعيهم سواء كانت حملة عسكرية ، أو تشييد صرح ما ، أو رحلة صيد موفقة إلى حماية الآلهة ، فقد دأبوا على الثناء وتمجيد الإله (أو الآلهة) الذي اعتبروا أنفسهم موضع رضاه ومحبته . فالآلهة حاضرة باستمرار إلى جانب الملك ، فتارةً نقرأ عن حلم أُرسل لتشجيع الجيش قبيل خوض معركة ، وتارةً أخرى عن نذير أو علامة تدعو الملك إلى التفاؤل والاطمئنان . إن التضرع للآلهة أمر دائم ، وإليها يُنسب كل خير . كذلك ، يمكن استخلاص الكثير من المعلومات المتعلقة بالدين من الوثائق القانونية ، إذ يُستعان فيها بحماية الآلهة أو يُستنزل غضبها ولعنتها ، وتُؤدى الأيمان بأسمائها . وفضلاً عن ذلك ، فإن الدور الذي لعبته المعابد في الحياة التجارية لبابل القديمة يضفي أهميةً على هذه الألواح التي تكمن قيمتها الأساسية في تقديم لمحة فريدة عن الحياة اليومية للسكان في توضيح جوانب معينة من التنظيم الديني الشمساني في البلاد. ومما له دلالة كبيرة على المكانة التي شغلها الكهنة ، حقيقة أنهم كانوا هم أنفسهم الكتبة الذين يتولون صياغة هذه الوثائق .

تتألف المواد الأثرية التي كشفت عنها الحفريات من معابد الآلهة الشمسانية ، وتصميمها الداخلي ، ومستلزمات مختلف الوظائف الدينية ، المشاهد الدينية ، وعبادة بعض الآلهة (شيسن وشيشمس) ، وحمل الآلهة في المواكب وسكب القرابين ، وأداء الطقوس ، أو تمثيل بعض الرموز الدينية المنحوتة على جدار القصر أو على حجر أساس مبنى مقدس ، أو المنقوشة على أسطوانات الأختام ، المستخدمة كتوقيعات وتمائم . وعلى الرغم من ضخامة هذه المواد ، إلا أنها لم تُستنفد بعد ، بل إنها غير كافية لتوضيح جميع تفاصيل الحياة الدينية . لن يبدو هذا مفاجئًا ، إذا تذكرنا أنه من بين أكثر من مئة تل تم تحديدها في منطقة دجلة والفرات على أنها تحتوي على بقايا مدن مدفونة ، لم يتم استكشاف سوى نسبة ضئيلة منها، ومن هذه التلال لم يتم استكشاف سوى ستة تلال فقط بشكل شبه كامل . ولا شك أن أرض بلاد ما بين النهرين لا تزال تحوي كنوزًا أعظم مما كشفت عنه حتى الآن . إن الروابط

التي تربط أقدم العصور ، حوالي 4000 قبل الميلاد، بالدمار النهائي للإمبراطورية البابلية في منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، لا تزال بعيدة عن الاكتمال . فنحن نجهل الكثير عن قرون كاملة ، وعن قرون أخرى لا نعرف سوى القليل من الحقائق الأساسية وحتى يتم سد هذه الثغرات ، فالطقوس الدينية الايزيدية لا تخضع لتغييرات كثيرة ، وتطور الأفكار الدينية لا يواكب التغيرات المستمرة في المشهد السياسي المتنوع لأي بلد ولكن من الواضح أنه لا توجد دراسة شاملة على نطاق بلدٍ كالعراق ومع ذلك ، فمن الواضح أنه لا يمكن تقديم معالجة شاملة للدين إلا عندما تصبح المادة المتاحة كافيةً لتغطية الموضوع وكذلك عندما تعطى الدراسات لابناء البلد الملمين بتاريخ وحضارة البلد وأدبه الديني .

ثمة سؤال لا يزال مطروحاً للنقاش حول أصل الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين ، ويمكن طرحه هنا في سياق الحديث عن عمليات التنقيب وفك الرموز ، وإن لم تكن هناك حاجة للخوض في تفاصيله لأن البعض يعتبرها لغة إلهية تم منع تداولها بمرور الزمن . يُعد النمط "الايزيدي" من الكتابة المسمارية (كتابة الأسافين في لالش) مشتقاً مباشراً من النمط البابلي ، لكن بعض المؤرخين يرى العكس ، إذ ظهر في العصر الأول لتشكيل المملكة السومرية ، وهو ليس سوى تبسيط من حيث الشكل والمبدأ للنمط البابلي الأكثر تعقيداً وضخامة . فبدلاً من استخدام تشكيلات قد تصل إلى عشر أو خمس عشرة علامة إسفينية لتكوين رمز واحد ، نجد أن النمط الايزيدي لا يتجاوز سبعة علامات ، وغالباً ما يكتفي بثلاث فقط للتعبير عن شيء ما ، كما استُخدمت الأصوات وحدها بدلاً من كتابة الكلمات وفق المقاطع الصوتية ، واختُزلت قائمة الرموز المقطعية التي كانت تضم مئات العلامات لتقتصر على اثنتين وأربعين علامة ، في حين أُلغي النمط التصويري (الإيديوجرافي) عملياً حتى في لالش . أما النمط الثاني من الكتابة المسمارية المعروف عموماً باسم النمط الداسني فهو بدوره لا يعدو كونه تعديلاً طفيفاً على النمط "البابلي" .

إلى جانب هذه اللغات الثلاث المتداولة ، توجد لغة رابعة (كانت تُستخدم في المنطقة الشمالية الغربية من بلاد الرافدين ، بين نهري الفرات والعاصي) تُعرف باسم "الميتانية" ورغم عدم تحديد وضعها الدقيق بوضوح لانها كانت عبارة عن لهجة محلية محكية ولا تمتلك أساس منهجي لتصنيفها بين اللغات في ذلك العصر ، إلا أنها طُوِّعت لتُكتب بالرموز المسمارية . وهناك نمط خامس يظهر في ألواح عُثر عليها في كبادوكيا ، ويمثل بدوره تحويراً للكتابة المألوفة في بابل . ففي النقوش الميتانية ، نجد مزيجاً من الرموز التصويرية والمقاطع الصوتية تماماً كما هو الحال في بلاد الرافدين في حين أن الألواح التي تُوصف بـ "الكبادوكية" كُتبت بلغة بابلية "محوّرة" (أو غير قياسية) لكنها اشورية بامتياز ، وهو يتوافق مع الأشكال "المحوّرة" التي تتخذها الرموز نفسها . أما في بلاد الرافدين ذاتها ، فقد وُجدت أنماط متعددة بعضها نشأ بتأثيرات محلية ، والبعض الآخر كان نتيجة لتغيرات طرأت بمرور الزمن . ففي أقدم العصور المعروفة أي

في الفترة ما بين 4000 و3000 قبل الميلاد كانت الكتابة خليط بين خطية وأخرى مسمارية ، إذ كانت الكتابة الخطية تمثل تحويراً للصور الأصلية لتلائم النقش على الحجر ، بينما كانت الأشكال المسمارية تحويراً طبيعياً فرضته الكتابة على الالواح . ومع ذلك ، عندما أصبحت الكتابة المسمارية هي الأسلوب السائد حتى في لالش ، وعمد النُقّاشون الذين ينحتون الرموز على الحجر إلى محاكاة الأشكال المسمارية . ونتيجة لذلك ، نشأ نوعان من الكتابة المسمارية أحدهما يُعرف بـ "النمط الحجري" (أو النمط الخاص بالنقوش) ، وكان يُستخدم في النقوش الحجرية والسجلات التاريخية الرسمية والوثائق القانونية التي أُعدت بعناية فائقة ، والآخر هو "النمط الانسيابي" (أو السريع) ، الذي اقتصر استخدامه على الألواح القانونية والتجارية ، وازداد شيوعاً مع الاقتراب من المراحل المتأخرة للكتابة البابلية ، التي امتدت حتى عقود قليلة قبل بداية عصرنا الحالي. وأخيراً ، في آشور ، تطور نمط خاص من الكتابة المسمارية يمكن تمييزه بسهولة عن النمط البابلي بفضل دقته وترتيبه الأنيق ، وبسبب الوضعية الأكثر عمودية للرموز المسمارية فيه . .

وعليه ، فإن أصل كافة أنماط وأشكال الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين وتحديداً في ذلك الجزء الذي نشأت فيه الحضارة ، أي أقصى الجنوب . ومع ذلك ، وبخلاف القول بأن هذه الكتابة تُعد تطوراً مباشراً للكتابة التصويرية ، لا يمكن الجزم بأي تفاصيل محددة أخرى فنحن لا نعلم متى نشأت هذه الكتابة ومن نشرها لتكون لغة رسمية امتدت لآلاف السنين ، وإنما نعلم فقط أنها كانت مكتملة التطور بالفعل في أقدم النقوش المكتشفة ، ولا تزال المسألة تفتقر إلى إجابة قاطعة عما إذا كان هؤلاء المبتكرون يتحدثون اللغة البابلية أو لغة سومر المسمارية . وحتى ما يقرب من خمسة عشر عاماً مضت ، كان الاعتقاد السائد أن الكتابة المسمارية هي بلا شك ابتكار سكان العراق القدماء في بابل في حقبة مبكرة ، وأن البابليين اقتبسوا هذه الكتابة وما صاحبها من حضارة أنتجها ذلك العرق في سومر عنهم وكان يُعتقد أن هؤلاء المبتكرين الذين أطلق عليهم البعض اسم "السومريين" ، والبعض الآخر "الأكاديين"، بينما وصفهم فريق ثالث بـ "السومريين-الأكاديين" قد استخدموا "المسمارية" حصراً كنظام كتابة تصويري أو "إيديوجرافي" (يعبر عن الأفكار) ونظراً لأن لغتهم كانت "إلصاقية" وتتألف في الغالب من مقاطع أحادية الصوت ، فقد كان من الممكن لهم الاكتفاء بتلك المرحلة من التطور . أما البابليون ، وسعياً منهم لتكييف الكتابة مع لغتهم فلم يكتفوا بأسلوب "الكتابة التصويرية" بل عمدوا من خلال استخدام المقابل غير التصويري لكلماتهم إلى توظيف الرموز كـ "مقاطع صوتية" ، مع الاحتفاظ في الوقت ذاته بوظيفة الرمز كعلامة تعبر عن فكرة (إيديوجرام) . فعلى سبيل المثال ، استُخدمت علامة "يوم" للدلالة أيضاً على "الضوء" و"السطوع" و"النقاء"، وما إلى ذلك . وبهذا يمكن تفسير التنوع في القيم المقطعية والرمزية (الإيديوغرافية) التي تتسم بها العلامات المسمارية .

ومع ذلك ، ورغم ما تتمتع به هذه النظرية من جاذبية بفضل بساطتها الا انها لا تشكل كل الحقيقة ، اذ لا يمكن قبولها بصيغتها المطلقة هذه لسبب بسيط وهو جهل من قام بدراستها بأبجديتها وطبيعة الحياة الدينية لشعب استخدمها ، فقد أثبت تقدم المعرفة بما لا يدع مجالاً للشك أن الحضارة القديمة هناك بما في ذلك الجانب الديني ذات طابع شمساني . ومن ثم فإن افتراض وجود ثقافة غير شمسانية تماماً في جنوب بابل هو افتراض لا يصمد أمام النقد . وحتى في أقدم النقوش المكتشفة لم تترجم بشكل سليم ، تظهر كلمات وتراكيب لغوية سامية تدل بوضوح على أن الشمسانيين هم من صاغوا تلك النقوش ومن خلال النصوص نستطيع ببساطة التأكد من ذلك ف شيسن وشيشمس فقط موجودان في الأدب الديني الايزيدي وليس في أي دين آخر على كوكب الأرض . وطالما لم يُعثر على أي أثر لنقوش غير شمسانية تماماً فإن صحة الطرح تكمن في التعريف السليم للحقائق ، فلا يمكننا تجاوز العنصر الشمساني عند البحث عن أصل الثقافة في هذه المنطقة . وفي ضوء ذلك، تستوجب النظرية التي طرحها لأول مرة البروفيسور جوزيف هاليفي (من باريس) والتي يحظى بها اليوم تأييد أبرز علماء الآشوريات الألمان ، البروفيسور فريدريش دليتش دراسةً متأنيةً للغاية فهذه النظرية القائلة بأن الكتابة المسمارية ذات أصل شمساني تدعمها أدلة كثيرة وهي أقرب الى الايزيديين من أي شعب آخر ، وتفسر ظواهر عديدة بسهولة أكبر مقارنةً بالنظرية المقابلة التي طرحها في الأصل الرائد المرموق في دراسات الكتابة المسمارية ، جول أوبيرت ، والتي لا تزال تحظى بتأييد غالبية العلماء (مع إدخال بعض التعديلات عليها) . إنها مسألة لا يمكن حسمها بالاعتماد على فقه اللغة (الفيلولوجيا) وحده وهنا يكمن الخطأ الجوهري لدى أنصار النظرية السومرية–الأكدية ، الذين يبدو أنهم يغفلون حقيقة أن نتائج الأبحاث الأثرية والأنثروبولوجية يجب أن تؤكد الفرضية اللغوية قبل أن يتسنى قبولها كحقيقة لا تقبل الجدل . ومع ذلك ، نعم حان الوقت ليصدر هذان العلمان حكماً قاطعاً في هذا الشأن ، وإن كان يمكن القول إن فرضية وجود الشمسانيون سكنت جنوب بلاد الرافدين قديماً تجد ما يدعمها في المعطيات التي وفرتها أبحاث علماء الأنثروبولوجيا حول عصور ما قبل التاريخ . ومن ناحية أخرى ، لا يمكن إنكار أن نظرية الأصل الشمساني للكتابة المسمارية تواجه عقبات يصعب تجاوزها بسهولة لا سيما من قبل علماء لم تعجبهم هذه الحقيقة الساطعة . في حين تسعى هذه النظرية إلى تفسير القيم المقطعية للعلامات استناداً إلى المبدأ العام القائل بأنها تمثل عناصر من الكلمات البابلية التي قُطعت أو اختُزلت على هذا النحو تلبيةً للحاجة المتزايدة إلى كتابة صوتية لكلمات لم تكن لها رموز تصويرية (إيديوجرامات) مقابلة فإنه من الصعب التصديق (كما تقتضي نظرية هاليفي) بأن الأسلوب "التصويري" السائد بصفة خاصة في النصوص الدينية الايزيدية كان اختراعاً متعمداً من جانب الكهنة وذلك رغبةً منهم في ابتكار وسيلة لنقل أفكارهم بحيث تظل غامضة ومبهمة بالنسبة لعامة الناس (علم باطن) ، وتُحجب عنهم بنجاح . وهنا

أيضاً ، تقترب النظرية من مجال علم الآثار ، ولن تكون فقه اللغة (الفيلولوجيا) وحده كافياً لحل هذه المعضلة . ويمكن تلخيص الحكم الموضوعي على التاريخ البابلي لهذه المسألة على النحو التالي ..

1. من المسلّم به عموماً أن كامل الأدب البابلي بما في ذلك أقدم النصوص وتلك المكتوبة بالأسلوب "الإيديوغرافي" (الرمزي)، وسواء أطلقنا عليه اسم "السومري-الأكادي" أو "الشمساني" هو نتاج الشمسانيين الذين أسسوا بلاد الرافدين ، وحتى نظرية الخلق والنشوء التي كانت تدرّس في بابل لا توجد في أي أدي ديني في المنطقة سوى عند الايزيديين لا سيما أسماء الآلهة وطريقة التعبّد وأداء المناسك وإشعال الفتائل وصولاً الى طبيعة الثياب التي كان الكهنة يرتدونها والتي توارثناها عبر العصور ووصلت الينا حتى اليوم ..
2. تُعد الثقافة البابلية بما فيها الديانة نتاجاً شمسانياً ونظراً لأن آشور قد استمدت ثقافتها من بابل، فإن الملاحظة ذاتها تنطبق على منطقة بلاد الرافدين بأكملها ، فالمثقف في العهد السومري كان جامعاً لكوزمولوجيا الوجود وكل العلوم ولم يكن هناك شيء إسمه تخصص في ذلك العصر فحتى تكون الثقافة مكتملة كان الشمسانيون يلمون بكل العلوم للصول الى أعلى درجات العلم ..
3. يتسم النظام المسماري (القائم على المقاطع الصوتية النارية والهوائية والمائية والترابية) بطابع شمساني إلى حد كبير؛ فالأفكار التي تعبر عنها القيم الرمزية (الإيديوغرافية) للعلامات لا تقدم أي دليل على أنها نشأت في بيئة غير شمسانية ومهما كان أصل هذا النظام ، فقد صاغه البابليون وطوّعوه تماماً لأغراضهم ، لدرجة أنه أصبح من الناحية العملية نظاماً شمسانياً متكاملاً فشل علماء الآثار في فهم طبيعته ..
4. من منظور نظري يراعي أغلب العلماء العناصر الشمسانية في النظام من خلال الإحتفالات التي كانت تتغنى بأبناء وبنات الشمس في كل عيد وحفل ديني أو شعبي ، وكانت لغة العصر فيها هي لغة النور وكانت بعيدة كل البعد عن الوثنية أو عبادة العناصر الطبيعية بشكلها المجرد ، فالبابليون كانوا يعتقدون أن هناك دورات كونية خاضعة للشمس وطاقاتها تستغرق مئات وربما آلاف السنين ، وهناك دورات كونية خاضعة للقمر وطاقاته وتستغرق أيضاً مئات وربما آلاف الأعوام ، لهذا سمى البابليون انفسهم بالشمسانيون لأن فتراتهم كانت شمسانية ويعبدون شيشمس أو إله الشمس ، والآشوريون في فترة حكمهم كانت دورات الكون قمرية الطابع فعبدو شيسن أو إله القمر فالبابليون كانوا شمسانيون لفترات طويلة والآشوريون كانوا سنّيون لفترات طويلة لأنهم كانوا تابعون للملك شيسن ..

إن الأمر المهم بالنسبة لغايتنا هو أن المفاهيم والممارسات الدينية كما تنعكس في المصادر الأدبية المتاحة لنا حالياً هي بابلية بامتياز وشمسانية ايزيدية ايضاً ، فكل باحث منصف يبحث عن تشابه تلك الممارسات مع عادات وتقاليد شعب على ارض الواقع وفي البلد نفسه وليس في الفضاء ، فالايزيدية ورثت من سومر وبابل واشور شمسانيتها وعقيدتها النورانية الراسخة . فالعوامل المحلية والفترة الزمنية الطويلة التي شملها تطور هذه الديانة وتاريخها كافيةٌ لتفسير الظواهر المختلطة والمعقدة من نواحٍ عديدة التي تتسم بها هذه الديانة العريقة ..

يمكن وصف الديانة البابلية في أقدم صورها المعروفة لنا بأنها فلسفة وجود لها نظرة عميقة للخلق والنشوء لا يمكن لأي باحث تجاهلها . فبدءاً بتلك المرحلة من المعتقدات الدينية المعروفة بـ "النورانية" (أو الاعتقاد بوجود روح في كل شيء) والتي ثبت أنها ظاهرة عالمية عملياً في المجتمعات االقديمة انتقل البابليون من إضفاء طابع الحياة على ظواهر الطبيعة (كالأشجار والأحجار والنباتات ، والأحداث الطبيعية كالعواصف والأمطار والرياح ، وبالطبع الأجرام السماوية العظيمة والنجوم) إلى دعوة عدد لا حصر له من الأرواح ، وقسّم البابليون مستويات الوعي الى خمسة هي (الوعي النباتي ، الوعي الحجري ، الوعي المعدني ، الوعي الحيواني ، الوعي البشري) أما مستويات الوعي الشمساني فهي الأخرى قسموها الى خمسة (الوعي الإنساني ، الوعي الإنساني الإلهي ، الوعي الإلهي الإنساني ، الوعي الإلهي ، الوعي الشمساني المطلق) ووصفوا كل منها بمجموعة من المجلدات وصلت للمتحف البريطاني على هيئة مخطوطات حجرية باللغة المسمارية ..

وصف البابليون الوعي النباتي بأنه وعي الخلية الحيّة الأولى في الوجود ومنها إنطلقت الكائنات الأخرى في الطبيعة ، وهذا الوعي يتطور تدريجياً الى أن يصل عتبة الوعي الحيواني من خلال مروره بحالات وعي قليلة في الحشرات وأنواع الطيور والزواحف ، كما مثلوا الوعي الحجري بأنه الأساس الذي يساهم مع الوعي النباتي في تشكيل أسرار الطبيعة الحيّة وقوانينها ، ويتحول الإثنان بفعل الطيف الكهرومغناطيسي القادم من الشمس الى وعي معدني في مرحلة لاحقة لتؤسس لوجود التنور والشروق في الأحجار الكريمة وتطورها فيما بعد الى معادن ثمينة في الوجود ، أما الوعي الحيواني فإعتبروه المقدمة الموضوعية لظهور الوعي البشري البدائي ، إعتبر البابليون الوعي البشري أسير مستويات الوعي الأربعة التي ساهمت في تكوينه لهذا كانوا يصفون تركيبة البشر بأنها مكونة من ثلثين لعالم المادة وثلث شمساني إلهي ، وهذين الثلثين أطلقوا عليها تسمية النفس البشرية (الغرائز والملذات المرتبطة بعالم المادة) ..

أما مستويات الوعي العليا فقد صنفها البابليون بطريقة تدعو للدهشة لأنها كانت تقوم على أساس جوهري وهو الطريق الذي يجب على البشر سلوكه للتخلص من السجن الزمني المتمثل بثلثي المادة الملتصقة بالروح ، فتبدأ الرحلة

بالتحرر من السجن الزمني والإنتقال الى الحالة الإنسانية المتمثلة بالأعمار المحددة بين 1000 عام الى 1600 عام حيث يتحلى الانسان هنا بثلثين إلهيين مقابل ثلث ينتمي لعالم المادة ، وكان أغلب الملوك والكهنة في سومر وبابل وآشور ينتمون لهذه الطبقة من الانسان ذات العمر الطويل نسبياً ليحكم الممالك والبلدان ويشرف على تصريف أعمال البشر محدودي العمر ..

أما الفسلجة الجسدية لهذا النوع من الكائنات المسمى انسان فكانت عبارة عن دماء باردة من مياه الألماس وقلب نابض من ستة خيوط ذهبية كما تصفه الألواح وكان أغلبهم يعيشون على الأكاسير ولا يتناولون طعام البشر بل إكسير معين يلامس اللسان ليذوب وينتقل الى الدماغ عبر آلية أوكسجين احادي الذرة لينقل فوائده للقلب والجسد لهذا كانت طبقة الملوك والكهنة تعيش على حاستي التذوق والشم فقط ، بينما باقي الحواس مختفية ، أما طرق العلاج التي كانوا يتبعونها فكانت عبارة عن غرفة مليئة بالأحجار الكريمة يجلسون فيها لساعات طويلة تقوم بتنظيم وظيفة الجسد على أكمل وجه دون الحاجة لعقاقير أو أدوية بل أشعة نابضة من الأحجار الكريمة كانت تعادل مشفى كامل دون أجهزة ..

وينطبق هذا الأمر على الانسان المتحلي بالوعي الإلهي والذي تصفه المخطوطات بأنهم طبقة المهندسين والمدرسين والأكاديميين في العصر البابلي حيث كان الجميع يناديهم باسم يا طويل العمر لأن أعمارهم كانت 3600 عام ويختلفون عن الانسان العادي في أن هالتهم كانت بحاجة الى أشعة الشمس والى أكاسير أكثر تركيزاً من تلك التي كان الانسان العادي يتعاطاها مع فارق أنهم كانوا بحاجة لها كل ستة أسابيع مرة واحدة ..

أما الحالة الثالثة في مستويات الوعي الشمساني في العصر البابلي فقد كانت الإله الإنسان وهي مجاميع كانت تتمكن من تغيير جلدها الى إنسان من خلال إستخدام العلوم الكونية التي كانت بحوزتهم وتزخر الكثير من المخطوطات بتماثيل لهذا المخلوق الذي كان يظهر في الأعياد على شكل إنسان برأس أسد أو غراب أو هد هد أو ثور بأجنحة أو طائر برأس بشري ويشكل هذا الكائن مجمع تسميه المخطوطات البابلية بأنهم الأخوية الكبرى الحاكمة ..

أعمار هذه الكائنات كانت تتراوح بين 36 الف عام الى 42 ألف عام وكانوا يشكلون مصدر مهم في الحفاظ على التوازن البيئي لكوكب الأرض وكانوا أقلية لا تتجاوز الخمسون ألف عنصر من نساء ورجال ، أما تركيبهم الجسدية تصفها المخطوطات بأنها أقرب الى الأثيرية وتعتمد على الأشعة في نموها وخاصة تلك القادمة من الشمس والأحجار الكريمة والروبين واللازورد وكانوا يمتلكون تقنيات عالية لإستخلاص هذه الأشعة من المعادن ..

أما المستويات الشمسانية العليا المتمثلة بالوعي الإلهي والوعي الشمساني المطلق فقد صنفتهم المخطوطات بأنهم الكائنات الخارقة التي كان يحق لها الصعود الى الفضاء لأنها خالدة ولأنها كانت قادرة على معرفة البوابات النجمية التي تربط كوكب الأرض بكل الكواكب المحيطة به وكذلك البوابة النجمية التي تربط الأرض بالقمر وكانت سفراتهم الى بقية الكواكب لحظية لا تحتاج الى تقنيات ..

إذ كان يُنظر إلى هذه الأرواح بطريقة ما على أنها تجسيد لتلك الحياة التي تتجلى في صور متنوعة وخارقة بالنسبة للعقل البشري ، ومع ذلك ، فقد كان هذا التعريف مقيداً بالتجربة العملية التي أظهرت أن بعض الأرواح تمارس تأثيراً حاسماً على شؤون البشر يفوق تأثير غيرها . وكانت النتيجة هي ترجيح كفة عبادة الشمس والقمر والمياه وكذلك الظواهر الطبيعية كالمطر والرياح والعواصف (وما يصاحبها من رعد وبرق) ، على حساب تلك الأرواح أو الكائنات الخفية التي لا تُحصى والتي كان يُعتقد أنها تكمن في كل مكان حتى يومنا هذا . ورغم ذلك ، لم يتم تجاهل هذه الأرواح الأخيرة تماماً فبما أن كل شيء كان مفعماً بالحياة ، لم تكن هناك مجرد "روح" للشجرة المثمرة فحسب ، بل كانت هناك أرواح في كل حقل ، فالأرض كانت ملكاً لها ، وعلى رحمتها كان يتوقف نجاح المحصول أو فشله. لذا ، لم يكن كافياً للمزارع أن ينال رضا المطر والشمس فحسب ، بل كان عليه أيضاً أن يحظى بحماية الأرواح الحارسة للتربة ، ليضمن جني ثمار جهودهم . ومرة أخرى ، عندما تحولت مجموعة من الأراضي الزراعية نتيجةً للتجمع والتعاون إلى قرية صغيرة ، ثم نمت وتوسعت لتصبح مدينة ، كان لا بد أن يُنظر إلى هذه المدينة (باعتبارها وحدة واحدة بفضل تنظيمها السياسي الخاضع لحاكم) على أنها تتمتع بقوة خاصة تهيمن على مصيرها ، وتحميها من المخاطر ، وتكون مستعدة للدفاع عن حقوق وامتيازات الخاضعين لسلطتها المباشرة . وبهذه الطريقة ، كانت كل مدينة بابلية سواء كانت كبيرة أو صغيرة تحظى بإله مكرس لرفاهيتها ومع توسع المدينة وضمها ربما لمناطق مجاورة وارتقائها لتصبح مركزاً لإقليم أو مقاطعة ، كانت سلطة إله المدينة تتسع بالمقابل . وحين كانت المدينة تتعدى على نطاق نفوذ آلهة محلية أخرى ، فإنها عن طريق الغزو كانت تقضي على تلك الآلهة (تقضي على نفوذه) أو تُخضعها لمكانة أدنى وتابعة . وكان يُعبَّر عن هذا الوضع الجديد بجعل الإله المهزوم خادماً للإله المنتصر ، أو بتصوير العلاقة بينهما كعلاقة أب بابنه أما في حالات الاندماج السلمي بين مدينتين أو إقليمين ، فقد كانت الآلهة الحامية تعقد تحالفاً يعكس الشراكة القائمة على الرابطة الزوجية . وهكذا ، نشأت في بابل إن جاز التعبير عملية انتقاء من بين مجموعة لا حصر لها من القوى المُشخَّصة (سواء كانت ظاهرة أو خفية) التي ربما كانت يوماً ما موضعاً للعبادة . لقد أفسح التجانس الذي ميز عالم الأرواح وهو السمة المميزة لمذهب "النورانية" الشمساني المجالَ لنظام من التمايز تحكمه التطورات السياسية والنمو الاجتماعي في بابل ، إذ تحولت القوى الطبيعية الأكثر أهمية إلى آلهة ، بينما

أُحيلت القوى الأقل شأناً بشكل عام إلى مرتبة ثانوية كأرواح أو كائنات أدنى (مثل "الجن" في المعتقدات العربية). وفقط في حالة الروح الحامية لمدينة أو إقليم بأكمله ، كان من الممكن وإن لم يكن ذلك يحدث دائماً أن ترتقي تلك الروح إلى مرتبة "الإله" بالمعنى الدقيق للكلمة . ومع ذلك ، ففي كثير من الحالات ، كان هذا الإله الحامي قد يكون جرماً سماوياً كالقمر أو الشمس أو النجوم وهي أجرام كان يُعتقد أنها تنظم مصير البشرية أو قوة من قوى الطبيعة كالمطر أو العاصفة وحتى إن لم يكن الأمر كذلك في الأصل ، فقد تتماهى الإله الحامي مع مرور الزمن مع إحدى قوى الطبيعة وذلك إن لم يكن لسبب آخر فببساطة بسبب المكانة البارزة التي اكتسبتها عبادة تلك القوة في ذلك المكان . ونتيجة لذلك ، يبلغ التداخل بين العبادات المحلية وعبادات قوى الطبيعة حداً يجعل من المستحيل غالباً التمييز بينهما إذ يصعب في حالات كثيرة تحديد ما إذا كان الإله المرتبط بمدينة معينة مجرد روح محلية تحرس رقعة جغرافية محدودة ، أم أنه تجسيد لقوة طبيعية ترتبط بطريقة ما بجزء معين من بابل .

الفصل الثاني

آلهة العالم الأنثوي

لقد سُلِّط الضوء بالفعل على العدد القليل نسبياً من الآلهة الإناث اللواتي يظهرن في نقوش الفترة الأولى من التاريخ البابلي . ومع ذلك ، لا ينبغي لنا أن نستنتج من ذلك أن مثل هذه الآلهة لم تكنّ موجودات بأعداد أكبر ، بل على العكس ، يمكننا الجزم بأن كل إله كان له قرينة ، وفي بعض الحالات أكثر من قرينة واحدة . وقد أورد هذا الفصل أمثلة عديدة على هؤلاء القرينات ، أما إذا كانت قرينات الغالبية العظمى من هذه الآلهة غير معروفات ، فذلك يعود إلى الدور الهامشي الذي لعبته تلك القرينات .

لقد أصبحت الآلهة الإناث في بابل باستثناءات قليلة مجرد انعكاسات باهتة للآلهة الذكور ، لا يتمتعن إلا بقدر ضئيل من السلطة المستقلة ، أو لا يملكن أي سلطة على الإطلاق في بعض الحالات ، إذ إن ما حظين به من مكانة وشهرة كان بفضل ارتباطهن بنظرائهن من الآلهة الذكور . ونتيجة لهذا الدور الثانوي الذي لعبته الآلهة الإناث تزايدت مع الانتقال من الفترة الأولى إلى الفترة الثانية من التاريخ البابلي النزعةُ نحو تقليص أعداد القليلات اللواتي امتلكن سمات مستقلة عن طريق دمجهن في غيرهن ، حتى وصلنا إلى مرحلة لم يعد فيها عملياً سوى إلهة واحدة تظهر في صور متعددة . وفقط في النصوص الدينية وبعض جوانب المعتقدات الشعبية ، حافظت الآلهة الإناث على قدر معين من البروز والمكانة؛ فعلى سبيل المثال ، تلعب الإلهة "ألات" كما سنرى دوراً مهماً بصفتها الإلهة الرئيسية للكهف السفلي الذي يأوي الموتى . ويبدو أن "ألات" كانت في الأصل قرينة للإله الشهير "بيل" من مدينة نيبور، ولكن نتيجة لارتباطها بالإله "نيرجال" الذي أصبح الإله الرئيسي للعالم السفلي تلاشت تقريباً كل آثار الطابع الأصلي لهذه الإلهة . وعلاوة على ذلك ، أن "غولا" قرينة "نين-إب"- قد ذُكرت أحياناً في النصوص التاريخية التي تعود للفترتين الثانية والثالثة ، وظهرت أيضاً بصيغة "ما-ما" كجزء من اسم عَلَمٍ يعود لأقدم العصور الشمسانية ويعكس علم باطن في نفس الوقت ، إلا أنها كانت تُستحضر وتُدعى كثيراً في التعاويذ بصفتها شافيةً من الأمراض. وينطبق الأمر ذاته على آلهاتٍ أُخريات ، مما يتيح لنا استنتاج أن الديانة الشمسانية البابلية منذ أقدم عهودها قد اتسمت بتلك السمة البارزة في جميع المعتقدات النورانية ، والمتمثلة في الجمع بين المبدأين الذكري والأنثوي عند

تجسيد القوى التي تتحكم في مصير الإنسان . ولا شك أن المكانة الأقل شأناً للمرأة فيما يتعلق بالجوانب الظاهرة للحياة الاجتماعية والسياسية تُعد عاملاً جزئياً في تفسير الأهمية الثانوية التي أُسبغت على قرينات الآلهة ، ومع ذلك يمكننا الجزم بأنه لم يكن ثمة إله مهما ضاق نطاق سلطته أو قلّ عدد عُبّاده إلا واقترنت به رفيقةٌ أنثى تتبعه كما يتبع الظلُّ الجسدَ ..

يُظهر غوديا ميلاً لمنح مجمع آلهته أوسع نطاق ممكن ، ففي هذا الصدد يتبع نماذج سابقة ، كما يرسخ نموذجاً سار على نهجه العديد من حكام بابل وآشور ، الذين اعتقدوا أن كثرة الآلهة التي يستدعونها تضفي هيبةً أكبر على مكانتهم في نظر رعاياهم . وعلاوة على ذلك، فإن ضم آلهة المناطق الخاضعة لسيطرتهم إلى مجمع آلهتهم لم يكن يضمن لهم حماية تلك الآلهة فحسب ، بل كان يؤكد أيضاً أحقيتهم في بسط سيادتهم على نطاق أوسع . لقد كانت بدايات ونهايات النقوش النذرية والتذكارية تمثل فرصاً سانحة اغتنمها الملوك لاستعراض قائمة القوى الإلهية التي أرادوا أن يظهروا تحت رعايتها . وتكتسب هذه القوائم أهمية وقيمة كبيرتين ، إذ تقدم في صيغة موجزة وميسرة ملخصاً لأبرز الآلهة التي ضمها المجمع الإلهي البابلي عبر مختلف الحقب التاريخية ففي ختام أحد نقوشه ، يورد غوديا قائمة تضم ما لا يقل عن ثمانية عشر إلهاً ، حيث يسرد على التوالي:

أسماء آلهة الأخوية البابلية ..

آنو ، وإنليل ، ونينهرساج ، وإنكي ، ونينورتا ، وننار ، وآشور ، وعشتار ، ومردوخ ، وتموز ، ونيرجال ، ونيناجال ، ونينجيشيزيدا ، وأريشكجال ، ونينسون ، وباو ، ونيني ، وأوتو (شمش) ..

وبين الآلهة البابلة أو ما كانت تسمى بالأخوية البابلية كانت نساء تتقدمهم نيماه العظيمة التي أعطيت لقب نينهارساج (الهيفاء) وأنانا التي أعطيت لقب سماوي هو عشتار ، ونيناجال زوجة نيرجال والملكة الفعلية للتحكم في العوالم السفلية ونينسون والدة كَلكَامش ، وتورد المخطوطات البابلية بأن أول مبدأ آمنت به الأخوية البابلية هو مبدأ الثنائية (الذكر والأنثى) وأعطت مكانة لكل منهما بواجبات وحقوق أبدية الطابع لا يمكن تحويرها أو تخطي قوانينها ، حقيقة أن النقش يخلّد ذكرى تكريس مزار لهذا الإلهة . وخاصة تلك التي تتعلق بنقوش وجدت في لالش شمال العراق والتي تتحدث عن ممثلي الآلهة على كوكب الأرض من الأخوية البابلية وهي ..

الإله الرئيسي في لالش (آدي) وكان يُطلق عليه لقب شيخ آدي (علم آدي) ووضع ممثلوا الآلهة تابوت عهد الرب بين الأخوية البابلية وآدي الخالق ووضع هذا التابوب المصنوع من خشب الأرز في لالش ويُسمى تابوب آديا وهو موجود لحد اليوم أو ما يشببه في الحرم الايزيدي المقدس ..

آنو كان يُمثل سلطان آدي على كوكب الأرض وكان يعتبر آدانياً وكانت كل الطقوس المتعلقة به آدانية ويشاركه المهام إبنه أنليل ممثل آنو على الأرض ، وبيل هو ممثل طاوس الملائكة وكان يعتبر نفسه ممثل لـ طاوسي ملك وشريعته على الأرض ويشاركه الأمر أنكي كممثل لشريعة طاوسي ملك لإرادة بيل على الأرض ، ونينجيشيزيدا ممثلاً لإرادة سلطان ايزيد على كوكب الأرض (إسمه يعني إبن شريعة ايزيد) وهو صاحب الثعبان الأسود الذي وضعه في الحرم الايزيدي لالش في مقدمة بوابته كتذكار أبدي لحمايته لشريعة ايزيد على كوكب الأرض ..

تتحدث الشريعة الشمسانية في بابل في نظرية الخلق عن ثالوث مقدس يُدرس للأخوية البابلية فقط يتكون من ..

خالق الجميع .. آدي .. خالق الوجود

ونوره طاوسيملك .. خالق العالم الملائكي ..

وايزيد .. خالق عالم المادة

هذا الثالوث في الأساس يشكل إلهاً متحداً يحكم القوانين الكونية برمزية عميقة بدأت بخلق الشموس والأقمار والتي إتحدت لتخلق الدهور أولاً ، والمجرات ثانياً ، والأكوان ثالثاً ، وخلقت المجاميع الشمسية في كل جزئية بما يتناسب وموقعها ، أي إذا كانت المجرة آدانية تكون الشموس حمراء بطريقة تشبه حالة الغسق في عالمنا المادي الموضوعي ، وفي حالة كانت المجرة قاتانية أو أثيرية تكون الشموس فيها زرقاء أو سماوية اللون ، وفي حالة كانت المجرة مشتركة بين أثيرية ومادية تكون الشموس صفراء اللون أو ذهبية ، وهذا الأمر ينطبق على الأكوان والمجاميع الشمسية ..

هذه التقسيمات الطبقية إنتقلت مع الشريعة التي أطلق عليها السومريون والبابليون والآشوريون بالشريعة الشمسانية لأنها تعكس وجود كوكبنا في مجرة مشتركة بين أثيرية وشمسانية ، وهذه الشريعة إنتقلت من الأعلى الى الأسفل برمزيتين أبديتين أطلق على الرمزية الأولى بشريعة الشمس (شي شمس) والشريعة الثانية أطلق عليها إسم شريعة القمر (شي سن) وكانت الأخوية مقوسومة بين شمسانيون وسنّيون ..

وكانت هذه الشريعة سائدة ومقدسة ومن كان يتجاوز على قوانينها وأعرافها كان يتم نفيه من المملكة ، ووضعت أغلب قوانينها في الكثير من الزقورات والمعابد الايزيدية والشمسانية المنتشرة في عموم المملكة السومرية والتي كانت مؤلفة من خمسة ممالك متحدة تطلق على نفسها إسم المملكة المتحدة السومرية (كي ـ إن ـ جي) ونشر جوديا الكثير من التعاليم السومرية المتعلقة بواجبات الأخوية البابلية التي كانت تصنف كآلهة لأنها كانت خالدة ، وكذلك واجبات الرعية التي كانت تنقسم الى إله انساني ، وانسان إلهي ، وانسان عادي ، وبشر ..

وعلى قدر التزام الافراد بشريعتي الملك شيشمس والملك شيسن كانت الرعية تحصل على أسرار لإطالة أعمارها وبقدر المهام العظيمة التي كانت تقدمها للكوكب كانت تصل الى حالة الخلود كما حدث لزيوسودرا الخالد الذي أعطي لقب أوتو نبو شتيم وفيما بعد نوح وهو لقب يمكنه من التجول في العوالم الثلاثة (الآداني ، والأثيري القاتاني ، والعالم المادي) وهي مذكورة بتفصيل اعمق في ملحمة كَلكَامش وكذلك قصة الخليقة التي رتبوها للبشر في إينوما إليش ، وأعطيت شخصيات كثيرة أسرار الخلود منها خدر الياس (الخضر) والذي أعطي القاب (ماركوكيس) و (إله المُراد) ليتمكن من الانتقال بين العوالم الخالدة الثلاث ، كما أعطيت لابراهيم الخليل وشخصيات أخرى ..

وربما يطرق باب أذهاننا سؤال هنا وهو أين الانثى في عملية الخلق والنشوء البابلية وأين الثنائية ؟

تذكر التعاليم السومرية أن نقطة إنطلاق الوعي المقدس الذي تمثل في آدي وإرادته جاء من خلال نقطة أطلقت عليها عدة تسميات أغلبها كان يُمنع ذكرها في سومر لقداستها وهي ..

النون أو نونه ، أو الأزلية ، أو الرحم الكوني ، أو العذراء ، أو الأم العظيمة ، أو ايسف ، أو اين سوف ، أو أيا صوفيا ، أو اونزلا ، أو الدرّة ، أو جرّة الخلق ، أو فخر العذراوات أو الزهراء . للشعوب استخدامات مختلفة ورثتها من التعاليم السومرية ..

هذه التسميات جميعها ترمز الى الرمزية الانثوية في الخلق في اعلى درجاتها وكانت الأخوية البابلية تعتبرها من المقدسات ، وكانت ممثلة العذراء على كوكب الأرض هي نينماه العظيمة التي أعطيت لقب نينهارساج وهي التي كانت تحمل طاوة البخور أثناء المراسيم الدينية الشمسانية وكذلك كانت مسؤولة عن غسل وتعقيم الأبواب المقدسة بمياه مستخلصة من السماق الأحمر واكاسير نادرة من المعادن بالإضافة الى انها كانت تحمل أسرار الشفاء والبرات المقدس الذي يعيد الحياة الى كل شيء تضع يدها فيه ..

وكانت الى جانب عشتار وأريشكجال ونينسون ونينكيمي قوة انثوية صارمة في وضع قوانين الاسرة والزواج المقدس وهن من وضعن أسس أول شريعة لحقوق المرأة في سومر وبابل وآشور ، فقد كانت التعددية الزوجية مرفوضة وتعاقب عليه من يتزوج مرتين بالطرد من المملكة إما الى الجبال أو الى عيلام ومدن بنيت خصيصاً لمن كان يخالف رابطة الزواج المقدس وكذلك عقوبة للفتيات اللائي كان يتجاوزن على عذريتهن ..

وفي حالات كثيرة كانت تسلط الأمراض على من كان يخون الرباط المقدس للزواج (الخيانة الزوجية) ، لذلك كانت هي المسؤولة الأولى عن وضع قوانين الاسرة سواء في الأخوية البابلية التي كانت تضم مجمع الآلهة أو في الملكية الحاكمة أو مجمع الخالدين أو مجمع الانسان او مجمع البشر .. جميعها كانت خاضعة لقوانين تصفها التعاليم السومرية أنها كانت تأتي من الأعلى (من نينماه) . في المقابل كانت أريشكجال آلهة العالم السُفلي والتي كانت بالمرصاد لتلك الأرواح العبثية بموضوع الجينات ، سواء أكان ذكر أو أنثى ودورها مكمل لنينماه في العالم العلوي ، وهنا يجب أن نتوقف عند ما تعنيه العوالم الشمسانية والعوالم السُفلية في التعاليم السومرية والتي لم يتمكن أغلب علماء الآثار من فهمها أو ربما لم تترجم تعريفاتهم التي نقلوها من الألواح المأخوذة من بلاد الرافدين والتي تقدر بعشرات الآلاف ..

عندما جائت الأخوية الى كوكبنا أدركوا أن هذا الكوكب خاضع لقطبين هما المادة والأثير أو السالب والموجب أو الشدة والحزم ، لذلك إنقسمت واجبات الأخوية الإثنا عشر الى أربعة أقسام ، القسم الأول مسؤول عن طاقة النار على كوكبنا ، والقسم الثاني كان مسؤول عن طاقة الهواء ، والقسم الثالث كان مسؤول عن طاقة المياه ، والقسم الرابع مسؤول عن طاقة التراب . وبين هذه الأقسام الأربعة انقسمت العوالم الى نصفين عوالم شمسانية نورانية ، وعوالم سفلية أرضية مادية بحتة ، العوالم النورانية إلهية أو إنسانية أو بشرية وضعوا لها قوانين وأشرف عليها كل عظيم متخصص في هذه العلوم الكونية النوعية العالية ، والعوالم السفلية كانت بحوزة أربعة أشخاص تتقدمهم أريشكجال العالمة العظيمة التي كانت رائدة العلوم في هذا المجال ومعها نيرجال لكن الألواح لا تذكر الشخصيتن الأخريتين ، وضعت أريشكجال قواعد صارمة لإدارة القطب السالب في كوكبنا كان شعارها الحزم أو الصرامة لأنها كانت تعلم أن أي خلل في القطب السالب يعني فناء الحياة على هذا الكوكب وفشل مشروع بعث الحياة فيه وحتى تصل رحلة كوكب الأرض وروحه الكبرى هالته الكونية الى مرحلة النور المطلق عليها متابعة التكافؤ بين القطبين وتحقيق التعادل الأبدي الى أن يتم تأهيل الكائنات عليه لمرحلة النور وهي مرحلة ربما تستغرق ملايين السنين ، لكن حتى تحقيق هذا الهدف عليها جعل عجلة النظام الصارم تسير كما هو مخطط لها وفقاً للعلوم الكونية التي تلقتها ..

وإرتبط العالم السُفلي باللون الأسود والغبار الأسود والدخان الأسود وحتى الأعمال التي تصنف في خانة الأعمال السوداء وكانت أغلب المدن السومرية تخلو من هذا اللون تماماً وتبتعد عن وضعه على شعاراتها تجنباً لإستقطاب الجوانب السفلية في كل موضوع متعلق بالحياة والطبيعة على السواء ..

وتسمي المخطوطات البابلية العوالم السُفلية بأنها عالم البوّ ، واعتبر بعض مترجمي الالواح بانه اله سومري سفلي لكن الحقيقة انها تسمية تفتقد للدقة لانها عمليا تعني صفة من صفات العوالم السُفلية كانت الأمهات تخيف الأطفال بمجيء البوّ أو الظلام حتى يتمكنوا من إخضاعهم وجعلهم مطيعين ، بقدر ما كشفت النصوص المكتشفة عن أسماء والقاب السيدات في العالم السومري وفي الادب الديني الشمساني لكنها لم تنصف تلك الألقاب بشكل سليم ولا تدّعي هذه القائمة أنها شاملة . ومن المرجح أن تُضيف النصوص المستقبلية إليها ، كاشفةً عن وجود العديد من الآلهة في هذه الفترة المبكرة ، والتي نعرفها حالياً إلا من نصوص لاحقة أو من الأدب الديني الايزيدي الذي وصلنا من الحقبة السومرية ، وكانت الطوائف المحلية تميل دائماً إلى الازدياد مع ظهور مدن جديدة ، وبينما لم تكن الآلهة التي عُبدت بهذه الطريقة تحظى بأي أهمية تُذكر ، إلا أن أسماءها كانت تُعرف في أوساط أوسع وقد يذكر الحاكم ، رغبةً منه في تعزيز مكانته أسماء بعض الآلهة من الإناث ، مُكرمًا إياها في الوقت نفسه بلقب قد يُحدد أو لا يُحدد بدقة طبيعتها (سيدة العذراوات أو سيدة المجد) . طالما لم تكن مختلف مناطق بابل متحدة رسمياً تحت قيادة واحدة فقد ترتفع طوائف محلية مختلفة إلى أحجام مماثلة ، بينما تحتفظ الآلهة التي تُعبد بصفتها رعاة خاصين للمراكز الكبرى مثل لجش وأور وأوروك ونيبور وما شابهها في الشمال الاشوري ، بمكانتها البارزة ، على الرغم من الوضع السياسي للمدن المقدسة لها .

لن يكون التاريخ عالمياً حقاً إلا إذا بُني على أساس الاعتراف بأن النساء كنّ دائماً عنصراً أساسياً في صناعة التاريخ ، وأن الرجال والنساء هم معيار الأهمية ، ويتوفر قدر كبير من المواد التاريخية حول بلاد ما بين النهرين ، لكن جزءاً صغيرًا منها فقط مكتوب مباشرةً عن النساء والسبب من وجهة نظري تعود لمترجمي الألواح الذين كانوا يؤمنون بالمجتمع الذكوري ويحتقرون كل ما كان يمت بصلة للمرأة في العصر السومري . يمكن استخلاص معلومات عن العلاقات بين الجنسين من أي نوع من الأدلة تقريباً ، لكن في نهاية المطاف ، تُستقى أثمن المعلومات عن حياة النساء من النصوص المكتوبة مباشرةً عن النساء ، أو الأفضل من ذلك ، من النصوص التي كتبتها النساء بنفسهن وبسبب هذا النقص في المواد ، فإن العديد من مناهج البحث التي استُخدمت بنجاح للكشف عن تاريخ النساء في أماكن أخرى غير مجدية في بلاد ما بين النهرين القديمة ..

والغريب أن قسماً منها اعترف بأن الأعياد في الأدب الديني الشمساني كانت تقام بوجود النساء في المقدمة وكانت أغلب الأعياد الدينية في سومر وبابل وآشور تجري بمشاركة واسعة من النساء ، وهذا الأمر جسدته عشرات الآلاف من الألواح المترجمة التي تتحدث عن الدور المتقدم للمرأة في العصر السومري وحتى نهاية سلالات اور الثلاث بقيت مكانة المرأة مناصفة للرجل في اتخاذ القرارات كما رأينا حتى في ظل حكم الأخوية البابلية التي كانت تتخذ القرارات الحاسمة في القضايا المتعلقة بحياة الآلهة والانسان والبشر في ذلك العصر ..

وحتى ما يقرب من قرن مضى ، لم تكن بابل أكثر من اسمٍ مهيب انثوي تمثل بوابة الآلهة الى العوالم العليا ، وهيكلٌ عملاقٌ تبرز أضلاعه هنا وهناك من رمال سومر في هيئة أطلالٍ هائلة للأبراج والمعابد الشمسانية . يحمل اسم "بابل" في طياته رنيناً لتعويذة غامضة وعميقة ، أشبه بتلك التعاويذ التي قد تُتلى في أروقة المعابد السرية . إنه يبعث ألف صدىً في الخيال ، وينطوي على نغمٍ أغنى من نغم الموسوعات ، بابل إن السحر الرنّان لهذه الكلمة يشبه بيتاً من أبيات ملحمة عظيمة ، تقف خلفه نساء عظيمات مثل نينماه العظيمة وانانا العظيمة واريشكجال العظيمة !

واقترن اسم المدن اغلبها بالنبرة الانثوية للآلهة ، لهذا اعتبرت اغلب المخطوطات ان الإشارات الكثيرة للآلهة مستفزة لعلماء آثار لم يكونوا يؤمنون بحق المرأة في الوجود ، هذا كان قدر آلهة سومر وبابل حتى من قبل من ترجم الألواح ونقلها الى الأجيال في العصر الحديث ..

أما دور المرأة في الإمبراطورية الآشورية الحديثة . يُعدّ دور المرأة في المجتمع موضوعاً لم يُستكشف بشكل كافٍ في علم الآشوريات أو لم يُعطى لهُ الوزن الكافِ بسبب العقلية الذكورية لمترجمي الألواح وخاصة أنها تمت في أغلب الفترات التي سادت فيها العقلية الذكورية أوربا ، مما يجعل محور هذه الأطروحة ذا أهمية خاصة . من خلال استكشاف دور المرأة، ستُقدّم هذه الأطروحة منظورات جديدة حول كيفية تفاعل المرأة في المجتمع الآشوري الحديث . إن تقاليد المنهج الآشوري القائم على النص ببعض النظريات والمفاهيم من مجالات أخرى تُعنى بدراسة الثقافة والمجتمع . غالباً ما يعتبر المنهج القائم على النص النص نقطة البداية والنهاية للبحث العلمي . تُعدّ الترجمة جزءاً أساسياً من أي بحث آشوري ، ولكن يمكن إثراء نتائج تحليل النص من خلال فهم معناه في سياق السياق الثقافي الأوسع . يمكن أن تكون المناهج النظرية والأساليب المتنوعة الموجودة في مجالات أخرى من الدراسات الثقافية والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع مفيدة في علم الآشوريات أيضاً ..

يمكن أن تكون المناهج النظرية والأساليب المتنوعة الموجودة في مجالات أخرى من الدراسات الثقافية والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع مفيدة في علم الآشوريات أيضاً . منطلق جيد لأي نقاش حول النظرية هو حقيقة أن كل باحث

يستخدم نظرية ما في كتاباته . "النهج التقليدي" لا يعني غياب النظرية ، بل يعني الوضعية. أما "النهج النظري" فيعني في الغالب البحث العلمي ما بعد الحداثي . ولعل أفضل وصف لما بعد الحداثة هو روح العصر ، حيث برز الشك في خضم المعرفة ، مما أدى إلى ظهور نظريات عديدة ، بعضها متعارض. ومع ذلك ، تشترك جميعها في موقف واحد ، وهو أن جميع المعارف مبنية اجتماعياً . لذا، فإن النظرية ليست نهجاً يختاره الباحث بدلاً من البحث العلمي "الموضوعي" . فالأخير يعتمد أصلاً على المعتقدات والنماذج "البديهية" . يمكن استخدام النظريات والمفاهيم من الدراسات الثقافية المعاصرة بنجاح في علم الآشوريات أيضاً ، ينصب التركيز النظري لهذه الدراسة على العلاقات بين الفرد والمجتمع والسلطة ، والتي تتداخل في مفهوم الفاعلية. على حد علمي ، لم يُستخدم مفهوم الفاعلية من قبل في البحوث الآشورية ، على الرغم من دراسة دور المرأة في آشور . ضمنياً ، في معظم الكتابات ، يُنظر إلى الرجال على أنهم فاعلون وفاعلون ..

ان النظرة العامة القائمة على ان النساء كمجرد "موضوعات" (أو كائنات خاضعة) ، باستثناء نساء البلاط الملكي في الإمبراطورية ، هو كلام يجانب الحقيقة ، في هذا البحث سأتبنى منظوراً أوسع حول "القدرة على الفعل "لدى نساء الإمبراطورية ، يُعد مفهوم "القدرة على الفعل" أداة مفيدة في دراسة الثقافات ، فأي فرد يتصرف ضمن هياكل المجتمع ، لكنه نادراً ما يكون مجرد دمية مسيّرة (ماريونيت) سلبية . بل إن هذه الهياكل تتيح للأفراد مجموعة من الخيارات . فالخيارات المتاحة في المجتمعات الغربية المعاصرة لم تكن متاحة في آشور ، والعكس صحيح . ومن خلال توظيف مفهوم "القدرة على الفعل" ، سأدرس الخيارات التي كانت متاحة للنساء الآشوريات ..

هذه القدرة لا تقتصر على الاستقلالية بالمعنى الغربي للكلمة ، بل يمكن رصدها حتى في السلوكيات التي تبدو خاضعة أو ممتثلة . وتتجلى هذه القدرة في جميع مجالات المجتمع ، وليس فقط في المجال العام . وترتبط هذه القدرة ارتباطاً وثيقاً بكيفية ممارسة النساء لأدوارهن في المجتمع ، فهن يتشكلن بفعل المجتمع ، ولكنهن أيضاً يُعدن تشكيله وتغييره ، ومع ذلك ، فإن طبيعة الأدلة المتاحة دفعتني لإعادة النظر في مفهوم "القدرة على الفعل" . أن الاستقلالية والاكتفاء الذاتي ليسا عنصرين جوهريين في هذا المفهوم ، وأن الأفعال التي تبدو خاضعة قد تكون شكلاً من أشكال ممارسة هذه القدرة ، إلا أن المادة التاريخية المتاحة شكلت تحدياً كبيراً لي ، فقائمة بأسماء النساء أو وثيقة بيع لأمة

(جارية) لا تفصح إلا عن القليل جداً حول "القدرة على الفعل" لدى هؤلاء النساء ، ومع أن أكثر الأفعال خضوعاً قد يمثل شكلاً من أشكال هذه القدرة ، إلا أن معظم النساء في النصوص الآشورية الحديثة لا يظهرن وهن يقمن بأي فعل يذكر . لذا، كان لزاماً عليّ تحديد أولئك النساء الآشوريات اللواتي قمن بأفعال ملموسة ، أو اللواتي كنّ على الأرجح فاعلات في إطار صفاتهن الرسمية ، وقد صنّفتُ المجموعة الأولى تحت مسمى "الفاعلات بشكل صريح في العصر الاشوري والمجموعة الثانية تحت مسمى "الفاعلات بشكل ضمني في ذلك العصر ..

لقد بدأتُ بدراسة نساء الإمبراطورية اللواتي نعرفهن بأسمائهن ، والبالغ عددهن 712 امرأة . ومن بينهن اخترتُ 148 امرأة ممن يمثلن فاعلية صريحة أو ضمنية لإجراء دراسة أكثر تفصيلاً عة المرأة في العهد الآشوري . نظراً لأن الهدف من أطروحتي كان تناول جميع النساء في العصر الآشوري الحديث ، فقد تمثلت الخطوة التالية في العثور على النساء ذوات الصلة بموضوع الدراسة ، وهنّ اللواتي لم تَرِد أسماؤهن صراحةً في النصوص . ولهذا الغرض ، اطلعتُ على قائمة المصطلحات الواردة في كتاب (مينزل ، 1981) وقوائم المصطلحات في عدة مجلدات من سلسلة "أرشيف الدولة الآشورية" ..

لقد شرعتُ في مقارنة هذه القائمة بـ "مدوّنة النصوص الآشورية الحديثة وبهذه الطريقة ، حصلتُ على قائمة بجميع النصوص التي ذُكر فيها أيٌّ من هذه الألقاب . وتُشكّل هذه النصوص المادة الأساسية في البحث . ومن خلال هذا النهج ، آمل أن أكون قد شملتُ كل امرأة آشورية حديثة يمكن الحديث عن دورها الفاعل أو "قدرتها على الفعل " وبطبيعة الحال، ومن منظور هذا الدور الفاعل ، كانت معظم النساء الآشوريات "غير مرئيات" إذ إن قائمة بأسماء النساء ، على سبيل المثال ، لا تُفصح عملياً عن أي شيء يتعلق بأدوارهن الفاعلة المحتملة . ومع ذلك كانت هناك نساء كثيرات ظهرن في الوثائق كفاعلات ، ويمكن تصنيفهن إما كفاعلات بشكل صريح أو ضمني ..

وللتعرف على مجالات عمل المرأة الفاعل في العصر الآشوري الحديث ، قمتُ بتوزيع النساء الآشوريات على مجالات نشاط مختلفة ، حيث أمكن وضع معظمهن إما في نطاق القصر أو نطاق المعبد ، أتناول الملكات وغيرهن من النساء المرتبطات بالملك وسأعرضُ النساء اللواتي يبدو أنهن مارسن أدواراً خارج نطاق تأثير المعبد أو القصر على الأقل ، فإن النصوص التي وردت فيها أسماؤهن لا تقدم أي إشارات حول دورهن في هاتين المؤسستين .

ان البحث في وضع المرأة في الإمبراطورية الآشورية الحديثة امر مثير بالفعل . ففي المرحلة الأولى من عمر الإمبراطورية (934-745 ق.م) ، أعاد الآشوريون بسط سيطرتهم على أراضٍ في أعالي بلاد الرافدين كانت خاضعة لهم خلال العصر الآشوري الوسيط . أما في المرحلة الثانية (745 - حوالي 610 ق.م) ، فقد شهدت الإمبراطورية الآشورية

توسعاً هائلاً، لتصل حدودها بحلول عام 705 ق.م إلى رقعة جغرافية تمتد من الخليج العربي وحتى منطقة "كوماجيني "في تركيا وقد استمر هذا النطاق الجغرافي قائماً حتى انهيار النظام الآشوري في العقد الثاني من القرن السابع قبل الميلاد (حوالي 610 ق.م) بل إن مصر نفسها خضعت للسيطرة الآشورية لفترة من الزمن ، امتدت تقريباً من عام 671 إلى 656 ق.م ..

لقد كان التنوع العرقي سمةً بارزة للإمبراطورية الآشورية الحديثة ، إذ كان الآشوريون يغزون المناطق ويضمونها إلى أراضيهم ، ولم يقتصر الأمر على تهجير السكان من المناطق المفتوحة إلى قلب آشور ، بل شمل أيضاً توطين آشوريين في تلك المناطق المفتوحة . وقد عمل في خدمة الملك أشخاصٌ قدموا من شتى أنحاء الإمبراطورية (وهو ما تشير إليه بوضوح أسماؤهم) ، حتى أن بعض الملكات كنّ يحملن أسماءً ذات أصول شمسانية جنوبية ..

ربما تكمن المشكلة الأهم المتعلقة بمادة هذه الأطروحة في الطبيعة العشوائية للمصادر التي وصلتنا ، فقد جُمعت مادة البحث من أنواع متعددة ومختلفة من الوثائق والشيء المزعج فيها العقل الذكوري السائد في مرحلة ترجمة المخطوطات الاشورية . وتمثل كل وثيقة أو مجموعة أرشيفية منها مجرد جزء يسير من ذلك الكيان الغني والمعقد الذي شكلته الإمبراطورية الآشورية الحديثة . إن الأدلة التي بقيت لنا لم تُنتقَ بعناية لتقدم صورة متكاملة وواضحة عن الإمبراطورية ، بل على العكس من ذلك تماماً . ونظراً لأن طبيعة المصادر تؤثر في نتائج هذا البحث فإنني أقدم هنا عرضاً موجزاً لأهم الاحداث المتعلقة بتاريخ المرأة في العصر الآشوري ..

الفصل الثالث

بوابة الآلهة

إن روح بابل ليست شيئاً ليناً وجذاباً يفيض بحديث عن عجائب الشرق أو يزخر بسحره الأخاذ ، بل هي روح صارمة وقوية لحضارة شمسانية ألهمت العالم بالكثير من القيم العلمية التي ساهمت في تقدمنا اليوم ، مشبعة بحس القدر وتتسم بطابع ملحمي في إدراكها العميق للمصير المحتوم . لا نجد في التاريخ البابلي سوى شخصيتين بارزتين ومحوريتين ، الجندي والكاهن الشمساني او أور ـ كالو " الكوجك " . نحن بصدد شعب يتسم بالصرامة والجدية ، شعب من المتعبدين المخلصين والفاتحين الأشداء ويمكن وصفهم بأنهم "اسود الشرق" لكنه لم يكن شعباً يفتقر إلى الخيال فقد انحدر البابليون والآشوريون من تلك السلالة التي وهبت العالم أعظم أديانه الشمسانية والتي اخذت منها اديان العصر الحديث اغلب البانتيون الذي سجلته الواحها . كما لم يكن شعباً بمعزل عن إدراك الغموض أو العلوم ، فبابل كانت مهد التنجيم والسحر الأبيض ، ووضعت اللبنات الأولى لدراسة النجوم والفلك حتى وصلت الى وضع خريطة متكاملة لكوزمولوجيا الوجود ، وأخيراً كانت رائدة في مجال التجارة ، إذ أُسست أولى العمليات المالية الحقيقية وأولى بيوت الصرافة في ظلال معابدها وقصورها ولا تستغرب عزيزي القارئ لو شاهدت مستقبلاً الواح بابلية تصور لك أن تمثال الحرية هو تمثال للعظيمة نينماه كان موضوع على أعلى زقورة في المدينة .

تتمثل حدود الأرض التي طوّرت فيها شعوب بابل وآشور واحدةً من أبرز الحضارات وأكثرها أصالةً في تاريخ العالم ، في نهري غرب آسيا العظيمين دجلة والفرات ، حيث تطابقت آشور مع الجزء الشمالي الجبلي لأراضي المركَة المقدسة ، بينما ارتبطت بابل بالجزء الجنوبي الذي يغلب عليه الانبساط وتنتشر فيه المستنقعات والتي بنيت فيه الجنة الآدانية التي عاش فيها الأطهار والأنقياء والمستقيمين من أبناء وبنات الشمس . وقد سكنت هاتين المنطقتين شعوبٌ تنتمي إلى العرق الشمساني ذاته ، وإن كان الآشوريون قد اكتسبوا سمات السكان القاطنين في أراضٍ جبلية ، كما تداخلوا إلى حد ما مع عناصر حثية وأمورية شكلوا عشائراً في هذه الممالك . ومع ذلك ، يستحيل تحديد الحقبة الزمنية التي دخلوا فيها تلك البلاد ، إذ نجد في أقدم النقوش المكتشفة هؤلاء المهاجرين في حالة صراع مع السكان

الأصليين للبلاد أي الأكاديين الذين امتزجوا بهم لاحقاً ، ودمجوا معتقداتهم وتصوراتهم السحرية والغيبية على وجه الخصوص ضمن ثقافتهم الخاصة فقد كانت هذه المملكة الملاذ الآمن لأغلب الفقراء والطامحين الى العلم في العالم القديم .

الأكاديون الذين جاء الشمسانيون البابليون ليحلوا محلهم كانوا في الجنوب ، لكنهم اختلطوا بهم في نهاية المطاف ؟ لقد ثار جدل كبير وحاد حول الأصول العرقية للشعبين ، لكن ربما لم ينتبه مترجمي الألواح الى طبيعة التقسيمات الطبقية التي اتسمت بها المملكة المتحدة السومرية والتي وضعت الآدانيون في الجنوب والشمسانيون في الوسط وبابل والقاتانيون أو الاثيريون في آشور والحقيقة ان الشعوب الثلاثة هم شعب واحد لكن التقسيم الطبقي الديني هو من وضعهم في هذا المجال الذي أزعج العلماء في إكتشافه ببساطة لأنهم لم يفهموا طبيعة الدين الآداني الشمساني في سومر ، إذ ذهب البعض إلى أنهم ينتمون أصلاً إلى العرق الشمساني وحده ، بينما رأى آخرون أنهم ينتمون إلى عرق أقرب شبهاً الى الآلهة في تكوينهم . وفي كتاب كهذا يهدف إلى استعراض الميثولوجيا البابلية ليس من الضروري تتبع أنصار أي من النظريتين في متاهات الجدل المعقدة التي قادهم إليها هذا الصراع فنحن سكان العراق نستطيع تحديد أشكال وأنماط الحياة التي مرت من هنا . أن الأكاديين الذين عادة ما تُصوّرهم آثارهم كشعب حليق الذقن وذوي عيون مائلة ، كانوا على صلة بتلك الأسرة الإلهية الكبرى (آلهة سومر) التي امتدت فروعها لتصل إلى المناطق القطبية المتجمدة ، وتُظهر اللغة الأكادية من حيث خصائصها اللغوية وبنيتها النحوية على وجه الخصوص تشابهاً مع لغة وجدت في الالواح لها خصائص رباعية نارية وهوائية وترابية ومائية ، وقسموا حتى نظام الأعداد بهذه الطريقة المثيرة للإهتمام ..

لقد استمد الشمسانيون البابليون بذور ثقافتهم من الآدانيون في سومر ، بل يمكن القول إن هذا الشعب الأصيل قد قطع بهم شوطاً كبيراً في طريق الحضارة لم تصله بشريتنا المعاصرة بعد . ولم يقتصر دورهم على تعليم الوافدين فنون القراءة والكتابة فحسب بل علوماً نوعية وشمسانية انتشرت في كل ربوع الأرض ، وأثروا بعمق من معتقداتهم الدينية وغرسوا فيهم فكرة قدسية عقيدتهم الشمسانية لدرجة أن الكهنة البابليين اللاحقين حافظوا على اللغة الأكادية القديمة كلغة مقدسة ، تماماً كما حافظ الكهنة الرومان على استخدام اللغة اللاتينية التي توقفت عن كونها لغة حية والواقع أن النطق الصحيح للأكادية كان شرطاً لا غنى عنه لأداء الطقوس الدينية الشمسانية بنجاح ، ومن المثير للدهشة أن نرى الكهنة البابليين يؤلفون نصوصاً دينية بلغة أكادية عميقة ودقيقة بالمعاني الواسعة التي تجعل من يقرأ تلك النصوص يشعر برهبة عميقة في أعماقِهِ ،

عندما نلقي نظرة أولى على الحضارة البابلية ، نجدها متمحورة حول نواتين أساسيتين: "نيبور" في الشمال و"إريدو" في الجنوب . نشأت المدينة الأولى حول معبد للإله "إنليل"، الذي كان يسيطر على الأرواح (التي تؤمن بمبدأ الترقي في النور) ، وهي أرواح كانت بأمر منه قد تتخذ موقف الصديق أو العدو من البشر . وفي المقابل، ساد في "إريدو" إلهٌ أكثر "تسامحاً " إذ كانت المدينة موطناً للإله "إيا" (أو "أنكي") ، إله الضوء والحكمة ، الذي وظّف معرفته بفنون الشفاء لخدمة عُبّاده . فمن مياه الخليج حيث كان يخرج كل صباح جلب معه المعرفة بمختلف الحرف والمهن والفنون والصناعات لخدمة مدينته الناشئة ، بما في ذلك ذلك الفن الغامض والصعب المتمثل في نقش الرموز الكتابية على الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة . إنها صورة بديعة تلك التي تقدمها لنا الأسطورة القديمة عن هذه الحكمة المنبثقة من البحر من دلمون المقدسة (قطر والبحرين اليوم) ، والتي كانت تضفي نوراً يومياً على حياة تلك المدينة البيضاء الصغيرة القابعة قرب المياه . لقد كان لدى الشعوب الشمسانية حبٌ عميق يكاد يكون فطرياً للحكمة ، وحتى يومنا هذا ، قلّما نجد شعوباً تولي حبَّ المعرفة والتبحّر العلمي والحكمة الدينية اهتماماً وتقديراً لذاتها ، كما يفعل الايزيديون وارثوا الحضارة السومرية الشمسانية . لقد التقت هاتان الثقافتان المتباينتان ثقافة الشمال وثقافة الجنوب وانصهرتا معاً في فترة تسبق العصور التاريخية المدوّنة ، حيث كانتا تتجهان نحو مركز مشترك في الشمال السومري حيث الحرم الايزيدي في لالش ، بل إننا نجد مدينة "أور" التي انحدر منها النبي إبراهيم تقع على مقربة شديدة من "إريدو"، ومع ذلك فقد استوطنها أهالي "نيبور" فقد كانت الغلبة لثقافة "إريدو"، وكان أعظم نتاج لها هو المركز النهائي للحضارة التي قامت على ضفاف الفرات مدينة بابل ذاتها . ومما لا شك فيه أن المؤسسين الأوائل للمدينة كانوا من أصل سومري شمساني ، علماً بأن مصطلح "سومري" هو المصطلح الشائع بين العلماء المحدثين بدلاً من المصطلح الأقدم "أكادي"، ولذا فهما يُستخدمان بالتبادل .

لقد تقبّل الشمسانيون بسهولة الحضارة السومرية التي وجدوها مزدهرة في وادي الفرات والتي كانت قريبة الى طبيعتهم الشخصية فقد كانت اغلب المراسلات الحكومية تبدأ بمخاطبة الشعب بالعبارة التالية (يا أبناء وبنات الشمس) ، وقاموا بتكييف نظام الكتابة السومري ليتلاءم مع لغتهم الخاصة حتى في المراسلات الحكومية والدينية ، وهي عملية سيتم توضيح طريقتها لاحقاً . غير أن السومريين كانوا يمتلكون الاكدية كلغة كهنوتية في الفترة الأخيرة إذ نجد أن العديد من أقدم النصوص السومرية التي عُثر عليها قد تأثرت بشدة بالسمات اللغوية التي نقلوها الى بابل . إن أقدم الآثار تعود إلى مدينة "لجش" (المعروفة اليوم باسم "تل لو") ، الواقعة على بعد ثلاثين ميلاً تقريباً شمال "أور"، وهي توثق تعاملات كبير الكهنة في تلك المدينة مع غيره من وجهاء المناطق المجاورة باللغة الأكدية . وقد تحول كهنة "لجش" إلى ملوك شمسانيين فيما بعد ، وامتدت ثقافتهم الى الشام وحتى مصر ..

أول إمبراطورية شمسانية عظيمة في بابل كانت تلك التي أسسها سرجون الأكدي الشهير . وكما هو الحال مع العديد من الأبطال والملوك المشهورين الذين خُلدت مآثرهم في الأغاني والقصص على سبيل المثال ، بيرسيوس (بير عيسى) ، وإديبوس ، فقد مرت السنوات الأولى من حكم سرجون في طريق المجد حتى وصلت الى عالم اليوم . في الواقع ، يُعد سرجون أحد "الأبطال المتفوقين ". تقول الأسطورة إنه وُلد في الخفاء وأُرسل تائهاً ، في سفينة نوح .

من نبات البردي (أو السمار) على مياه نهر الفرات ، حيث أُنقذ وتولى تربيته مزارعٌ يُدعى "أكي". غير أن لحظة الكشف عن هويته الحقيقية قد حانت أخيراً ، فتوج ملكاً على بابل . وقد حقق فتوحات خارجية واسعة النطاق إذ غزا سوريا وفلسطين في أربع حملات متتالية ، ونجح في دمجهما مع بابل لتشكيل إمبراطورية موحدة . ومضى بانتصاراته حتى تخوم البحر الأبيض المتوسط ، حيث أقام صروح شمسانية لا تزال خالدة على شواطئه كدليلٍ ملموسٍ على وصوله للمكان مثل بيت شمس في فلسطين وبيت الشمس في جبل مورية وبيت الشمس في لبنان وجبل الفار . كما أخضع بلاد عيلام وشمال بلاد الرافدين لشريعته ، وقمع تمرداً كبيراً اندلع داخل أراضيه . أما ابنه "نارام–سين"، فقد اتخذ لنفسه لقب "ملك الجهات الأربع" ، ووسّع رقعة الإمبراطورية التي ورثها عن أبيه ..

يُعرف سرجون أيضًا بأنه أول مؤسس لمكتبة بابلية . ويبدو أن هذه المكتبة احتوت على أعمال ذات طبيعة مثيرة للدهشة لأنها ببساطة لم تكن طينية أو مكتوبة على أحجار كريمة ونفيسة بل ورقية تحوي آلاف المجلدات ، بالنظر إلى الفترة التي أُنشئت فيها والتي عرف فيها البابليون استخراج الالياف من الأشجار وتحويلها الى ورق . ظهر أحد هذه الأعمال الذي كان بعنوان "ملاحظات بيل" ، ويتألف من اثنين وسبعين كتاباً على الأقل تتناول مسائل فلكية بالغة التعقيد ، فقد سجل ووصف ظهور المذنبات ، واقترانات الشمس والقمر ، وأطوار كوكب الزهرة ، بالإضافة إلى تسجيل العديد من الخسوفات . وقد تُرجم هذا الكتاب الرائع إلى اليونانية بعد ذلك بزمن طويل على يد المؤرخ البابلي بيروسوس ، وهو يُظهر عراقة علم الفلك البابلي حتى في تلك الحقبة المبكرة جداً . كما احتوت مكتبة سرجون على عمل شهير آخر تناول موضوع الطالع ، وكيفية التنبؤ به ، وتفسيره وهو جانب مهم للغاية من الممارسات الفلكية والدينية البابلية .

ومن بين المنجزات وصوله الى قبرص ونقل الكثير من الحرفيين والنقاشين والأيدي الماهرة لإستخراج حجارة البريليوم من الجزيرة ونقلها الى بابل ، كما سمح بنقل مئات العوائل اليها شرط التزامهم بالتعاليم الشمسانية للمملكة والتي امتدت للكثير من العادات والتقاليد عند الشعب القبرصي حتى يومنا هذا ..

لم تكن حضارة بابل طينية كما إدعى ضيقوا الأفق من مترجمي الألواح بل هي حضارة امتدت لسبعة آلاف عام ومرت بالمراحل الخمسة للمسيرة البشرية من مشاعة الى رق الى عبودية الى برجوازية الى رأسمالية متقدمة الى مجتمع خدمات ونهاية بالعصر الشيوعي الذي أسس البيوت والمخازن الغذائية للشعب والبطاقة التموينية البابلية ..

لقد عثر على الكثير من المراسلات في الاقبية السرية القبرصية المنقوشة على احجار كريمة كتبت لتخليد الذكرى تصف حاكم قبرص بأنه الخادم الشمساني لنرام سين ، كما أن ترجمات بيريسوس وضعت العلماء في حرج من ناحية التقدم العلمي الكبير الذي وصلته الحضارة في بابل والتي تتحدث عن علوم لم نصل اليها بعد ،

لكن الإمبراطورية التي أسسها سرجون كانت محكومة بالانهيار بحكم عاملي الزمن والقدر . تم تحويل مركز السلطة جنوبًا إلى أور . في عهد دونجي ، أحد الملوك الذين كانوا جزءاً من هذه المملكة الجنوبية ، برز تابع عظيم للعرش جوديا ، كواحد من أبرز الشخصيات في العصور البابلية القديمة . كان جوديا هذا (حوالي 2700 قبل الميلاد) كبير الكهنة الشمسانيين في لكش ، وهي مدينة تقع على بعد حوالي ثلاثين ميلاً شمال أور والترجمة لتسمسة المدينة غير دقيقة كما يعترف كل من تناول الالواح المتعلقة به فالبعض ترجمها على انها لالش الجنوبية والبعض لغاش والبعض لكاش ، واشتهر برعايته للفنون المعمارية وما يتصل بها من هندسة كونية تخص طاقة الأحجار وطرق البناء من خلالها . زودته الجزيرة العربية بالنحاس للزخرفة ، وجبال عمام بخشب الأرز ، ومحاجر لبنان وقبرص بالحجارة ، بينما زودته الصحاري المجاورة لفلسطين بأنواع مختلفة من الأحجار لاستخدامها في أعمال الزخرفة والمقصود هنا بالأحجار الكريمة كالعقيق والألماس والياقوت ، والمناطق الواقعة على شواطئ الخليج العربي بالأخشاب لأغراض البناء العادية تشهد على براعته المعمارية تلك القصور التي نقشت بشكل مذهل على الألواح ..

لا يهدف هذا العرض الموجز إلى تتبع أحداث تاريخ بابل وآشور بدقة متناهية . إنما يهدف إلى تصوير ووصف ظروف وأفعال وأزمنة أبرز شخصياتها ، وحكامها الأكثر تميزاً وتجسيداً وإبداعاً ، نأمل أن نتمكن من تقديم صورة أكثر دقة وصدقاً للقارئ عن الحضارة التي سنستعرض أسرارها التي وصفتها العقول الضيقة بالخرافات والاساطير ، بدلًا من إهدار المساحة والوقت في وصف عهود ملوك لم يُسجل خلال فترة حكمهم أي حدث ذي أهمية ، وكما فعلت سلالة أور التي سبقتها ، استقبلت بابل الكثير من الوافدين من عيلام من الذين انتهت محكوميتهم بالإبعاد من الأرض الشمسانية ورغم استيعابهم ودمجهم من جديد بالمجتمع الشمساني الا ان عادات العربدة بقيت ملازمة لهم من أجل تخريب النظام الى أن جاء حمورابي العظيم . الذي ربما يكون الاسم الأكثر شهرة وشعبية في تاريخ بابل وهو من تخلص من نير وعربدة القادمين عيلام . لم يكتفِ هذا الملك اللامع الحكيم السياسي بطرد العيلاميين

المكروهين ، بل واصل طروحاته السياسية والاجتماعية بنجاح باهر ، حتى أنه في السنة الثانية والثلاثين من حكمه (2338 ق.م.) ..

وحّد بابل في مملكة واحدة عاصمتها بابل نفسها . وتحت رعاية حمورابي ، ازدهرت الفنون والآداب البابلية وازدهرت بثراء مذهل يصعب تصوره بعد مرور كل هذا الوقت وضع 48 ألف مادة قانونية تنظم المجتمع وكان شرطه لإستلام الحكم هو الصلاحيات المطلقة التي تتجاوز حتى صلاحيات الكهنة الشمسانيين . ومن المثير للدهشة أيضاً كيف نجح تماماً في دمج مختلف عناصر الإمبراطورية التي أسسها لنفسه في كيان متجانس . لقد وحد فتوحاته ببراعة لدرجة أن السلطة البابلية كما تركها ظلت موحدة لما يقرب من خمسة عشر قرناً . وكان رفاهية رعاياه من جميع الأجناس شغله الشاغل . ولم يخشَ أحدٌ ممن اقتنع بعدالة قضيته الاقتراب منه . القانون الذي صاغه والذي لا يزال يُعتبر أعظم إنجازاته وتشكل القوانين السائدة في العصر الحديث بأكملها إمتداد فعلي لتلك الشريعة التي وضعها ..

إن إشادة الأجيال اللاحقة هي نصب تذكاري للحكمة والعدل . إذا كان سرجون يُعتبر قمر التاريخ البابلي ، فإن حمورابي هو شمسها بلا شك وأعطي لقب (شمس آدي) أثناء فترة حكمه . تُظهر ظروف حياة الملكين صورة متشابهة إلى حد كبير . فقد اضطر كلاهما في سنواتهما الأولى إلى تحرير بلادهما من أي تأثيرات خارجية على شريعتهم ، وكلاهما وضع قانوناً ، وكانا راعيين للأدب والفن ، ومجتهدين في تلبية احتياجات رعاياهما . إذا كان شعب عظيم قد طور في كثير من الأحيان قانوناً ذا قيمة عظيمة ، فهناك حالات موثقة حيث ساهمت مثل هذه المؤسسة في جعل شعب ما عظيماً ، وربما لا يكون من الظلم للشمسانيين الحقيقيين في بابل أن نقول عنهم إن قانون حمورابي هو الذي صنعهم . عُثر على نسخة من هذا القانون الشهير عالمياً في سوسة على يد ج. دي مورغان ، وهي الآن في متحف اللوفر . ما أطلق عليه المؤرخون البابليون اسم "سلالة بابل الأولى" سقطت بدورها ، إلاّ أن سلالة سومرية مؤلفة من أحد عشر ملكًا حلت محلها ، استمر حكمهم لمدة 368 عاماً ، وهو ادعاء غير قابل للتشكيك على إعتبار أن المملكة السومرية كانت تعين الانسان كحاكم وهو من الأعمار الطويلة ويمتلك وعياً وأفقاً أوسع لإدارة المجتمعات (فتركيبتهم كانت تختلف عن البشر فثلثين منهم إله وثلث مادي أرضي) وهذا الشيء لم يفهمه علماء الآثار إلاّ بعد الترجمات التي وضحت ذلك عام 1969 ..

بعدها إنتقل التاج والصولجان ومباركة الحكم الى آشور ، فقد كانت الإتفاقات بين الأخوية ان تذهب السلطة كل دورة فلكية هم من يحددوا تاريخها الى أحد القائمين على الممالك ، وكانت عملية انتقال السلطة تحتاج سنوات طويلة ولا تجري بسرعة للحفاظ على النمط والتعاليم الشمسانيين للمملكة ..

تولى تغلت . فلاصر الحكم في آشور مستمداً من القوانين البابلية الشيء الكثير لكنه وظفها بطريقة تخدم العقلية الآشورية الجبلية الصارمة والقوية والتي لم تكن تشبه بابل المتساهلة ، فقد كانت إحدى شرائع حمورابي تدعو للمحبة بلا حدود ومن يصفعك على اليمين أدر لهُ الخد الأيسر وتحلى بالتسامح ، لم يعترف تغلت فلاصر بهذه العقلية في التعامل سواء مع شعبه أو مع الأعداء ، وبدأ مسيرته بتقسيم المملكة الى إحداثيات من أجل نشر القوة والنفوذ والقانون ، كانت سلالات أور قد استخدمت اللغة الآرامية الفصحى في أغلب الممالك كلغة قانون ومؤسسات بعد سحب اللغة الأكدية تدريجياً من التداول لإعتبارها لغة مقدسة لا يجب أن يدنسها لسان المعربد ..

تشير المخطوطات الآشورية الى أن تغلت فلاصر بدأ حكمه في سنة 1120 قبل الميلاد وبدأ مسيرته بنهضة شاملة في البُنية التحتية وزراعة الأشجار التي تناسب طقس كل منطقة من المناطق التي سيطر عليها ووصلت عدد الأشجار المزروعة في عهده الى عشرة ملايين شجرة ومنها أشجار خالدة تم التعتيم على فوائدها أثناء ترجمة المخطوطات لأنها تساهم في تدمير مؤسسات الأدوية الحديثة ، وقام بإعادة الحياة الى المدن الجبلية الآشورية مثل كابادوكيا ووان وغيرها ،. وأعاد بريق ملاطية وغيرها ، ووصلت شهرته الى أبعاد واسعة في العالم القديم فقد كان شخصاً مثقفاً ثقافة واسعة ويمتلك عقلية القائد الصارم الذي يدرك من أين تأتي المخاطر ..

ونفس الشيء ينطبق على سيدة المجد التي عاشت في تلك الحقبة وهي الملكة سميراميس ، المعروفة في المخطوطات ، في عهد هذا الملك . ولولا ارتباط سحر اسمها بالرومانسية في المخيلة الشرقية ، لكان الأمر رائعاً حقاً . سميراميس! يتلألأ اسمها ويشع بجواهر الأساطير والأغاني . تحيط به الأساطير والسحر والموسيقى ، وتلتف حوله كما تحيط بحار الجنيات بجزيرة فردوسية . إنه وردة مركزية في إكليل الأساطير ، وقد خُلّد في موسيقى ربما تكون الأكثر إلهية وعذوبة التي ابتكرتها الروح الاشورية المُغنية على الإطلاق ومع ذلك ، فهي ليست أجمل منها . دعونا نُدخل في سلسلة التاريخ الآشوري الحديدية الحلقة الذهبية لأسطورة الشرق هذه ، وبعد أن نسمع روايات عظمتها ، فلنحاول إزالة الحجب التي تُخفي شخصيتها الحقيقية وننظر إليها كما كانت سمورام البابلية ، ملكة ومفضلة شمشي رامون ، التي سحقت جيوش ميديا وكلدان المُجتمعة ، والتي نُقشت أمجادها على عمود يروي قصة فتوحاتها ، ويصفها بكل بساطة بأنها "امرأة من قصر شمشي رامون ، ملك العالم". تقول الأسطورة أن نينوس ، ملك آشور ، بعد أن غزا البابليين ، توجه نحو أرمينيا بهدف إخضاع شعبها . لكن ملكها السياسي ، بارسانس ، لم يستطع مواجهته بالقوة العسكرية ، فاستسلم طواعية ، مصحوباً بهدايا من الفخامة بحيث أرضت نينوس . لكن ، لشدة رغبته في الغزو وجّه أنظاره نحو ميديا ، التي سرعان ما أخضعها . وكان طموحه التالي هو إخضاع المنطقة الواقعة بين نهري تانايس والنيل لحكمه . استغرقت هذه المهمة العظيمة منه سبعة عشر عاماً على الأقل ، وبحلول ذلك الوقت كانت آسيا

بأكملها قد خضعت له ، باستثناء باكتريا التي ظلت محافظة على استقلالها . وبعد أن وضع أسس مدينة نينوى ، عزم على الزحف ضد البكتريين . كان جيشه ضخماً حقاً ، إذ قيل إنه كان برفقته 7 ملايين جندي مشاة ، و2 مليون فارس ، بالإضافة إلى 200 الف عربة مجهزة بالمناجل ، ويقول ديودور الصقلي إنه خلال هذه الحملة ، رأى نينوس سميراميس لأول مرة . أما أصلها الأسطوري الدقيق فهو غير مذكور في هذه الالواح . ويزعم بعض الكتّاب أنها كانت ابنة إلهة السمك إله الحكمة البابلي اتارياتيس ، الذي سبق ذكره . كانت أتارياتيس إلهة عسقلان في سوريا في نفس الوقت ، وبعد ولادتها ، أُطعمت ابنتها سميراميس بمعجزة من قِبل الحمام حتى عثر عليها سيماس ، الراعي الملكي ، الذي رباها وزوجها من أونيس ، أو مينون ، أحد قادة جيش نينوس .

شاهد نينوس سمير أميس للمرة الأولى عندما كان يتمشى على سطح قصره وهي على سطح منزلها وأعجب بها وعندما علم أنها زوجة احد قادة جيشه قرر ارساله في مهمة انتحارية على رأس فصيل عسكري وحصل له ما يريد ليتفرغ بسمسرة أميس ويطلب منها الزواج ، أُعجب بها بشدة منذ تصرفها أثناء فتح باكتريا ، حيث برزت بشكل لافت . بعد ذلك بوقت قصير، توفي نينوس بمرض واغلب الكهنة الشمسانيون قالوا له في حينها انها خطيئة زوج سمسرة اميس التي لاحقته ، تاركاً وراءه ابناً يُدعى نينياس من سميرة اميس . خلال فترة قصر ابنها ، تولت سميرة اميس الوصاية ، وكان أول عمل عظيم قامت به هو دفن زوجها ، الذي دفنته بفخامة بالغة ، وأقامت فوقه تلاً من التراب ، وبعد ذلك بنت بابل . بعد الانتهاء من بناء هذه المدينة ، قامت بحملة إلى ميديا ، وأينما ذهبت تركت آثارًا تدل على قوتها وكرمها . أقامت هياكل ضخمة ، وشكلت بحيرات وصممت حدائق واسعة ، لا سيما في تشاونيا وإكباتانا . باختصار ، سوّت التلال ، وأقامت تلالًا شاهقة الارتفاع ، احتفظت باسمها لقرون . بعد ذلك غزت مصر وغزت إثيوبيا ، مع الجزء الأكبر من ليبيا . وبعد أن حققت رغبتها ، ولعدم وجود عدوٍ يُضاهيها سوى مملكة الهند ، عزمت على توجيه قواتها نحوها . كان لديها جيشٌ قوامه 3 ملايين جندي مشاة ، و500 ألف فارس ، و100 ألف مركبة حربية . وللعبور عبر الأنهار ومواجهة العدوّ بحراً ، استعانت بألفي سفينة ، بُنيت بحيث يمكن تفكيكها لتسهيل نقلها ، وقد بُنيت هذه السفن في باكتريا على يد رجال من فينيقيا وسوريا وقبرص . خاضت بها معركة بحرية مع سترابروبيتس ، ملك الهند ، وأغرقت ألفًا من سفنه في المواجهة الأولى . بعد ذلك ، شيدت جسراً فوق نهر السند ، وتوغلت في قلب البلاد . وهناك اشتبك معها سترابروبيتس . انخدع بكثرة أفيالها ، فهاجمها في البداية استسلمت ، لنقصها في تلك الحيوانات ، فحصلت على جلود 3000 ثور أسود ، التي بعد خياطتها وحشوها بالقش ، بدت وكأنها عدد كبير من الأفيال ، كل هذا تم ببراعة لدرجة أن حتى أفيال الملك الهندي الحقيقية انخدعت ، لكن تم كشف الحيلة في النهاية ، واضطرت سميراميس للتراجع بعد أن خسرت جزءاً كبيراً من جيشها .

بعد ذلك بوقت قصير ، تنازلت عن الحكم لابنها نينياس بسبب وضعها الصحي ، وعندما قررت تعيين أبناء نيناس ملكاً انزعج البابليون بسبب صغر عمره ، وأطلقوا تلك الصيحة الجماعية الشهيرة (الرب يهجمك يا بلد إن حكمك ولد) فقد كان أغلب الملوك من أصحاب الأعمار الطويلة وكذلك الوزراء والخبراء ..

لقد أُعيد اكتشاف الأهمية الشخصية الحقيقية لسميراميس بفضل أبحاث البروفيسور ليمان–هاوبت من برلين . فإلى غاية عام 1910، كان يُعتقد أن الأفكار التي أوردها ديودوروس وغيره قد دُحضت تماماً ، وأن سميراميس مجرد شخصية أسطورية بحتة . غير أن "براينت" –في كتابه "الأساطير القديمة" المنشور في مطلع القرن الماضي أثبت لنفسه الطابع الأسطوري لسميراميس إذ يقول: "لا بد من الاعتراف بأن عامة المؤرخين قد صوروا سميراميس كامرأة ، ووصفوها بأنها أميرة عظيمة حكمت بابل لكن ثمة كتّاباً أتيحت لهم بحكم مواقعهم فرصٌ للحصول على معلومات أدق، وقد أشاروا إليها بصفتها إلهة. ويذكر أثيناغوراس أن السوريين عبدوا سميراميس ، مضيفاً أنها كانت تُعتبر ابنة "ديركاتوس" ومطابقة لـ "سوريا ديا" أي الإلهة السورية ، وقيل إن سميراميس وُلدت في عسقلان لأن "أتارغاتوس" كانت تُعبد هناك باسم "داجون"، ولأن المعالم التذكارية ذاتها المحفوظة في هيرابوليس وبابل كانت موجودة هناك أيضاً وقد ارتبطت هذه المعالم بقصة كانت الحمامة رمزها الرئيسي . ولهذا السبب نفسه ، قيل إنها تحولت إلى حمامة إذ كانوا يجدونها دائماً مُصوَّرة ومُعبودة بتلك الهيئة (القدرة على التحول امتلكها اغلب حكام سومر) ومما سبق ، يبدو لي جلياً أن سميراميس كانت رمزاً عظيماً ، وأن الاسم كان مركباً من "ساما–راماس" أو "راميس" وكان يعني "العلامة الإلهية" أو نوعاً من العناية الإلهية وباعتباره شارة عسكرية (إذ استُخدم كذلك) ، يمكن تفسيره بشيء من التوسع على أنه "راية العليّ" . كانت الشارة تتألف من هيئة حمامة ، ربما كانت محاطة بقوس قزح ، حيث غالباً ما كان يُصوَّر هذان الرمزان معاً . وكان يُطلق لقب "سيماريم" أو "ساموريم" على كل من سار تحت تلك الراية أو أبدى تبجيلاً لذلك الرمز ، وهو لقب كان يُمنح لكل من اتخذ هذا الشعار رمزاً وطنياً له". وهناك الكثير مما يشبه هذا الطرح ، وهو ما كان يميز الدراسات الأسطورية في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . من السهل أن ندرك كيف ارتبط اسم الملكة الآشورية بالأساطير ، فقد أثارت مآثرها حماس الآشوريين أنفسهم والشعوب المجاورة لهم على حد سواء . وكما نُسبت الأعمال العظيمة في بريطانيا القديمة إلى ميرلين أو الملك آرثر ، كذلك نُسبت إلى سميراميس تلك الآثار التي استعصى تفسير أصلها بطريقة أخرى . وتزخر غرب آسيا بمعالم تشهد على اسمها ، بل إن نقوش "بهستون" الخاصة بداريوس قد نُسبت إليها أيضاً . ويذكر هيرودوت أن إحدى بوابات بابل سُميت باسمها

، وأنها أقامت السدود الاصطناعية التي حصرت مجرى نهر الفرات . وقد ظل صيتها ذائعاً حتى العصور الوسطى ، حيث أطلق الأرمن اسم "شاميراماجيرد" على المنطقة المحيطة ببحيرة "وان".

لا يكاد يساورنا شك في أن شهرتها قد امتزجت بشهرة الإلهة عشتار ، أو حضيت ببركتها فهي تتمتع بالسمات ذاتها المرتبطة بـ "فينوس" ، وتُعد الحمامة رمزاً لها ، كما تداخلت قصتها مع قصة الإلهة البابلية لدرجة أنها أصبحت في نهاية المطاف تجسيداً آخر لها . وتُعد قصة "سميراميس" دليلاً قاطعاً على الكيفية التي يمكن بها لإنسان عبر عمليات أسطورية معينة أن يرتقي إلى مصاف الآلهة أو الإلهات ، إذ كانت سميراميس في الأصل شخصية حقيقية تماماً . وتصفها مسلة اكتُشفت عام 1909 بأنها "امرأة في قصر شمشي-أداد (أو شمس . آدي)، ملك العالم ، وملك آشور ، وملك جهات العالم الأربع" . وتشير هذه العبارة التكريسية إلى أن سميراميس أو "ساموررامات" حسب لقبها الآشوري كانت تتمتع بلا شك بنفوذ هائل لدى شمس . آدي ، وربما استمر هذا النفوذ بصفتها الملكة الأم عبر أكثر من عهدٍ ملكي ، مما يجعل للأسطورة التي تزعم أنها سلمت المُلك لابنها "نينياس" بعد فترة وصاية دامت اثنتين وأربعين عاماً ، أساساً من الحقيقة . ويبدو أنها خاضت حروباً ضد الميديين والكلدانيين . أما الرواية التي تقول إنها تحولت إلى حمامة واختفت عند تخليها عن السلطة ، فقد تعزى إلى سهولة الربط بين اسمها "ساموررامات" والكلمة الآشورية "سومات" التي تعني "حمامة" أو أنثى الطاوس ، وبالنسبة لشخصية حظيت بمثل تلك الشهرة الأسطورية اللاحقة ، فإن تفسير الرابط الأسطوري الذي يجمعها بالإلهة عشتار يبدو أمراً منطقياً ومفهوماً .

بدأت الحقبة المعروفة باسم "الإمبراطورية الآشورية الثانية" في عهد تغلث-بلاسر الثالث ، الذي وضع نظاماً متطوراً لإدارة الأقاليم ، ويبدو أن هذا النظام كان بمثابة إرهاصٍ مبكر للنظام الإقطاعي ، إذ كان يتوجب على كل إقليم دفع جزية ثابتة وتوفير قوة عسكرية . وقد بُذلت جهود مضنية لجعل الجيش قوة لا تُقهر ، وذلك بهدف فرض الهيمنة الآشورية على العالم المعروف بأسره . لقد اجتاح تغلث أرمينيا ، وهزم الميديين والحيثيين ، وسيطر على الموانئ البحرية في فينيقيا وطرق التجارة التي تربطها بمراكز التجارة الآشورية ، وأخيراً فتح بابل، حيث نُصِّب حاكماً عام 729 قبل الميلاد . وبعد عامين توفي ، لكن خليفته شلمنصر الرابع واصل السير على نهج السياسة التي أرسى دعائمها سلفه

غير أن شلمنصر لم يحظَ سوى بخمس سنوات لتحقيق ذلك ، ففي نهاية تلك الفترة ، استولى الجنرال المغتصب للسلطة "سرجون" الذي ادعى أنه من سلالة سرجون الأكدي العظيم على عرش بابل . قُتل سرجون عام 705 قبل الميلاد ، ويبدو أن ابنه سنحاريب الذي ذاع صيته في الروايات السومرية لم يكن يمتلك الحكمة أو الكفاءة التي تمتع بها والده لمواصلة إدارة شؤون الدولة ، فقد أثار حفيظة الشعب ومشاعرهم الدينية حين سوّى مدينة بابل

بالأرض عقاباً لمواطنيها على تمردهم ، كان هذا الملك من بين جميع الملوك الآشوريين ربما الأكثر تباهياً وعظمةً ، والأقل كفاءةً في الحكم . وقد شُيِّد القصر العظيم في نينوى وسور المدينة الضخم الذي بلغ محيطه ثمانية أميال بأمرٍ منه ، أما ابنه وخليفته ، أسرحدون ، فقد استهل عهده بإعادة تمثال الإله "مردوخ" المقدس إلى مزارِهِ في بابل ، وهي المدينة التي عمل على ترميمها . وقد أُعلِن ملكاً في احتفالٍ مهيب داخل معبد "مردوخ" المُرمَّم ، وساد الهدوء والرخاء كلاً من بابل وآشور في عهده . وفي عام 670 قبل الميلاد ، اندلعت الحرب مع مصر ، حيث مُني المصريون بثلاث هزائم متتالية تكبدوا فيها خسائر فادحة ، فدخل الآشوريون مدينة منف وفرضوا نظام الحماية على جزء من البلاد وبعد عامين ، اندلعت ثورة في مصر ، وبينما كان أسرحدون في طريقه لإخمادها ، وافته المنية في الطريق ..

خلف آشوربانيبال والده أسرحدون ، وهو الملك المعروف في الأساطير اليونانية باسم "سردانابالوس" . إذ تذكر الرواية الآشورية أنه كان آخر ملوك آشور ، والثلاثين في سلسلة الملوك التي بدأت بـ "نينياس". ويبدو أنه كان مثالاً صارخاً للحاكم الصارم والمجتهد ، ثارت عليه شعوب الأقاليم الخاضعة لحكمه سخطاً على طريقته في الحكم ، وحاصره جيش بقيادة "أرباسيس" (حاكم ميديا) و"بيليسيس" (كاهن بابلي) داخل نينوى مهددين حياته . ومع ذلك تخلص سردانابالوس منهم وأبدى مقاومة باسلة جعلت نتيجة الصراع معلقة وغير محسومة لمدة عامين على الرغم من انه كان يكره القتال ومیالاً للثقافة والرسم والإبداع . وفي تلك الأثناء ، فاض نهر دجلة وقوّض جزءاً من سور المدينة مما أتاح للجيش المعادي اقتحامها .

ومن المصادفات الغريبة أن المصير الذي تنسبه الأسطورة إلى سردانابالوس هو على الأرجح المصير الذي حلّ فعلياً بشقيق آشوربانيبال ، المدعو "شماش–شوم–يوكين" . وأن قصة إحراق اشوربانيبال لنفسه ليست سوى تجسيد أسطوري لطقس معروف في الديانات الشمسانية التي لم يفهم مغزاها او اسرارها مترجموا الالواح حيث كان يمارس طقس التحول في المعرفة المقدسة ويتحول الى طائر مقدس ويغادر عالم المادة ، كان هذا الطقس يُمارس في مدينة طرسوس حتى عهد "ديو خريسوستوم" ، ولا تزال ذكراه باقية في أساطير يونانية أخرى ، لا سيما أساطير "هرقل وملقارت" والملكة "ديدو" . ففي طرسوس ، كان يُقام مهرجان سنوي يُشيد فيه محرقة لإحراق دمية تمثل الإله المحلي (هرقل) . وربما نشأت هذه الذكرى السنوية لموت الإله حرقاً من طقس أقدم كان يتضمن حرق إنسان حقيقي أو حيوان مقدس ليمثل الإله . ويحتوي كتاب "الغصن الذهبي" على فقرة قيّمة تتناول سيرة اشوربانيبال . يكتب السير جيمس فريزر: "لا يبدو ثمة شك في أن اسم 'آشوربانيبال'، وهو اسم أعظم ملوك آشور وآخرهم تقريباً . غير أن السجلات الخاصة بالملك الحقيقي التي ظهرت إلى النور في السنوات الأخيرة لا تؤيد إلا قليلاً تلك الأساطير التي ارتبطت باسمه في التراث الكلاسيكي ، إذ تُثبت هذه السجلات أنه بعيداً عن كونه ذلك الرجل الضعيف المترف

الذي صوّره يونانيو العصور اللاحقة كان حاكماً محارباً ومستنيراً عاشقاً للعلم والمعرفة وطامحاً الى الإنتقال الى العالم الإلهي الخالي من الأوجاع والأمراض ."

ذلك العاهل الذي حمل رايات آشور إلى أصقاعٍ نائية ورعى في وطنه ازدهار العلوم والآداب . ومع أن الحقيقة التاريخية للملك آشوربانيبال موثقة ومؤكدة تماماً كتلك الخاصة بالإسكندر أو شارلمان ، فلا عجب أن تتجمع المآثر العظيمة كالسحب حول تلك الشخصية العظيمة التي برزت بوضوح في الغروب العاصف للمجد الآشوري . ولعل أبرز سمتين في مآثر "اشوربانيبال" هما انغماسه المفرط في القراءة واجراء التجارب العلمية مهما كانت خطورتها ، إذ قام بتجربة للوصول الى حجر الفلاسفة حتى عندما كان شاباً . ويُقال إن ذلك الملك المتشبه بالآلهة كان يغسل وجهه بمياه مستخلصة من الألماس والذهب ويرتدي ملابس كان يعتقد أنها تساعد على تفجير طاقاته الإلهية قضى أيامه منعزلاً في التأمل ومتابعة الفلك ، يغزل الصوف الأرجواني ويغرق في الرسم التشكيلي والقراءة الدائمة الى درجة كان ينسى معها انه ملكاً ، وأنه دوّن على شاهد قبره عبارةً تخلّد ذكراه ، مفادها أنه قضى أيام حياته كلها في البحث والتأمل والكتابة ، واضعاً نصب عينيه أن الحياة قصيرة ومليئة بالمتاعب ، وأن الحظ متقلب ، وأن آخرين سيتمتعون قريباً بتلك النعم التي سيضطر هو لتركها وراءه تمنى لو اعطي الخلود لإكمال دراساته في العلوم . ولا تكاد هذه السمات تشبه في شيء صورة آشوربانيبال الحقيقية بل صورة إله مجسد في انسان ، سواء في حياته أو مماته ، فقد توفي الملك الآشوري بعد مسيرة حافلة بالمنجزات العلمية في عصره وان مكتبته كانت تنبعث منها الانوار بكهرباء لاسلكية يجهل البريطانيون مصدرها الى اليوم ، وقد بلغ ذروة الطموح الإنساني ، متمتعاً بالسلام الداخلي والانتصار الخارجي ، ومحاطاً بإعجاب رعاياه وهيبة أعدائه . ولا يسعنا إلا أن نرجح أن هؤلاء الرجال الذين كان الموت يحدق بهم بعد أيام معدودة سعوا إلى نسيان الهموم وتبديد الخوف عبر الانغماس بجنون في كل الكنوز العلمية المتاحة لهم تحت أشعة الشمس . نَسَبَتها الروايات المتوارثة إلى الملك الآشوري العظيم ، لتذكير المارة الغافلين بقِصَر الحياة وزوالها

وعندما خلف "آشور بانيبال" الحقيقي والده "أسرحدون" في حكم آشور ، عُيّن شقيقه "شماش-شوم-يوكين" نائباً للملك في بابل ، إلا أنه سرعان ما طالب بالعرش لنفسه ، وأعاد إحياء اللغة السومرية القديمة لتكون اللغة الرسمية للبلاط البابلي ، كما أشعل فتيل ثورة هزت أركان الإمبراطورية الآشورية من أقصاها إلى أقصاها . وقد نشب صراع مرير بين القوى الشمالية والجنوبية ، انتهى باضطرار بابل إلى الاستسلام نتيجة الحصار والتجويع ، ومقتل "شماش-شوم-يوكين" .

الفصل الرابع

مكتبة الخلود

على الرغم من أن آشور بانيبال كان يتسم بالصرامة والحزم في أسلوب الحكم ، إلا أنه كان أول راعٍ عظيم للأدب فالفضل في حفظ معظم ما وصلنا من الأدب البابلي يعود إلى مكتبته الرائعة في نينوى التي تضمنت مئات الالف من الكتب . لقد أدرك أن الجزء الجنوبي من إمبراطوريته كان أكثر تقدماً من الناحيتين الفكرية والثقافية مقارنة بآشور ، فأرسل أعداداً كبيرة من الكتبة إلى مدارس المعابد في الجنوب ، حيث قاموا بنسخ شتى أشكال النصوص الأدبية والوثائق من الأرشيفات هناك ، لتضم المكتبة العظيمة في نينوى طيفاً واسعاً شمل الترانيم والأساطير والوصفات الطبية والحكايات الميثولوجية والطقوس الدينية الشمسانية بالإضافة الى كوزمولوجيا جامعة للعلوم مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والتحسس النائي للأراضي وعلم الجيولوجيا وعلم النباتات والعديد من الفروع العلمية الأخرى وقد استُعيدت هذه النصوص بفضل جهود كل من لايارد ورسام ، وتُعد هذه المبادرة مثالاً استثنائياً على الشغف بالآثار في حقبة زمنية نعتبرها قريبة نسبياً من بدايات التاريخ الموثق . وتُحفظ في المتحف البريطاني ما يقرب من عشرين ألف قطعة من الألواح االثمينة اغلبها معادن واحجار لم يكشف لنا العلم الحديث شيئاً عنها والتي تحمل نتاج مساعي آشور بانيبال البحثية العميقة والتي أراد تركها للبشرية من بعده ، ومن المرجح أن هذه القطع لا تمثل سوى جزء من مجموعته الكاملة . وقد نُسبت دوافع سياسية لآشور بانيبال في سعيه لجمع هذه المكتبة الضخمة إذ قيل إنه أراد جعل آشور مركزاً للنفوذ الديني في الإمبراطورية بعد تحول مملكته بالتدريج من الاقطاع الى البرجوازية الى عالم الراسمال واكتشف ان اعظم رأسمال تعبر به للعوالم العليا هو العلم لهذا ركز على هذه الناحية . غير أن هذا الرأي يقلل من شأن وجهة النظر القائلة بأن دافعه الوحيد كان الحفاظ على روائع الأدب البابلي القديم المتمثل بالتعاليم السومرية الشمسانية ، سواء في الشمال أو الجنوب واقتناء سجلات كان حريصاً للغاية على الحصول عليها لاستخدامه الشخصي ، وهو ما تؤكده وقائع عديدة تظهره وهو يرسل مسؤولين في مهام خاصة للحصول على نسخ من أعمال محددة . ومما له دلالة أيضاً أن آشور بانيبال أودع مجموعته في مكتبة وليس في معبد ، وهي حقيقة تضعف النظرية القائلة بأن جمع هذه الأعمال الأدبية كان يستند إلى أسس دينية وسياسية .

بعد وفاة آشور بانيبال ، نجح السكيثيون في اختراق آشور والتوغل عبر أراضيها حتى بلغوا حدود مصر ، في حين لجأت بقايا الجيش الآشوري إلى نينوى. كانت النهاية قد أزفت ، إذ يُرجح أن آخر ملوك آشور كان "سين-شار-إشكون" وهو ملك حكم لعدة سنوات وذكرت النقوش أنه كان يخطط لترميم المعابد الخربة في بلاده . غير أن الحرب اندلعت مع بابل ، وهبّ "كياخسار" ملك السكيثيين في إكباتانا لنجدة البابليين . سقطت نينوى في أيدي السكيثيين الذين نهبوها ودمّروها ، لتنتهي بذلك الإمبراطورية الآشورية . ومن المثير للدهشة أن بابل مركز السلطة الأقدم ظلت مزدهرة إلى حد ما ، بقيت المكتبة سالمة ولم يقترب منها احد لإعتبارها رمزاً مقدساً وهناك من اعتبر أنها تحت رعاية إلهية مباشرة من الأخوية البابلية ومن يقترب اليها تلحقه اللعنة ..

لعب مفهوم "الفاعلية الثقافية " الدور الأكبر في كيف يتشكل هذا المفهوم ضمن مثلث يجمع بين السلطة والفرد والمجتمع ، وكيف تم توظيفه في سياق هذه الدراسة ؟ فالمكتبة بالنسبة للمجتمع الآشوري كانت حصناً لا يمكن التخلي عنه في الحياة اليومية وتعلم الشعب علاقة السلطة بالفرد وعلاقته بالطبيعة والمجتمع ، تُعد السلطة مفهوماً مراوغاً كُتب عنه الكثير ، ففي علم الاجتماع ، جرى العرف على تعريف السلطة بأنها قدرة الفرد أو الجماعة الاجتماعية على دفع الآخرين للتصرف بطريقة مرغوبة ، حتى وإن أبدوا مقاومة لذلك ، فالمكانة المحورية لمفهوم السلطة في النظرية الاجتماعية لعبت الدور الأكبر في العصر الآشوري في موضوع صياغة الوعي . أن البنية الاجتماعية تضع حدوداً لما يمكننا القيام به كأفراد . وفي المقابل ، يرى النقاد أن تعريف المجتمع هو حصيلة لمجموعة من الأفعال الفردية ، معتبرين الأفراد صُنّاعاً للمجتمع لا مجرد نتاج له ، ولأن العصر الآشوري كانت إمتداداً لدولة الكهنة في سومر لم تظهر المخطوطات بأسماء فلاسفة أو علماء بل بأسماء آلهة مثل كتاب البرّ البابلي ، وكتاب تعاليم وملاحظات بيل الفلسفية التي هي عبارة عن 48 مجلداً تحكي عن التعريف الوافي لكل مصطلحات الحياة السياسية والاجتماعية والفلسفية والقانونية والفلكية والطبيعية ..

وعلى الرغم من أن المؤسسات الاجتماعية تفرض قيوداً علينا ، إلا أنها لا تحدد أفعالنا بشكل حتمي . فعلى سبيل المثال ، يمكن للمرء أن يختار العيش دون استخدام المال ، ولو اختار عدد كافٍ من الناس القيام بذلك ، لانهار النظام النقدي . وهكذا ، فإننا نقوم بإنشاء البنية الاجتماعية وإعادة تشكيلها بفاعلية من خلال أنشطتنا اليومية ولا تكتسب الجماعات أو المجتمعات "بنية" إلا إذا سلك الأفراد سلوكاً يتسم بالانتظام والنمطية . ومن ناحية أخرى ، لا يكون "الفعل" ممكناً إلا عندما يمتلك الأفراد قدراً كافياً من المعرفة المؤطرة اجتماعياً ، فاللغة ، على سبيل المثال

تخضع لعملية مستمرة من "البَنْينة" (أي التشكل البنيوي) ، فهي تحتاج إلى بنية ، لكن هذه البنية لا توجد إلا عندما يلتزم مستخدمو اللغة بتلك القواعد في ممارساتهم الفعلية ، وعليه، فإن البنية لا تشكل عائقاً أمام الفاعلية ، بل هي جزء أصيل في عملية إنتاجها ، كما يوجه الكثير من المفكرين انتقاداً شديداً لتلك الأشكال من النظرية الاجتماعية التي تنظر إلى الفاعلين (الأفراد) باعتبارهم مجرد "دمى ثقافية" مسلوبة الإرادة ، تنطوي السلطة داخل النظم الاجتماعية على علاقات مُعاد إنتاجها من الاستقلالية والتبعية في إطار التفاعل الاجتماعي . ومن ثم ، فإن علاقات السلطة تكون دائماً ركيزة أساسية في البحث ..

عند النظر في المعتقدات البابلية والآشورية يجدر بنا أن نتأمل بإيجاز التباين في الطابع الديني بين الشعبين ، وهو تباين لا بد أنه كان السبب وراء هذا الاختلاف في المسار العقدي . لم يكن التباين اللغوي بين العرقين يتجاوز ذلك الموجود بين لهجات شمال وجنوب ، بل إن العلماء يطلقون عليهما معاً تسمية مشتركة هي "الآشورية". غير أن الآشوريين تميزوا بسلالة نقية من ذلك الدم الشمساني الذي لعب دوراً جوهرياً في إرساء أسس منظمة للأديان في ذلك العهد ، فالإنسان الشمساني لا يرضى بأنصاف الحقائق ، إذ يُعد شعوره بالاستناد إلى أرضية دينية راسخة ويقينية أمراً حيوياً لا غنى عنه لوجوده ذاته . إنه يكره الشك ويزدري الشاكّين . وفي مرحلة مبكرة من تاريخه القديم ، نجح في صياغة نظام ديني محكم لدرجة أنه قدّم أولى النماذج للعقائد الراسخة والنقية ، تلا ذلك نبذٌ قاطع لكل ما يثير الريبة أو يزعزع اليقين ، فتم إرساء منظومة عقائدية قامت على صخرة الإيمان المطلق الذي لا تشوبه شائبة الشك . نلحظ في النظم الدينية لبابل عبادة شي شمس ، وفي آشور شي سن ، بالإضافة الى ان جانباً من مسار التطور الذي ساهم في تشكيل نظامٍ يتسم بكونه محدود النطاق زمغلق ، ولكنه مشحون بصبغة روحية عالية .

تمتعت الآلهة العظيمة في آشور بسلطة مطلقة تفوق نظيرتها في بابل خاصة بعد انتقال التاج والصولجان وبركة الحكم للنسل الآشوري . ومما ساهم في ذلك استيعابُ الآلهةِ المرتبطةِ بالمراكز الكبرى للحياة الآشورية للعبادات المحلية الصغرى ، إذ تتسم الأديان المبكرة بحساسية بالغة تجاه التغيرات السياسية ، فمع تطور الجماعة البشرية من كيان قبلي أو محلي لتصبح أمة موحدة ومن نظام اقطاعي اقتصادي الى نظام برجوازي ، تتحول الآلهة المحلية إلى آلهة قومية ومركزية ، وغالباً ما يتم ذلك عبر تماهيها مع الإله الأكبر للمدينة الأكثر نشاطاً وتأثيراً من الناحية السياسية في الدولة . ولا يشترط في هذه العملية أن تكون الآلهة المستوعَبة (التي تم دمجها) ذات طبيعة مماثلة للإله المستوعِب (الذي ضمها إليه) ، فكثيراً ما يتقمص إلهٌ ما اسمَ وصفاتِ إلهٍ آخر لم تكن تجمعه به سوى قواسم مشتركة ضئيلة

تمحور دين الدولة في آشور حول الإله "آشور" وحول الإله " آدي " والتسميات المرافقة فقد كان محظوراً ذكر هذه الأسماء لذلك تم الإستعانة بتسميات رديفة مثل " بيل " و" اشقبانو " او قربانو ، ولم يرتبط أي إله بإمبراطورية ارتباطاً وثيقاً كما ارتبط هذين الاسمين بها ، فعندما سقطت الدولة الآشورية، سقط "آشور" معها لكن الكهنة في لالش لم يسمحوا بسقوط أسسهم الدينية وسلطان الخلق " آدي " . وعلاوة على ذلك ، يمكن القول إن جميع آلهة آشور قد اجتمعت في كينونته .

في بابل، كان "مردوخ" قائداً للجيوش . أما في آشور ، فقد جسّد الإله "آشور" هذه الجيوش ، إذ أصبحت الآلهة الآشورية الأخرى بمثابة صفاتٍ لـ "آدي "، ولا يمكننا فهم بقية الآلهة الآشورية إلا إذا اعتبرناها إن جاز التعبير نسخاً مصغّرة من "آدي" ، أو أشعةً متفرقةً من ذلك الإله العظيم للحرب والفتح والسلام والتقدم . وقد نشأ "آشور" في المدينة التي تحمل اسمه والواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة ملتحقاً بوالده انليل الذي اتخذ من آربائيلو مقاماً لهُ ولالش كمركزاً سرياً للعبادة ، وعندما خضعت أقاليم بابلية أخرى لسلطة تلك المدينة ، لم نجدها ترفع شأن إله بابل فوق آلهتها المحلية الخاصة . لكن الأمر اختلف تماماً مع الإله "آدي" ، إذ نجد معابده منتشرة في أرجاء بلاد آشور بل إننا نرى مع تطور التاريخ الآشوري مدناً مختلفة تُشار إليها باعتبارها المركز الرئيسي لعبادته ، فتارةً يقيم في "آشور" ، وتارةً في "كالح" ، وأخرى في "نينوى" أو "خورساباد" وأخرى في " لالش " . وحيثما اتخذ ملوك آشور مقر إقامتهم الرسمي ، كان "آدي" يُعبد ويُعتقد أنه يقيم هناك . لم يُرمز إليه بصنم أو تمثال بشري يمنح العامة تصوراً عن هيئته الجسدية ، بل مُثِّل بشعار يتكون من عمود تحيط به أسطوانة (أو قرص) محفوفة بجناحين . وفوق هذا القرص ، تبرز هيئة محارب يشد قوساً وسهماً ، وهو ما كان يرمز بوضوح إلى الطابع العسكري للأمة الآشورية ولإلهها الحامي . وفي الوقت نفسه ، ثمة دلائل تشير إلى أن هذا العمود ورموزه المصاحبة ليست سوى بقايا "راية طاوسية" أُضيفت إليها لاحقاً هيئة بشرية لإله البرق أو العاصفة . فالعمود يُعد وسيلة شائعة لحمل رموز الطاوس إلى ساحات المعارك ، ويبدو الأمر هنا وكأن الشمس قد عُدّت في مرحلة ما طاوسياً شمسانياً مشتركاً .

يبدو الرامي الذي يظهر في الأعلى ممثلاً لإله البرق أو العاصفة وهي طاوسي ملك عند العرف الديني الايزيدي وعبارة رمزية أسطورية غالباً ما تقترن بالشمس ، ذلك "المحارب القوي" . ونظراً لامتلاكه سهم البرق ، يُنظر إلى إله العاصفة غالباً على أنه إله للحرب . ولا يلقي الأصل اللغوي لاسم "آدي" سوى القليل من الضوء على طبيعته كإله فالمدينة التي حملت اسمه كانت تُدعى في الأصل ، على الأرجح، "مدينة الإله آشور"، ولم يكن من المستغرب إطلاق اسم الإله عليها بمفرده . يُشتق الاسم من جذر لغوي يعني "اللطف" أو "المنّ"، ومن ثم فهو يعني "الإله اللطيف" أو "الإله الخيّر". غير أن هناك مؤشرات تدل على وجود صيغة أقدم للاسم تعود لسومر وتسمية الآدانية ، وقد قيل

إن صيغة " آدي " هي الأقدم ، ومع ذلك ، لا نجد له أي ذكر في النصوص والنقوش البابلية القديمة إلاّ تحت عبارة التقديس الإسطورية . ومن المحتمل بالطبع أن الرواية التي تشير إلى "آدي" قد خضعت لبعض التعديلات عند الآشوريين ، كما يمكن اعتبار إدراجه في أسطورة الخلق نوعاً من الإقرار بعظمة الآشوريين ، إذ نجد في إحدى ألواح الخلق أن "آدي" قد حل محل "ايزيد" باعتباره مُشكِّل الأرض !

يرد ذكر "آدي" في أقدم نقش آشوري معروف لدينا ، وهو نقش "شمشي- آدي " (حوالي عام 1850 قبل الميلاد) الذي كان كاهناً وحاكماً لمدينة آشور في حقبة لم تكن فيها سلطتا الملك والكاهن الأعظم قد انفصلتا بعد والرمز يسميه الايزيديون بـ شمس آديا . بل إن ملوك آشور ، حتى بعد أن شاع استخدام لقب "ملك" بنحو 350 عاماً ، ظلوا يحتفظون بحق وصف أنفسهم بـ "كهنة الإله آدي" . إن ما يبعث على التأثر هو ذلك الإيمان العميق والاعتماد الكلي الذي أبداه هؤلاء الحكام الآشوريون الأوائل تجاه معبودهم المحبوب ، فهم أبناؤه الذين يعتمدون عليه تماماً ، أولاً طلباً للحماية من أعدائهم القساة ، ثم سعياً لتوسيع رقعة إمبراطوريتهم الآخذة في النمو . ولا عجب أن تبلغ آشور شأناً عظيماً بفضل هذا الإيمان الذي كان يبعث فيها الحيوية ، فقد كان الإيمان بإلهها الحامي هو سر عظمتها الحقيقي . فأعداء آشور هم "أعداء آدي" ، وجنودها هم "محاربو آشور"، وأسلحتها هي "أسلحة آشور". أمام حضوره ترتعد فرائص أعداء آشور ويندحرون ، وهو الذي يُستشار عبر الوحي أو البرّ بشأن شن الحروب وإدارتها ، وهو الحاضر دوماً في ساحة المعركة ببركته وإرادته . ومع ذلك ، كانت طبيعة "آدي" المتفردة والمنعزلة أمراً لافتاً ، بالنسبة للباحث الجاد في التاريخ الآشوري ، من الواضح أنه لا يمكننا كتابة ذلك التاريخ دون مناقشة المصادر مناقشةً وافية . إذ يتعين علينا معرفة ماهية هذه المصادر ، وبعبارة أخرى ، يجب أن نبدأ بإعداد قائمة ببليوغرافية للوثائق المتنوعة . ثم ينبغي تصنيفها إلى فئات مختلفة ، نظراً لأن فئات النقوش المتنوعة تتفاوت في درجات دقتها وأخيراً ، يجب علينا دراسة المصادر المتعلقة بكل عهد ملكي بالتفصيل وتصحيح بعض الترجمات الركيكة لرجال وجدوا في الشرق على انهم مترجمي الواح ، وتحديد أي من الوثائق أو مجموعات الوثائق هي الأقرب زمنياً للأحداث التي ترويها ، ومن ثم نؤسس تاريخنا لتلك الحقبة استناداً إليها وحدها ..

أما بالنسبة للقارئ غير المتخصص بدقة في الجوانب التقنية ، فإن تطور الحس التاريخي لدى إحدى الشعوب ذات الحضارة المبكرة يكتسب أهمية خاصة . وتُعد الكتابات التاريخية للآشوريين واحدة من أهم فروع أدبهم الراقي ، بل يمكن القول بكل صدق إنها السمة الأكثر تميزاً للطابع الآشوري من بين سائر أشكال أدبهم ..

أما النقوش الثانوية لهؤلاء الحكام فلم يُخصص لها سوى القدر الضروري للغاية من المساحة ، كما تم تجاوز ذكر الحكام الذين لم يتركوا لنا نقوشاً ذات طابع تاريخي بحت . وقد أوجزت الملاحظات الببليوغرافية قدر الإمكان دون ادعاء الشمول التام ، وإن كانت ستُعتبر على الأرجح الأكثر شمولاً مما نُشر حتى الآن .

اقتبس الآشوريون أسلوبهم في الكتابة التاريخية والدينية كما فعلوا مع العديد من العناصر الثقافية الأخرى من البابليين فقد كان في تلك البلاد ، ومنذ أقدم العصور ، نوعان من النقوش التاريخية . نشأ الشكل الأكثر شيوعاً منها نتيجة رغبة الملوك في تخليد أعمال البناء التي قاموا بها وليس مآثرهم الحربية ولا سيما تلك المباني التي شُيدت تكريماً للآلهة ورغم وجود إشارات عابرة بين الحين والآخر لأنشطة عسكرية ، إلا أننا نادراً ما نعثر على وثيقة مكرسة في المقام الأول لسرد الوقائع الحربية . وإلى جانب نقوش البناء هذه ، وُجدت قوائم جافة بأسماء الملوك تتضمن أحياناً مدة حكمهم ولكن باستثناء بعض الأساطير العرضية ، يبدو أنه لم تكن هناك تواريخ مفصلة للأحداث . ومن هذا النوع الأول اشتُقت أقدم النقوش الآشورية . وفي الواقع ، لا يحق لنا وصفها بأنها "تاريخية" بأي معنى للكلمة ، رغم أنها تمثل مصادرنا الوحيدة لمعرفة الحقائق القليلة المتاحة عن تلك الحقبة المبكرة . وعادةً ما تتخذ النقوش من هذا النوع صيغةً وهكذا ، لم يكن هناك آنذاك سوى اختلاف طفيف في الشكل عن النماذج البابلية ، كما كانت المعلومات التاريخية الواردة فيها شحيحة للغاية حيث لم تترجم اغلب الالواح او انها منعت ترجماتها من النشر . واستمر هذا النمط حتى أواخر عهد الإمبراطورية الآشورية في النقوش المدوّنة على معادن نفيسة واحجار كريمة ، في النقوش المكتوبة على الألواح الحجرية المستخدمة لتزيين القصور أو المعابد . وبالنسبة لهذه الفترات اللاحقة ، غالباً ما تكون لتلك النقوش قيمة تتجاوز تاريخ العمارة ، ولذا فهي لا تتطلب مزيداً من الدراسة هنا . ومع ذلك ، ينبغي ألا نغفل الأصل المعماري للنقش التاريخي ، فحتى في المراحل الأخيرة، نادراً ما نجد وثيقة لا تختتم بسرد مفصل إلى حد ما لأعمال البناء التي أنجزها الملك الذي أمر بإقامتها ..

عندما بدأت الحفريات الألمانية في مدينة "آشور" أقدم عواصم الإمبراطورية الآشورية كان الأمل معقوداً على أن المعلومات الشحيحة التي اضطررنا للاكتفاء بها عند كتابة التاريخ المبكر ستشهد توسعاً كبيراً قريباً . وقد تحققت توقعاتنا جزئياً إذ أصبحنا نعرف الآن أسماء العديد من الحكام الجدد وألقابهم الحقيقية ، كما تزايد عدد النقوش المكتشفة بشكل هائل ونزلت ترجمات لم يكن يسمح لها بالظهور من قبل . وبات من الواضح الآن أنه لا يُتوقع العثور على مثل هذه الوثائق فكل ما وُجد هو ما يُعرف بنقوش "العرض" (أو النقوش الاستعراضية) وتلك التي تتسم بمحتوى شديد الاختصار ، ولم تظهر نقوش الحوليات الفعلية إلا في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وتحديداً

في عهد الملك "أريك-دين-إيلو" . ومن الواضح حتى من خلال البقايا المبتورة لتلك النقوش أننا بصدد البدايات الأولى لكتابة الحوليات التاريخية ..

وقبل الخوض في دراسة تفصيلية لهذه المسائل ، لا بد من تكوين نظرة عامة على الوضع الذي نواجهه ، إذ تتنوع أشكال النقوش ، ولا سيما في المراحل المتأخرة من عمر الإمبراطورية . فإلى جانب النقوش المدونة على المعادن الثمينة والاحجار الكريمة التي تحمل قيمةً تاريخيةً كبيرةً في هذه الفترة المتأخرة نجد أمثلةً عديدةً وعلى نطاق أوسع لما يُعرف بـ "نقوش العرض" (أو النقوش الاستعراضية) وهي نقوش تُنفذ عادةً على ألواح لا يمكن حتى معرفة طبيعة الأحجار المستخدمة فيها لأنها ببساطة غير معروفة للبشر حتى اليوم ، وتُخصص لأغراض الزخرفة المعمارية . وفي بعض الحالات ، نعثر على ألواح تتضمن المسودات الأولية التي أُعدت للعمال ، كما توجد نقوش أخرى مدونة على أشكال موشورية أو أسطوانية . ورغم أن هذه الأشكال الأخيرة لا تختلف في هيئتها عن العديد من "الحوليات" التاريخية الفعلية ، إلا أن هذا التشابه الشكلي لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة أن نصوصها تختلف اختلافاً جذرياً من حيث طبيعتها ومضمونها .

تتسم جميع النقوش الرسمية (أو نقوش العرض) بطابع معماري في المقام الأول ، سواء كانت مخصصة لتزيين جدران القصر أو لكي تُوضع كنوع من حجر الأساس تحت البوابات أو عند زوايا السور . ولا ينبغي لنا أن نتوقع قيمة عالية لهذه النقوش ، فهي في الواقع قليلة الأهمية إذا ما قورنت بالنصوص الحولية (السجلات التاريخية) المقابلة التي استندت إليها وحُفظت لنا . فعلى سبيل المثال، لدينا أربع صيغ مختلفة لنقش رسمي طويل للغاية ، فضلاً عن عشرات النقوش الثانوية التي تحمل أيضاً طابع النقوش الرسمية والتي تعود إلى السنوات الأخيرة من حكم سرجون . وتُعد هذه النقوش الثانوية مجرد ملخصات (أكثر أو أقل تفصيلاً) للنقوش الكبرى ، وكان من الممكن أيضاً تجاهل النقش الرسمي الطويل لولا أن نسخة الحوليات التي استند إليها قد وصلتنا في حالة مجزأة . لذا، يمكننا الاستعانة بالنقش الرسمي لسد الثغرات في الحوليات ، لكنه لا يتمتع بأي مصداقية حين يتعارض مع النص الأصلي الذي استُمد منه . ومع ذلك ، فمن الصحيح أن النقوش الرسمية تكتسب قيمة كبيرة في فترات حكم عديدة، حتى في العصور المتأخرة نسبياً فبالنسبة لفترة حكم "أداد نيراري" (812-785 ق.م) وهي فترة بالغة الأهمية تُعد هذه النقوش مصدرنا الوحيد نظراً لضياع الحوليات التي يُفترض وجودها لتلك الحقبة التي شهدت تطوراً كبيراً . كما أن التدمير المتعمد للجزء الأكبر من حوليات "تغلث-بلاسر الرابع" يفرض علينا دراسة وثائق العرض بمزيد من التفصيل ، وكذلك الحال بالنسبة لفترة حكم "أسرحدون" ، حيث أدى ضياع الحوليات باستثناء جزء يسير منها إلى ضرورة إجراء مناقشة مستفيضة للنقوش الرسمية تفوق ما كان سيتطلبه الأمر في الظروف العادية . وبالإضافة إلى ذلك ، نلاحظ وجود

نقوش قليلة تعود لفترات حكم أخرى مثل نقش سرجون في نمرود تبدو وكأنها تستند إلى نسخة من الحوليات أقدم من تلك التي وصلتنا ، ومن ثم فهي تقدم لنا بعض الحقائق الجديدة. وإذ بات من الضروري أحياناً استخدام هذه النقوش الرسمية ، فيجب علينا أن نعترف صراحةً بعظمة قيمتها ، إذ ينبغي إدراك أن الغرض الأساسي منها لم يكن سرد تاريخ متصل لفترة الحكم ، بل مجرد تعداد للمنجزات المختلفة تعظيماً لمجد الملك . ومما يزيد الأمر تعقيداً أنها تتبع ترتيباً زمنياً دقيقاً يتبع السرد عادةً مساراً جغرافياً يمتد من الشرق إلى الغرب . ومن البديهي ، والحال هذه ، أن التعامل معها يتطلب حيطة وحذراً لا سيما وأن بعض شعوب المنطقة أصبحت تستنسخ هذه التجارب وتعمل على إضافة إسقاطات على تاريخها . يكون وضعنا أفضل بكثير عند التعامل مع النقوش الحولية ، إذ نجد هنا تسلسلاً زمنياً منتظماً ، وحتى إن وُجدت أخطاء سواء كانت متعمدة أم لا فإن التسلسل الزمني النسبي يظل صحيحاً في الغالب . كما أن السرد أكثر تفصيلاً ، وغالباً ما يورد تفاصيل مثيرة للاهتمام لا نجدها في مصادر أخرى . ومع ذلك ، سيكون من الخطأ الجسيم افتراض أن هذه الحوليات غير موثوقة ، فقد دأب المؤرخون الأوائل على قبول ما ورد فيها بعد تمحيص كافٍ ، و يمتلكوا دليلاً قاطعاً على دقتها . أما في السنوات القليلة الماضية ، فقد اكتُشفت كمية كبيرة من المواد الجديدة التي يمكننا استخدامها لإخضاع وثائق العصر السرجوني للنقد والتحليل . وتأتي الرسائل في مقدمة هذه المواد قيمةً وأهمية ، فبعضها صادر عن الملك نفسه، وإن كان معظمها موجهاً إليه من آخرين ، كالقادة العسكريين في الميدان ، أو حكام الأقاليم ، أو مسؤولي القصر . وبالطبع ، تُعد هذه الوثائق أصلية وموثوقة تماماً ، وهي تسلط الضوء على الحوليات بطريقة مثيرة للاهتمام . ويُضاف إلى ذلك نصوص الصلوات الموجهة إلى إله الشمس " شيشمس " طلباً للوحي والتي تعود لعهدي أسرحدون وآشور بانيبال إذ تكشف لنا عن تفكك الإمبراطورية بصورة لم نكن لنتوقعها أبداً بالنظر إلى الروايات الفخمة التي صاغها الملوك أنفسهم . وحتى الوثائق التجارية قد تقدم لنا أحياناً عوناً بسيطاً في عملية النقد والتحليل . وإذا أضفنا إلى ما سبق الإشارات الواردة في مصادر خارجية كالمصادر العبرية أو البابلية فلن نكون بحاجة كبيرة إلى دراسة داخلية للنصوص لنقتنع بأن هذه الحوليات تفتقر إلى الموثوقية . ومع ذلك ، يمكن الاستفادة حتى من الأدلة الداخلية ، فعلى سبيل المثال ، عندما يُذكر أن الملك تواجد في العام نفسه في منطقتين متباعدتين جداً من الإمبراطورية ليحارب السكان المحليين ، يتضح لنا أن إنجازات أحد القادة قد نُسبت زوراً إلى الملك في إحدى هاتين المنطقتين ، مما يثير الشك في أنه ربما ظل مقيماً في آشور طوال الوقت . وهناك أدلة كثيرة أخرى تثبت وجود مثل هذه النسب الخاطئ للأعمال إلى الملك ، ومنها الرسائل المتبادلة بين القادة الميدانيين وحاكمهم ، أو الإشارات العرضية إلى مصادر خارجية مثل وثائق "حلم آشور بانيبال" ، الذي يُظهر بوضوح أنه كان شخصاً عظيماً ومتبحراً في العلوم الكوزمولوجية ، ومرة أخرى ، نجد أن

النسخ المختلفة تتطابق فيما بينها ويدرك مدى صحة ذلك إلا من تجرّأ على التركيز في دراسةً مستفيضةً لتلك الوثائق وقد أُشير قبل بضع سنوات إلى أمثلة نموذجية مستمدة من "حوليات سرجون" ..

كان الآشوريون ، كما تُظهر وثائقهم التجارية دقيقين للغاية في التعامل مع الأرقام ، لقد قادنا هذا النقاش إلى مسألة أخرى ، وهي الترتيب النسبي لمختلف نسخ الحوليات ، إذ يمكن إثبات وجود نسخ متعددة كهذه لكل عهدٍ ملكي تقريباً . وفي كل عهدٍ تقريباً ، كانت النسخة الأحدث والأسوأ هي التي يعتمدها المؤرخون المحدثون بانتظام كأساس لدراساتهم . وستُبيّن الصفحات التالية مدى الضرر الذي قد يلحق بذلك بالنظرة الصحيحة للتاريخ الآشوري الذي تعرض لظلم واضح . إن أسلوب الكاتب الآشوري يتبع نمطاً ثابتاً ، فبمجرد أن يحقق الملك أول انتصارٍ مهم له كانت تصدر النسخة الأولى من الحوليات وتدوّن أغلب التجارب الحيّة والدقيقة في نفس الفترة ، ومع تحقيق الانتصار الكبير التالي ، كانت تُعد نسخةٌ جديدة . بالنسبة للجزء الذي غطته النسخة الأقدم ، أُدرجت صيغة موجزة منه ، أما عندما وصل الناسخ إلى الفترة التي لم تغطها الوثيقة السابقة ، فقد كتب بطبيعة الحال بتفصيل أكبر نظراً لأن تلك الأحداث كانت حاضرة بوضوح أكبر في ذهنه ، وبدت له بالتالي ذات أهمية أعظم . والواقع أنه كان ينبغي على جميع المتخصصين في الدراسات الآشورية أن يدركوا منذ زمن بعيد أن أي نسخة من هذه النسخ لا تكتسب قيمتها إلا إذا كانت الأقرب زمنياً إلى الأحداث من بين جميع النسخ المحفوظة ، أما إذا لم تكن كذلك فإنها تفقد قيمتها تماماً في حال توفر النص الأصلي الذي اشتُقّت منه . ومع ذلك ، تظل الحقيقة أن النسخ الأكثر تداولاً لهذه الحوليات هي تلك الأحدث عهداً والأعلى جودة ، إذ لم يُعَد نشر العديد من النسخ الأقدم والأكثر قيمة منذ سنوات عديدة ، مما يضطرنا للحصول على المصادر الأقرب زمنياً للأحداث إلى اللجوء إلى كتب قديمة نفدت طبعاتها منذ أمد بعيد ويصعب العثور عليها ، فضلاً عن كون ترجماتها وشروحاتها قد عفا عليها الزمن تماماً . وينطبق هذا الأمر بصفة خاصة على نقوش سنحاريب وآشور بانيبال التي تعرضت لظلم في الترجمات . ولعل أعظم مكسب لمؤرخ التاريخ الآشوري هو إصدار مجموعة للنقوش التاريخية الآشورية تقتصر على تلك النسخ أو أجزاء النسخ التي يمكن اعتبارها معاصرة للأحداث وذات قيمة من الطراز الأول فبوجود مثل هذه المجموعة بين يديه والتي تتميز بما استبعدته بقدر تميزها بما تضمنته ستزول صفة "المعضلة" عن كثير من أكثر المسائل تعقيداً واستعصاءً في التاريخ الآشوري ..

يتعين على مؤرخ آشور تمحيص مصادره قبل الشروع في استخدامها لكتابة التاريخ وللقيام بذلك ، لا بد له أولاً من التمييز بين المصادر الأولية التي ستثمر دراسات مستقبلية وبين المصادر الثانوية التي تستند إلى وثائق أخرى أكثر معاصرة للأحداث ، وهي وثائق لا تزال بحوزتنا بالفعل . وحين نُعْرِض عن هذه المصادر الثانوية لعدم جدواها العملية

باستثناء ربما ما تكشفه عن الأنماط الذهنية المميزة للمحرر الآشوري نصبح حينئذٍ مستعدين لإخضاع ما تبقى منها للاختبار والتحليل وفقاً للمناهج التاريخية المتعارف عليها . أما الشق الثاني من هذه المهمة، فيتعين على المؤرخ إنجازه أثناء دراسته التفصيلية للتاريخ الآشوري ، إذ إن تحديد المصادر الأولية الخاصة بعهود الحكم المختلفة ، وتقييم ما تقدمه تلك المصادر من إسهامات في التاريخ الآشوري ..

إن أغلب المحتويات التي تمت ترجمتها من المخطوطات التي تعود للعهد الآشوري تمت ترجمتها بطرق ركيكة كما أن كل ما يشير الى عظمة الفلسفة والعلوم في العهد الآشوري لم يُحظى بإهتمام بالغ بل كان هناك تعمد واضح في تأخير نشر الترجمات التي صدرت عنها وأهمها مكتبة الخلود الآشورية التي كانت تضم بحوراً لا يمكن تجاهلها فقد كانت تحوي كل أصناف العلوم ولا يوجد شيء من الكائنات والأحياء والنباتات لم يكن لهُ جناح في هذه المكتبة ، لكن يجب الإشارة الى أن الخيمياء كانت تحظى بإهتمام بالغ في تلك الحقبة من التاريخ ولم يكن طريق البشر الى الخلود أمراً سرّياً كما هو عليه الحال اليوم ..

ويمكن تقسيم ما ترجمته الألواح من أصناف الكتب والمجلدات في مكتبة آشور بانيبال الى الشكل التالي ..

ـ علوم كوزمولوجيا الوجود ..

ـ علوم التأثير الإيحائي للكون وبرمجته على الكيانات الطاقية للأحياء في كل الوجود ..

ـ التقسيمات الفلكية للوجود .. الأزل والدهر والمجرات والأكوان والمجاميع الشمسية والنجوم وغيرها ..

ـ التقسيمات الوجودية بين علمين عظيمين شكلا محور الوجود ومنها نبعت شريعة الحياة في الوجود وهي شريعتي الشمس " شيشمس " وشريعة القمر " شيسن " وتأثير انقسام الكائنات بين هاتين الشريعتين ..

ـ التقويمات الشمسانية والقمرية وتأثيرها على الأحياء ..

ـ تطور علوم الكيمياء منذ لحظة الخلق الأولى الى تطوره الى علم الخيمياء السببية ..

ـ تطور الفيزياء منذ بداية النشوء الى لحظة انهيار الدولة الاشورية ..

ـ العلوم النباتية بأشكالها ومصنفاتها التي وصلت الى مئات الآلاف من المجلدات ..

ـ علوم الماء وطاقاتها ..

ـ علوم النار منذ بداية إكتشافه كطاقة الى تطور حالات استخدامه ..

ـ علوم الهواء والتحسس النائي ..

ـ علوم التراب وتكوين الأحجار وصولاً الى إكتشاف أحجار خالدة مثل البريليوم استخدامها في بناء القصور المهمة والمعابد ..

ـ علوم السحر الأبيض والأسود وطرق استخداماتها في عالمي النور والظلام ..

ـ الفلسفة بكل اصنافها ..

ـ الفن التشكيلي الذي وصل أعلى مرحله بوضع لوحات مميزة على الأحجار الكريمة المستخدمة في البناء ..

ـ الموسيقة وتردداتها ونوتاتها وطبيعة تأثيرها في الروح عند كل الكائنات ..

الهندسة بكل اصنافها حتى وصلت مرحلة اختصارها بالمعمارية ..

ـ الاقتصاد والأرقام في الحضارة السومرية منذ بداياتها وحتى وصولها مرحلة البطاقة التموينية في سومر وبابل وآشور ..

هذه الأجزاء التي تضمنتها المكتبة ليست سوى شيء بسيط تمت الإشارة اليه في الترجمات الدورية للمخطوطات الآشورية ، وهي تعطينا إنطباعاً بأنها لم تكن حضارة عادية بل حضارة مرت بالمراحل الاقتصادية مجتمعة حتى وصلت أعلى مراحل التقدم بالقضاء على الأغنياء وعلى الفقراء في المجتمع وجعل الدولة بأسرها مكونة من طبقة واحدة وهي الطبقة الوسطى ..

واستغرقت عملية نقل تلك المخطوطات سنوات طويلة لكن القسم الأهم فيها كان مدفوناً بطرق فلكية رهيبة ، وأن كل عالم آثار إقترب منها لإستخراجها لقي حتفه أو أصيب بمرض خطير الى أن إكتشف البريطانيون أنها مدفونة بطريقة التوقيتات الفلكية المعيّنة ، وهي طريقة لن يتمكنوا من نقلها أو استخراجها قبل حلول الموعد الذي حدده الآشوريون أنفسهم ..

الفصل الخامس

التقنيات المستخدمة في العصر الآشوري

تطلبت المشاريع الهندسية المعقدة التي نُفذت في آشور القديمة توفر معرفة تقنية واسعة ووجود متخصصين شغلوا مناصب مسؤولة وأنجزوا مهاماً فنية وتنظيمية طموحة . وهؤلاء المتخصصون يماثلون المهندسين في العصر الحديث رغم أن الهندسة لم تظهر كمهنة مستقلة إلا في القرن التاسع عشر الميلادي . لا تتوفر لدينا معلومات حول كيفية تدريبهم أو نظرتهم لأنفسهم ، كما لا يوجد في السجلات مفهوم آشوري محدد لمصطلح "مهندس". ومع ذلك ، فإن هذا لا يعني عدم وجود "مهندسين" آشوريين ، فقد مارس محترفون مثل (باني المنازل) ، و (المعماري) ، و (كبير البنائين) ، و (مفتش القنوات) مهاماً هندسية متنوعة . وقد وُثِّق عملهم في المصادر المكتوبة ، والنقوش المصورة والبقايا الأثرية التي وجدت وللحقيقة أن أغلبها لم يُعلن عنها لأنها كانت تضم علوماً نوعية تتعلق بالبناء والهندسة . وتتجلى مهارات "المهندسين" الآشوريين في مجالات تخطيط المدن ، وتشييد المباني الضخمة والجسور ، والهندسة المائية ، ونقل الأحمال الثقيلة . وفي جميع المشاريع الهندسية الكبرى ، يبرز الملك الآشوري في موقع محوري بصفته صاحب المشروع والممول والمدير الرئيسي له . ورغم أنه كان يصور نفسه باعتباره المسؤول الوحيد عن مشاريع البناء ، إلا أنه ينبغي النظر إليه بشكل أدق كنوع من مديري المشاريع ، فهو من وضع المبادئ التوجيهية والمواعيد النهائية ووفر الموارد ، وكان يطلب إطلاعه باستمرار على سير أعمال البناء ، كما كان يحظى بجميع أشكال التقدير والاحتفاء المرتبطة بنجاح المشروع .

تُعد ظاهرة تأسيس عاصمة جديدة، أو تحويل مدينة قائمة بالفعل إلى عاصمة ، أمراً موثقاً جيداً في التاريخ الآشوري ومحوراً للعديد من الدراسات كانت مدينة "آشور" (قلعة شرقاط) التي مثلت مركزاً تجارياً ودينياً هاماً وتقع على الضفة الغربية لنهر دجلة هي العاصمة الآشورية خلال العصر الآشوري الوسيط ، وقد ظلت أهم مركز ديني طوال التاريخ الآشوري ، حيث دأب الملوك الآشوريون على تشييد مبانيها وتحصيناتها وتوسيعها وترميمها . ومع ذلك ، فقد ظلت "آشور" بمساحتها البالغة 70 هكتاراً أصغر العواصم الآشورية جميعاً ، أما أولى العواصم الآشورية التي أُسست حديثاً في تلك السلسلة، فقد بناها الملك "توكولتي-نينورتا الأول" (1233 ـ 1197) ، الذي أسس مركزاً دينياً ومقراً ملكياً أطلق عليه اسم "كار-توكولتي-نينورتا" (أي "ميناء توكولتي-نينورتا"، وتُعرف حالياً باسم "تلول العقار") على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، على بعد ثلاثة كيلومترات فقط من مدينة "آشور" باتجاه المنبع. وتشير عدة نقوش ملكية

إلى عملية بناء المدينة الجديدة إذ يذكر أحد النصوص ما يلي:

"في ذلك الوقت، أبدى الإله " آشور إبن أنليل " سيدي رغبته في إقامة مدينة عظيمة مقابل مدينتي ، وأمرني ببناء مقدسه . وبجوار "مقر إقامة" الآلهة المتواجدة بين الجبال الثلاثة في عين سفني ، شيدتُ مدينة كبيرة لتكون مقراً ملكياً لي ، وأطلقتُ عليها اسم "كار–توكولتي–نينورتا" . وأنجزتُ فيها معابد مخصصة للآلهة العظام سادتي ، آدي وشيشمس وشيسن ونوسكو وسيبتي ، كما شققتُ "قناة العدل" على نطاق واسع وأجريتُ مياهها نحو الأماكن المقدسة وتختتم رواية البناء هذه بالإشارة إلى تشييد القصر وسور المدينة . كانت مدينة "كالح" (تل نمرود) التي تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، على بعد حوالي 8 كيلومترات من نقطة التقائه بنهر الزاب الكبير باتجاه المنبع أول موقع من بين ثلاثة مواقع تعاقبت لتكون عواصم لملوك الدولة الآشورية الحديثة. ويذكر الملك "آشور ناصربال الثاني" (883–859 ق.م) أنه وجد "كالح" وهي مدينة قديمة في حالة خراب ، فقام بالبناء فيها على مدى خمسة عشر عاماً وجعلها المقر الملكي الجديد والمركز الإداري للإمبراطورية الآشورية الآخذة في التوسع . غطت المدينة الجديدة مساحة تبلغ حوالي 360 هكتاراً ، وضمت قصراً وتسعة معابد وسوراً للمدينة ، كما زُوِّدت بمياه الري على غرار مدينة "كار–توكولتي–نينورتا" .

ظلت "كالح" العاصمة الملكية لنحو 140 عاماً ، إلى أن قرر الملك "سرجون الثاني" (721–705 ق.م) تشييد عاصمة جديدة أطلق عليها اسم "دور–شاروكين" أي "قلعة سرجون" (وتُعرف اليوم باسم خورس آباد) على أرض بكر تبعد حوالي 50 كيلومتراً عن "كالح" . استمرت أعمال بناء المدينة في الفترة ما بين عامي 717 و706 ق.م وهي موثقة بشكل جيد في النقوش الملكية والمراسلات الرسمية ، بلغت مساحة المدينة حوالي 300 هكتار ، وقد خُططت وفقاً لمبادئ هندسية ، إلا أنها على الأرجح لم تكتمل قط ، إذ توفي سرجون بشكل مفاجئ في ساحة المعركة عام 705 ق.م ، ونقل ابنه "سنحاريب" العاصمة إلى نينوى .

وتُظهر النقوش مشاركة سرجون الشخصية في مراحل التخطيط والبناء ، واهتمامه البالغ بالمشاريع الزراعية إذ يصور نفسه كشخص مهتم باستصلاح السهوب غير المأهولة ، وزراعة الأراضي البور ، وإنشاء البساتين، واستغلال موارد مياه الينابيع ، وري الأراضي ، لقد كان فخوراً بشكل خاص بإنشاء حديقة ملكية تضم نباتات غريبة بالقرب من "دور–شاروكين" لقد أنشأتُ بجوارها أي المدينة الجديدة حديقةً عظيمةً تضاهي جبل أمانوس ، زُرعت فيها شتى أنواع الأشجار العطرية القادمة من بلاد "خاتي" (أي شمال سوريا) ، وكافة أشجار الفاكهة الجبلية لقد كان استقدام العينات النباتية وتوطينها في آشور تقليداً عريقاً ، يعود إلى عهد "تغلث–بلاسر الأول (1114–1076) كما قام

به أيضاً الملك "آشور–ناصربال الثاني" في مدينة "كالح" ، غير أنه في العهد السرجوني ظهر مفهوم جديد لـ "الحديقة" إذ لم تقتصر سماتها على النباتات والأشجار الغريبة فحسب ، بل شملت أيضاً تعديل المشهد الطبيعي عبر إنشاء البرك والتلال الاصطناعية التي يعلوها نوع خاص من الأجنحة (أو الأكشاك) المخصصة للراحة . وقد وصف جميع الملوك السرجونيين حدائقهم بالطريقة ذاتها ، مشبّهين إياها بجبل أمانوس ، حيث جرت العادة أن يقطع الملوك الآشوريون أشجار الأرز وغيرها من الأشجار النادرة . وقد صُوِّرت إحدى هذه الحدائق على الألواح الحجرية التي تكسو جدران القصر الملكي في "دور–شاروكين" ..

قرر سنحاريب (704–681 ق.م.) تحويل مدينة نينوى القديمة إلى عاصمته الجديدة . فبنى سوراً مزدوجاً بطول 12 كيلومتراً ، يتألف من جزء داخلي وآخر خارجي ، بعرض 15 متراً تقريباً وارتفاع 24 متراً على الأقل (فرام 1997: 98–100) ، وأحاطه خندق بعرض 70 متراً وعمق 10 أمتار . كما بنى قصراً جديداً على تل كونجي ، ومستودعاً للأسلحة على تل نبي يونس . وزادت مساحة المدينة من 150 إلى 750 هكتاراً ، وبافتراض كثافة سكانية معقولة تبلغ 100 نسمة لكل هكتار، قد يصل عدد سكان المدينة إلى 75,000 نسمة . وهكذا تحولت المدينة إلى مدينة عصرية مزدهرة . من المحتمل أن تُظهر لوحة جدارية مجزأة الركن الجنوبي الغربي لمدينة نينوى (كما يُرى من الغرب) ، وتُظهر سوراً مزدوجاً للمدينة ببوابتين ، وخندقاً محاطاً بالأشجار على اليمين ، وتحصيناً خارجياً مع مجرى مائي آخر ، ونهر دجلة أو قناة رئيسية صالحة للملاحة ، سيتم وصف مشروع الهندسة الهيدروليكية المذهل الذي بُدئ لتزويد نينوى بالمياه بالتفصيل خاصة ان الهندسة المائية وصلت أعلى مراحل تألقها في المملكة السومرية المتحدة في العهد الآشوري .

يُعد تخطيط وبناء المباني الضخمة أحد الأنشطة الرئيسية التي اشتهر بها الملك الآشوري . وبفضل سجلات البناء في النقوش الملكية ، لدينا معلومات وافية نسبياً حول تشييد القصور والمعابد والمنشآت الدفاعية . فقد كُتبت التقارير المتعلقة بهذه الأعمال بمناسبة بناء مبانٍ جديدة ، أو عند إجراء إصلاحات وتوسعات لهياكل قائمة ، وذلك بهدف تخليد اسم الملك . كان الملوك الآشوريون يسعون دائماً لبناء قصور تفوق في حجمها قصور أسلافهم ، فعلى سبيل المثال ، امتد مبنى الترسانة الخاص بالملك شلمنصر الثالث في مدينة "كالح" على مساحة تبلغ 250 في 350 متراً ، بينما شُيِّد قصر سرجون في "دور شروكين" فوق منصة مرتفعة (بارتفاع 12 متراً) وبأبعاد بلغت 290 في 290 متراً، أما قصر سنحاريب الملقب بـ "القصر الذي لا نظير له" والواقع في الجزء الجنوبي الغربي من تل "كونجي" فقد بُني على منصة واسعة (بأبعاد 503 في 242 متراً) غطت مساحة 12 هكتاراً. ورغم أنه لم يُنقَّب سوى عن 30 في المائة من مساحته الإجمالية (198 في 190 متراً) وعن حوالي 50 في المائة من مساحة البناء الفعلية ، إلا أنه

أمكن تحديد معالم أكثر من سبعين غرفة . تطلبت عمليات إنشاء الأساسات والمنصات والجدران تخطيطاً دقيقاً نظراً للكميات الهائلة من المواد والأيدي العاملة اللازمة لتنفيذها . وقد واجه "المهندسون" الآشوريون تحدياً يتمثل في تسقيف القاعات الكبيرة ، إذ لم يكن متاحاً لديهم سوى العوارض الخشبية؛ وشكّل ذلك قيداً كبيراً عند تصميم القاعات المخصصة للمراسم والاستقبال ، حيث كانت الأبعاد الضخمة ممكنة فقط من حيث الطول . ومن المسائل التقنية الأخرى التي تطلبت حلولاً مدروسة بعناية توفير الإضاءة داخل الغرف ، وتصميم أنظمة تصريف المياه في الساحات وعلى الأسطح ، وكذلك شبكات الصرف الصحي الخاصة بالمراحيض .

تُشير الأدلة التاريخية والأثرية إلى وجود منشآت مائية في الشرق الأدنى عبر كافة العصور والمناطق الجغرافية. ومن أبرز المشاريع الهندسية في هذا المجال تلك المنشآت المائية الآشورية التي أُنشئت بدءاً من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، سواء بالتزامن مع تأسيس مقرات ملكية جديدة (مثل "كار-توكولتي-نينورتا" و"دور-شاروكين") أو عند إعادة تخطيط مدن قائمة بالفعل (مثل "أربائيل" و"آشور" و"كالخو" و"نينوى"). وباستثناء السهول البابلية المنخفضة، تعذّر تحويل مياه نهر دجلة أو استغلالها مباشرةً؛ نظراً للفارق في المنسوب بين مجرى النهر وضفافه، فضلاً عن تذبذب مستويات المياه. ولذا، جرى تحويل المياه من أنهار أخرى، أو استغلال الموارد المائية في المناطق الجبلية الواقعة شمالاً وشرقاً، ونقلها لمسافات بعيدة لتصل إلى المدن المستفيدة منها.

لم تكن الحدود الفاصلة بين منطقة الزراعة البعلية (التي تعتمد على مياه الأمطار) والمناطق القاحلة التي تتطلب الري مجرد خط فاصل، بل كانت عبارة عن نطاق عريض يمتد لمسافة 400 كيلومتر، ويقع بين خطي تساوي المطر (isohyets) بمعدل 100 ملم و400 ملم. وفي آشور – ولا سيما في أجزائها الجنوبية – كانت فترات الجفاف كثيراً ما تهدد نجاح الزراعة البعلية؛ مما جعل الري أمراً ضرورياً لضمان المحاصيل وزيادة الإنتاجية. ولهذا السبب، أقدم الملوك الآشوريون على تنفيذ مشاريع للري بالقرب من عواصمهم التي كانت تشهد كثافة سكانية عالية (Bagg 2000b: 309). وقد خُصصت مياه الري في المقام الأول لزراعة الحقول والبساتين، إلا أنها استُخدمت أيضاً لري الحدائق والمتنزهات الملكية الفاخرة التي ميزت المشهد العمراني لعواصم العصر الآشوري الحديث. في تقرير يتناول توسعة مدينة "كالحو" (Kalḫu)، يشير الملك "آشور ناصربال الثاني" صراحةً إلى أعمال الري قائلاً: "لقد شققتُ قناةً من نهر الزاب الأعلى، مخترقاً جبلاً عند قمته، وأطلقتُ عليها اسم 'قناة الوفرة'. ورويتُ المروج الممتدة على طول نهر دجلة، وزرعتُ البساتين بمختلف أنواع أشجار الفاكهة في محيطها. كما عصرتُ النبيذ وقدمتُ باكورة الثمار للإله 'آشور'، سيدي، ولمعابد بلادي" (Grayson 1991: 290, 36–41). ويستمر النص بسرد قائمة تضم إحدى وأربعين شجرة غريبة (أو نادرة)، ووصفٍ شاعري لحديقةٍ غنية بالمياه. ومن المرجح أن هذه الحديقة

الملكية كانت تقع على مقربة من "المدينة العليا" في "كالحو"، وتحديداً عند طرفها الجنوبي الغربي؛ إذ يذكر "آشور ناصربال" أن ري الحقول المحاذية لنهر دجلة كان السبب وراء إنشاء تلك القناة التي أتاحت زراعة العديد من أشجار الفاكهة . ورغم أن مساحة المنطقة المروية غير معروفة ، إلا أن التقدير المنطقي يشير إلى أنها ربما بلغت 2500 هكتار ، ومن الواقعي افتراض أن المنطقة لم تكن مزروعة بالكامل بأشجار الفاكهة ، بل إن جزءاً منها (وربما الجزء الأكبر) كان مخصصاً لزراعة الشعير ، وقد ساهم الري في زيادة غلة المحاصيل وتقليل مخاطر فشل الحصاد .

ولا يزال من الممكن تتبع مسار القناة كقناة محفورة في الصخر على طول الضفة اليمنى لنهر الزاب الكبير لمسافة تقارب 8 كيلومترات ، بدءاً من مدينة "كَوير" الحديثة ووصولاً إلى نقطة تقع على بعد حوالي 5 كيلومترات قبل التقاء النهر بنهر دجلة ، حيث تتجه القناة من الشمال الغربي نحو الجنوب الغربي باتجاه مدينة "كالح" في مرحلة ما من تاريخها ، كانت القناة تُغذى عبر نفق محفور في الصخر يُعرف باسم نفق "ناغوب" والذي يخترق مرتفعاً صخرياً مكوناً من صخور التكتل (الكونجلوميرات) الخشنة على الضفة اليمنى لنهر الزاب الكبير . وتوثق نقوش عُثر عليها في موقعها الأصلي أعمال ترميم أجراها الملك "أسرحدون" (680–669 ق.م) بعد مائتي عام ، وذلك عندما كان النفق قد امتلأ بالرسوبيات ويُعد مشروع الري الذي أنجزه "آشور ناصربال" دليلاً على براعة الآشوريين ، إذ تمكنوا من حفر قطاع من القناة بطول 10 كيلومترات في أرض صخرية صلبة، وشق مسافة 8 كيلومترات أخرى داخل الصخر ، واختيار موقع مناسب لمأخذ القناة ، وإتقان تقنيات التسوية اللازمة .

ولتزويد عاصمته "نينوى" التي أعاد تخطيطها وتطويرها وضواحيها بالمياه ، نفذ الملك "سنحاريب" أضخم مشروع هندسي مائي في عصره ، حيث كانت أربع منظومات من القنوات يبلغ مجموع أطوالها أكثر من 150 كيلومتراً تتدفق نحو المدينة من اتجاهات مختلفة . تمثلت هذه المنشآت في قنوات ومجاري مائية وأنفاق وقناطر مائية وسدود تحويلية ، شُيدت جميعها في الفترة ما بين عامي 702 و688 قبل الميلاد ، وشكلت بلا شك تحدياً كبيراً أمام "المهندسين" الآشوريين المتخصصين في الأعمال الهيدروليكية . وتُظهر النقوش الملكية والنقوش البارزة في القصور اهتمام الملك سنحاريب بالجوانب التقنية والابتكارات المتعلقة بنقل الأحمال الثقيلة ، والحصول على مواد جديدة وعلم الفلزات ، فضلاً عن أجهزة رفع المياه والهندسة المائية ، وغيرها من المجالات. ورغم أن الحلول التقنية لم تكن بالتأكيد من بنات أفكار الملك نفسه ، بل جاءت من طاقمه الفني ، إلا أن تلك المشاريع ما كانت لتتحقق لولا مشاركته الشخصية ، فعلى سبيل المثال، جُمعت مياه الينابيع القادمة من جبال تبعد 20 كيلومتراً في خزانات ، ثم وُجّهت عبر قنوات لتصب في وادٍ كان يصب بدوره في نهر "خوسر" ، وهو النهر الذي يجري باتجاه مدينة نينوى

وعبرها . ولتحديد مواقع مصادر المياه الجديدة هذه ، توجه الملك بنفسه إلى تلك المنطقة ، ترافقه بلا شك طواقمه الفنية ، وهو ما يمكن اعتباره "حملة تقنية" ..

في عام 688 قبل الميلاد ، نُفِّذت المرحلة الأخيرة من مشروع سنحاريب المائي ، فعلى بعد حوالي 50 كيلومتراً شمال نينوى ، أُقيم سد على نهر "أتروش/غومل" ، عند مضيق يقع شمال قرية "خينيس" الحديثة، وذلك لتغذية قناة تبدأ من تلك النقطة . وقد زُيّن مدخل القناة الذي يُعد تحفة فنية في الهندسة المائية الآشورية بنقوش صخرية ضخمة وكتل منحوتة ، وتألف من سد ، ومنشآت لسحب المياه ، وقسم من القناة يمتد لمسافة 300 متر ومزود بجدار حجري ساند ، ونفق محفور في الصخر ، ومن هذا النفق ، وُجِّهت المياه المحوَّلة عبر قناة محفورة في الصخر إلى قناة رئيسية ، يبلغ طولها 35 كيلومتراً ، لتصب في أحد روافد نهر "الخوصر" . وفي منتصف المسافة ، شُيِّد جسر مائي (قنطرة) باستخدام أكثر من مائتي ألف كتلة من الحجر الجيري للسماح بعبور وادٍ يقع بجوار قرية "جروان"حيث بلغ طول الجسر 280 متراً ، وعرضه 22 متراً ، وارتفعت القناة المائية سبعة أمتار فوق الأساسات ..

وامتدت خمس قناطر ذات عقود ناتئة فوق الوادي كما طُلي قاع القناة بعناية بمادة لاصقة وتحكي نقوش مختلفة حُفرت على الكتل الحجرية قصة هذا المشروع وتُعرِّف ببانيه ..

"سنحاريب ، ملك العالم ، ملك آشور . لقد أمرتُ بحفر قناة تمتد لمسافة طويلة

من نهر "خازر" إلى ضواحي نينوى . وشيَّدتُ جسراً مائياً من الكتل الحجرية

فوق الوديان العميقة ، وجعلتُ المياه تجري فوقه ، لقد نال "المهندسون" الآشوريون –الذين أتقنوا تلبية وتنفيذ رغبات ملكٍ كان يميل نحو الابتكارات التقنية– التقدير والمكافأة في هذه الحالة ، إذ كتب الملك الممتن قائلاً :

"أولئك الرجال الذين حفروا هذه القناة ، ألبستهم ملابس من الكتان وأثواباً ملونة [...] ووضعتُ عليهم خواتم ذهبية ، وقلائد ذهبية تزين الصدور ، السطران لم يكتفِ سنحاريب ببناء أول قناة مائية مشيدة من الحجارة المنحوتة (الآشلار) في "جروان"، بل شيد قناة ثانية في نينوى أيضاً، كما تؤكد ذلك النصوص وفي هذا السياق ، تجدر الإشارة إلى لوح حجري عُثر عليه في قصر آشوربانيبال في المدينة نفسها (الشكل 25.2) إذ تُظهر الحديقة المروية المصوَّرة عليه كافة عناصر الحدائق الملكية الآشورية ، وهي : التل ، والجناح (الكشك) وأنواع مختلفة من الأشجار . وتُروى الحديقة في هذه الحالة بواسطة قناة مائية تشبه إلى حد كبير قناة "جروان" في هيئتها، لكنها تمثل على الأرجح القناة الأخرى الموجودة في نينوى أو بالقرب منها ، والتي ورد ذكرها في النصوص .

لقد أدّت أنواع أخرى من المنشآت التي عادةً ما تكون خفية عن الأنظار ، ولا سيما شبكات تصريف المياه في المباني وظائف بالغة الأهمية أيضاً ، وإن كانت لا تضاهي المنشآت المائية المذكورة آنفاً من حيث الحجم . فبعد وصفه لمشاريع البناء في عاصمته الجديدة "كالح" حذّر آشور ناصربال الثاني الحكام المستقبليين من إهمال صيانة قصره الجديد وذلك في إحدى نقوشه الملكية قائلاً : "عليه ألا يقتلع أنابيب التصريف الخاصة به ، وألا يسدّ مخارج فوهات التصريف ..

استناداً إلى الأدلة الأثرية ، يمكن تصنيف أنظمة الصرف الصحي إلى أربع مجموعات

1) القنوات الحجرية (وهي منشآت أفقية ، مفتوحة أو مغلقة ، مصنوعة من الحجر الطبيعي ، وعادة ما تكون من الحجر الجيري أو البازلت أو الحجر الرملي) ..

2) القنوات الطوبية (منشآت أفقية مغلقة مصنوعة من طوب الطين المحروق) ..

3) الأنابيب الفخارية (منشآت عادة ما تكون أفقية ، وإن كانت عمودية أحياناً ، وتُصنع من الطين ولها جسم أجوف أسطواني أو نصف أسطواني) ..

4) حفر التجميع أو الآبار الامتصاصية (منشآت عمودية تتكون في الغالب من حلقات طينية مرصوصة فوق بعضها البعض داخل حفرة محفورة في الأرض) . وقد أتاحت هذه المنشآت تصريف المياه من الساحات والأسطح والمراحيض في المعابد والقصور ، وكذلك في المنازل الخاصة . استُخدمت حفر التجميع للتخلص من مياه الصرف الصحي المنزلية ، كما تظهر المكتشفات في الأحياء السكنية بمدينة آشور . كما مُدّت شبكات الصرف الرئيسية في الشوارع لتجميع وتصريف المياه العادمة القادمة من المباني المجاورة ، فعلى سبيل المثال ، ظل نظام الصرف الرئيسي الخاص بمعبد "آشور" في المدينة قيد الاستخدام لعدة قرون خلال الألفية الثانية قبل الميلاد . تميز هذا النظام بوجود أقسام متنوعة ، وكان واسعاً بما يكفي لسير إنسان بداخله ، كما بُني سقفه المقوس من الطوب المحروق . ويبلغ طول أحد هذه الأقسام ، على سبيل المثال ، 12 متراً وعرضه 1.80 متراً وارتفاعه مترين ، ويتميز بسقف مقوس (على شكل قبو برميلي) مبني من الطوب . وتتيح لنا قطع الطوب التي تحمل أختاماً ملكية ربط هذا العمل بالملك "أداد-نيراري الأول"، الذي حكم في مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد ..

تشير المصادر الآشورية إلى وجود نوعين من الجسور : الجسور المؤقتة والجسور الدائمة ، كانت معظم الجسور عبارة عن منشآت مؤقتة تُبنى أثناء الحملات العسكرية ، إذ كان يتوجب عبور أنهار واسعة وعميقة غالباً في أوقات ذروة منسوب المياه مما استدعى وضع مسألة نقل القوات في الحسبان منذ مراحل التخطيط للحملات . ومن الناحية الاستراتيجية ، كان من الضروري معرفة المواد المتاحة في الموقع وتلك التي يجب جلبها مع الجيش . وكان الحل الأسهل يتمثل في بناء منصة أو طوافة من جذوع الأشجار . يذكر الملك "تغلث-بلاسر الأول" أنه قطع الأشجار خلال حملة ضد بلاد "نايري" (وهي منطقة تقع شمال جبال طوروس ونهر مراد-صو وشيّد جسوراً) يُطلق عليها تتارو لتمكين قواته وعرباته من عبور نهر الفرات كما عبر الملك "آشور-ناصربال الثاني" نهر دجلة بواسطة جسر مصنوع من جذوع الأشجار ، وقد استُخدم في هذه الحالة مصطلح رقصو للإشارة إلى الجسر المتحرك ، وهي كلمة تعني في الأصل "المربوط" أو "المُجمَّع"، ويمكن تفسيرها في هذا السياق على أنها نوع من الطوافات . وتظهر صور لجسور عائمة (جسور طوافات) على شرائح برونزية عُثر عليها في "بلاوات" ، وتعود إلى عهد الملك "شلمنصر الثالث" (858–824 ق.م) فخلال حملة عسكرية في أرمينيا ، عبرت القوات الآشورية نهراً بمساعدة "جسر عائم" (أو جسر سباحة) ، وهو عبارة عن منصة خشبية محمولة فوق قرب جلدية منفوخة تُعرف بمشكو أو دوشو ..

وعلى النقيض من الجسور المؤقتة ، عُرف وجود جسور دائمة مبنية من الحجارة المنحوتة (الآشلار) أو البناء الحجري ، وهو ما تؤكده المصادر المكتوبة والأدلة الأثرية على حد سواء . وقد وُجدت جسور حجرية في مدينتين آشورتين ففي عاصمته الجديدة "دور-شروكين" ، شيّد الملك "سرجون الثاني" جسراً حجرياً يربط بين مصطبة القصر ومعبد الإله "نابو". كان عرض الجسر 3,7 متراً ، وارتفاعه يزيد عن 5 أمتار، وكان يرتكز على قنطرة مدببة ، كان الخشب شحيحاً في آشور ولكنه كان عنصراً لا غنى عنه لتسقيف المباني وتشييد البوابات ، ولذا كانت عملية الحصول عليه ونقله تشكل تحدياً خاصاً . فعلى سبيل المثال ، كان لا بد من جلب خشب الأرز من مناطق نائية ، وهي عملية كانت تتم غالباً أثناء الحملات العسكرية . كانت جذوع الأشجار تُنقل أولاً براً من الغابة إلى النهر ، ثم تُشحن أو تُنقل عبر أطواف مائية إلى وجهتها النهائية . وقد ورد ذكر نقل الخشب عبر المياه في عدة مواضع ضمن مراسلات الملك سرجون الثاني ، حيث أُشير من بين أمور أخرى إلى مشكلات الملاحة التي كانت تبطئ عمليات التسليم أو تعيقها وتظهر طريقة أخرى للنقل في نقش جداري من قصر سرجون في مدينة "دور-شاروكين" ، إذ تُصوَّر بعض الجذوع مكدسة على متن سفينة، بينما تُنقل أخرى بواسطة أطواف مربوطة بحبال عند مؤخرة السفينة . ولا تزال مسألة ما إذا كان هذا النقل بحرياً في البحر الأبيض المتوسط أم نهرياً محل نقاش . وعلى أية حال ، فإن إدراج مثل هذا المشهد ضمن البرنامج البصري المصوَّر على جدران القصر يعكس الأهمية التي كان يوليها المعاصرون لسرجون

لهذا الإنجاز التقني . كما تشير المصادر المكتوبة والنقوش البارزة إلى نقل مكونات بنائية أخرى مثل الألواح الحجرية وعتبات الأبواب ، ودرجات السلالم عبر المياه لقد تمثّل التحدي الأكبر في نقل الأحمال الثقيلة في تماثيل الثيران الآشورية العملاقة (الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية) التي كانت تحرس مداخل القاعات الرئيسية في القصور الآشورية . صُنعت هذه الكائنات الحارسة التي يصل ارتفاعها إلى 6 أمتار ووزنها إلى أربعين أو خمسين طناً من كتل حجرية ضخمة ومفردة . ونظراً لأن المحاجر كانت تقع على بعد عدة كيلومترات في اتجاه المنبع بالنسبة لمدينة نينوى والعواصم الآشورية الأخرى ، فقد كان بالإمكان نقل الكتل الحجرية إلى وجهاتها النهائية إما عبر المياه أو براً . حتى عهد سنحاريب ، كانت الكتل الحجرية تُستخرج من محجر يُدعى "تاستياتي" يقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة ونظراً لأن جميع الوجهات المحتملة لنقل هذه الحجارة كانت تقع على الضفة اليسرى ، فقد كان النقل المائي أمراً لا مفر منه . وتكشف لنا الرسائل الرسمية التي تعود لعهد سرجون الثاني عن المتاعب والمخاطر المرتبطة بعمليات نقل الحجارة ومن بين أمور أخرى ، تُخبرنا النصوص بأن السفن والقوارب لم تكن قادرة في بعض الحالات على تحمل الأوزان الثقيلة ، مما أدى إلى غرقها ، وقد أدرك سنحاريب ، ابن سرجون ، سلبيات النقل النهري وسعى لإيجاد حل أفضل يتمثل في فتح محجر جديد على الضفة اليسرى . ويصف سنحاريب أساليب النقل المائي المعقدة التي اتبعها أسلافه قائلاً : "لقد استخرجوا تماثيل الثيران الضخمة المصنوعة من الحجر الجيري الأبيض من محجر"تاستياتي "الواقع على الضفة المقابلة لنهر دجلة لتكون دعامات لمداخل قصورهم (أي القصور الجديدة) . ولأجل بناء القوارب ، قاموا (أي العمال) بقطع أشجار ضخمة من الغابات المنتشرة في أرجاء بلادهم . وفي شهر 'أجارو' (أبريل/مايو) وتزامناً مع فيضانات الربيع ، قاموا (أي العمال) بجهد شاق بنقلها إلى هذا الجانب على متن أطواف ضخمة . وأثناء عبورهم عند جدار الرصيف ، كانت القوارب الكبيرة تغرق . وكان أسلافي يُلزمون طواقم العمل (أي طواقم الأطواف) ببذل أقصى جهودهم وإجهاد أجسادهم فكانوا ينزلونها بصعوبة بالغة مستخدمين القوة وفي ظل ظروف قاسية للغاية ويضعونها عند مداخل القصور" ، نُقلت تماثيل الثيران الضخمة برّاً من المحجر الجديد الذي كان يُدعى "بالاتاي" وهي طريقة كانت بلا شك أكثر أماناً ، وإن لم تكن أقل مشقةً وقد زُيّنت الجدران الشمالية والشرقية للفناء السادس في قصر سنحاريب الجنوبي الغربي في نينوى بسلسلة من النقوش البارزة التي تصور عملية نقل تمثال واحد أو أكثر من تماثيل الثيران الضخمة ، تبدأ السلسلة بصورة للمحجر ، حيث يظهر النحاتون وقد شرعوا بالفعل في تشكيل الكتلة الحجرية . ثم يُنقل التمثال الضخم على زلاجة يجرها أربع مجموعات من العمال ، إذ يتولى مشرفون يقفون أمام هذه المجموعات تنسيق العملية بأكملها ، بينما يقوم آخرون "بتحفيز" العمال باستخدام السياط . وهناك أربعة مشرفين آخرين يقفون فوق الكتلة الحجرية لتفقد سير العمل ، ويحمل أحدهم بوقاً للتوجيه (مكبر صوت

بدائي) ، في حين تتولى مجموعة خامسة من العمال، في المؤخرة ، الحفاظ على توازن الزلاجة واستوائها ويراقب سنحاريب نفسه عملية النقل من موقع مرتفع . وتتم عملية تحريك الزلاجة بسلاسة أكبر بفضل ألواح خشبية أو أسطوانات دحرجة يضعها العمال تحت مقدمة الزلاجة . إن تصوير مثل هذه العمليات الفنية والهندسية لا يبرز اهتمام سنحاريب بالجوانب التقنية فحسب ، بل يعكس أيضاً تقديره لإنجازات "مهندسيه".

تشمل مصادر المعلومات حول كيفية خوض الآشوريين للحروب نصوصاً مسمارية متنوعة مدونة على المعادن الثمينة وعلى الروبين واللازورد الخالصين ومنقوشة بطريقة يعدز العلم حتى يومنا هذا عن تفسيره فقد كانت تنقش بإسلوب الرصاص الموجه بالأشعة وهي آلية عجيبة حيث كان القلم يشع بخط من الليزر ويوجه للأحجار الكريمة والمادة المستخدمة في النقوس لا تتأثر بالظروف المناخية حتى لو تحطم الكوكب فهذه النقوش لا تذوب بأعلى درجات الانفجار أو الحريق وبقي تفسير آلياتها عاجزاً الى اليوم وادعى البريطانيون انها الواح من طين عمرها خمسة الاف عام والعقل لا يتقبل هذا النوع من الادعاءات ، وألواحاً حجرية ذات نقوش بارزة منخفضة على الغرانيت الخالص ، وأختاماً أسطوانية على معادن لم يتم معرفة طبيعتها الى اليوم ، ومواد أثرية متنوعة أخرى تم الكشف عنها في الحفريات . وتتوزع هذه المصادر بشكل متفاوت عبر الزمن ، فقبل ظهور الألواح الجدارية الكبيرة ذات النقوش البارزة في القصور خلال القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، كانت النصوص والتمثيلات التصويرية شحيحة – بل تكاد تكون معدومة في الألفية الثالثة (العصر البرونزي المبكر) ونادرة في الألفية الثانية (العصرين البرونزيين الأوسط والمتأخر). وحتى مرحلة التطور الكامل لاستخدام العربات الحربية وفنون الفروسية في منتصف الألفية الثانية ، فإننا نعتمد على إشارات متفرقة وردت في مراسلات المسؤولين ..

وقد عُثر على هذه النصوص بشكل رئيسي في مواقع : "ماري" على الفرات الأوسط ، و"تل الرماح" غرب نينوى و"شمشارة" شرق نهر دجلة . وتُظهر تلك النصوص التي يعود الكثير منها إلى عهد الملك الآشوري "شمشي–أداد الأول" (حوالي 1808–1776 ق.م) أن المشاة ، الذين شكلوا عماد القوات المقاتلة ، كانوا يُجنّدون ويُجهّزون على أساس محلي ، وكان يتم تعزيز ولائهم من خلال مراسم "تبيبتم وهي طقوس تضمنت ممارسة سحر تعاطفي وأداء قسم الولاء ، وتناول طعام يُعتقد أنه سيجلب الضرر لمن يحنث بالقسم . وكان التجنيد مرتبطاً جزئياً بواجب "إلكوم الذي قد يشمل مهاماً غير عسكرية وجزئياً بالاستعانة بشعوب شبه رحّل على أساس موسمي وكانت العديد من الأسلحة في ذلك الوقت مستمدة من أدوات الصيد (مثل القوس والسهام والشباك) والزراعة ، وكان السلاح الرئيسي هو الرمح ، ويُسمى "شوكروم وهي كلمة استُخدمت أيضاً للدلالة على الخدمة العسكرية . كانت الوحدات العسكرية تتألف من مجموعات من العشرات والمئات ، وتشير الرسائل التي يُمكن اعتبارها موثوقة تقريباً إلى أن أعداد

المشاركين في حملات عسكرية محددة كانت تُقدّر بالآلاف، وأحياناً بعشرات الآلاف ، كما عقد الملوك تحالفات عسكرية عززوها بأداء الأقسام ، وغالباً ما كانت تلك التحالفات قصيرة الأمد ، فقد اشتكى الملك "شمشي–أداد الأول" من أن حاكم "أحازوم" الذي وصفه بالمجنون قد نقض عهوده مع خمسة ملوك في تتابع سريع .

ونظراً لكون المدن مراكز لتخزين الموارد في ظل اقتصاد يعتمد بشكل كبير على إعادة توزيع السلع عبر القسيمة الغذائية (البطاقة التموينية) ، فقد كانت بحاجة إلى الحماية من الهجمات . لذا ، شُيدت المعابد والقصور في أعلى نقطة داخل القلعة ، وأحيطت بجدار واحد أو جدارين متداخلين من الطوب اللبن . ووفرت الأبراج الموزعة على مسافات متفاوتة على طول الأسوار نقاط مراقبة مفيدة وميزة استراتيجية عند التعرض للهجوم ، كما شكلت الخنادق المائية عائقاً أمام نصب السلالم واستخدام كباش الدك ضد أسوار المدينة . وكان بإمكان الحصون العسكرية (المعروفة باسم "بيرتوم" توفير تعزيزات للقوات المحاصرة . كما حظيت التجارة الخارجية بدعم المعاهدات ، وربما أيضاً بفرق حماية عسكرية (مثل "موشاليموم" و"تاقريباتوم" والتلويح باستخدام القوة . وكثيراً ما كان العرافون سواء كانوا يعملون في مراكز ثابتة أو يرافقون الحملات العسكرية يستشيرون الإلهين "شيشمش" و"أداي" لمعرفة ما إذا كانت المدينة على سبيل المثال في مأمن من الهجوم وكان يطلق عليهم ايضاً كلمة الكوجكين .

سمحت إشارات الحريق بالتواصل السريع في الطقس الصافي . كان الجيش بقيادة إلهين ، يُفترض أنهما مُمثلان برايات نيرغال " ايزيد " و "آدي " ، على يمين الملك ويساره ، وهي ممارسة استمرت حتى العصر الآشوري الحديث (دوراند بعد انقطاع دام عدة قرون (حوالي 1700–1400 قبل الميلاد) تفتقر المعلومات عنها ، يظهر تغيير كبير في أساليب الحرب ، سواء من النقوش أو المنحوتات. نظراً للتكلفة والخبرة اللازمتين ، تحولت البراعة العسكرية إلى مهنة نخبوية مدعومة بمهارات متخصصة في تدريب الخيول والنجارة . منذ ذلك الوقت فصاعداً تطورت الدروع المعدنية وخاصة الدروع الحرشفية المكونة من صفائح برونزية متداخلة مخيطة على دعامة من الجلد . التفاصيل الواردة في النصوص قليلة ولكن يمكن افتراض تزايد المركزية ، مما قد يؤدي إلى تشكيل جيش نظامي . وقد وُجد بالفعل "طريق ملكي ميران" يمتد غربًا من آشور ، وبناء منهجي للحصون لحراسة الطرق و تؤكد المسوحات والتنقيبات الأثرية أن هذه المواقع كانت تُستخدم لتزويد المسافرين والجنود بالمؤن . وقد تُعزى بعض التغييرات الملحوظة إلى تأثيرات أجنبية ..

كما أن استخدام اللقب العسكري الحوري "تورتانو" يشير إلى اعتماد هيكل قيادي جديد . وقد عملت بعض مجموعات الفرسان الشمسانيين وهم مهاجرون من مرتفعات غرب آشور استقروا في منطقة الفرات الأوسط كخبراء

في سلاح الخيالة وتُعد هذه أمثلة على كيفية استيعاب الآشوريين للخبرات من المناطق المحيطة بهم وإجراء نقلات في الوحدات العسكرية . لقد مكّن نظام حكام الأقاليم ملوك العصر الآشوري الأوسط من ادارة أراضٍ جديدة والسيطرة عليها ، إذ وفرت سياستهم القائمة على ترحيل أعداد كبيرة من الشعوب على أساس العطاء ، قوة عاملة لأعمال البناء والزراعة ، وجلبت مهارات تخصصية جديدة إلى آشور .

في مطلع الألفية الأولى (العصر الحديدي) ، ورث الجيش الآشوري الحديث عن أسلافه عقيدةً قتاليةً ترتكز على قوات النخبة من راكبي العربات الحربية ، ونظاماً لحكام الأقاليم يتولون حشد القوات المحلية ، والاعتماد على سياسة الترحيل الجماعي لتفكيك مراكز المقاومة . يتمثل التطوران الجديدان في الاستخدام التدريجي للحديد في صناعة الأسلحة والدروع ، وتزايد الاعتماد على سلاح الفرسان الذي حوّل دور العربات الحربية في نهاية المطاف إلى دور احتفالي في الغالب ، وربما بدأ ذلك منذ عهد سرجون الثاني . ويدّعي شلمنصر الثالث (858–824) أنه استولى عقب معركة قرقور في سوريا عام 853 على أعداد متساوية من العربات الحربية والخيالة من تحالف ضم دمشق وحماه ، في حين أن سرجون الثاني (721–705)، عند فتحه لمدينة كركميش ، ضم إلى فرقته الملكية خمسين عربة ومائتي فارس ، وتُستمد المعلومات من الألواح ذات النقوش البارزة الموجودة في القصور ، بدءاً من "القصر الشمالي الغربي" للملك آشور ناصربال الثاني في نمرود خلال القرن التاسع ، ووصولاً إلى نقوش "القصر الشمالي" للملك آشور بانيبال في نينوى في منتصف القرن السابع وكذلك من اللوحات الجدارية التي عُثر عليها في قصر الحاكم في تل برسيب (والتي تعود للفترة ما بين أواخر القرن الثامن ومنتصف القرن السابع قبل الميلاد) . وتُعرض تفاصيل دقيقة وشاملة لمشاهد المعارك ، والحصارات ، وجباية الجزية وأعمال السلب ، والعقوبات وأسر الجنود ، والأسلحة والدروع وهي تغطي مناطق عديدة ومتنوعة من الإمبراطورية . وتظهر تفاصيل مماثلة على الشرائح البرونزية التي تزين أبواب المعبد الكبير في تل بلا وهي مجموعتان تعود إحداهما لعهد آشور ناصربال الثاني والأخرى لعهد شلمنصر الثالث حيث تقدم أحياناً أنماطاً من المشاهد غير الموجودة على ألواح القصور . ويُرجح أن هذه المشاهد قد أبدعها فنانون متخصصون في تصوير الحروب كانوا يرافقون الجيش ..

أما النصوص الإدارية التي تعود غالبيتها إلى أواخر القرن الثامن والقرن السابع فتسجل تفاصيل الإمدادات والتموين بما في ذلك الرجال والحيوانات والأسلحة والدروع ، مع ذكر الأعداد والكميات أحياناً؛ وتشمل هذه النصوص قوائم بأسماء الرجال ذوي الرتب العسكرية ، وقوائم بالخيول ، وقوائم بأسماء كبار الشخصيات الحاضرة في الولائم الاحتفالية وقد سُجلت جميع هذه البيانات بالخط المسماري الآشوري على ألواح طينية، كما سُجلت في أواخر عهد الإمبراطورية باللغة الآرامية على ورق البردي والرقائق الجلدية وشقف الفخار (الأوستراكا) . تُظهر النقوش البارزة نوعي الكَتَبة

وهما يقفان جنباً إلى جنب . وتكشف المراسلات الرسمية التي تكثر بشكل خاص في عهد سرجون الثاني عن تفاصيل تتعلق بالتنظيم الإداري . كما تُعد قائمة الشهود ذوي المهن العسكرية ، الواردة في النصوص القانونية مرتبةً حسب الرتبة، مصدراً ذا أهمية خاصة ، إذ توجد نصوص لاستشارات العرافة التي كانت تُطرح طلباً للتوجيه بشأن توقيت الحملات العسكرية وكيفية تنفيذها تعود لعهدي أسرحدون وآشوربانيبال ، وهي تمثل تقليداً مستمداً من نصوص سابقة مماثلة ، حيث كانت هذه الاستشارات تُوجَّه إلى إله الشمس "شي شمس" بالتزامن مع تقديم أضحية من كبش ، وذلك وفق صيغ محددة .

كانت المعاهدات المبرمة مع الملوك التابعين أو الخاضعين للنفوذ الآشوري تُصاغ وفقاً لظروف محددة . ففي حالة المدن الفينيقية ، اعتمدت آشور على إقامة علاقات جيدة معها نظراً لحاجتها إلى بناة سفن مهرة ولضمان الوصول إلى طرق التجارة في شرق البحر الأبيض المتوسط إذ كلف سنحاريب الفينيقيين ببناء سفن على نهر الفرات لاستخدامها في حملاته العسكرية داخل أهوار جنوب بابل بالإضافة الى الديانة الشمسانية التي كانت تجمعهما معاً. وتتضمن الحوليات الملكية تفاصيل عن مسارات الحملات وقوائم بالجزية المستوفاة ، وهي معلومات مستمدة من السجلات الإدارية ، كما تساهم الرسائل الملكية التي كُتبت كتقارير عن حملات محددة ووُجّهت إلى الآلهة في تكوين صورة أكثر شمولاً وتفصيلاً عما كان متاحاً للفترات السابقة .

أتاحت شبكة من الطرق عُرف بعضها باسم "الطرق الملكية"عمليات التواصل عبر خدمة البريد الملكي السريع باستخدام البغال ، مع الاعتماد على محطات استراحة مخصصة تُعرف بـ بيت مريد ، وكان المسؤول عن هذه الخدمة يحمل لقب كاروان ، يعتمد فهمنا لهيكل الجيش ووحداته على مدى دقة تفسيرنا للمصطلحات والرموز الكتابية (اللوغوجرامات) الدالة على المهن والوظائف . فقد ينطبق مصطلحان في آن واحد على شخص واحد كانت مهامه مرنة ومتنوعة ، كما استُخدمت أحياناً كلمات من اللهجة الآشورية كبدائل لنظيراتها البابلية ، فضلاً عن أن التفسيرات الاشتقاقية الحرفية التي قد تُقبل ظاهرياً في البداية– تخضع أحياناً للتعديل في ضوء سياقات أكثر وضوحاً . ولهذه الأسباب ، أُدرجت الكلمات والرموز الكتابية ذات الصلة حيثما كان ذلك مناسباً ..

يُعتقد أن مصطلح "وحدة الملك" يشير إلى الجيش النظامي الدائم . وقد تتألف وحدة الـ قيصرو من 1000 جندي ، أو تكون وحدة فرعية ، لكنها تتبع دائماً نظاماً عشرياً في التقسيم . شكّل المشاة زكو العمود الفقري للجيش حيث جرى تجنيدهم عبر نظام علكو الذي طُبّق في كل من الأراضي المركزية والأقاليم التابعة ، إذ كان لزاماً على الجميع أداء الخدمة ربما بشكل موسمي سواء في الأعمال المدنية أو في الجيش ، أو توفير بديل عنهم ، وطبق العراق

هذه الطريقة في ثمانينات القرن العشرين من خلال الجيش الشعبي والعمل التطوعي للبناء والخدمة المدنية ، انقسم المشاة إلى ثلاث فئات ، خفيفة ، ومتوسطة (نظامية) ، وثقيلة. ومن المرجح أن فئة المشاة الخفيفة شملت أفراداً من القبائل الآرامية ولا سيما الرماة من قبيلة "إيتو" أو "عتو " وحاملي الرماح من قبيلة "كَورو" وهؤلاء كانوا يرتدون عصابة للرأس بدلاً من الخوذة ، وغالباً ما كانوا حفاة الأقدام . ربما عملوا كقوات حامية أو أدوا مهاماً شرطية وتُظهرهم النقوش في المعارك وعمليات الحصار وهم يعملون في أزواج ، حيث كانوا يحملون السيوف بالإضافة إلى الأقواس أو الرماح . كما قاتل بينهم رماة سهام يمكن تمييزهم بوجود عصابة رأس تُربط من الخلف باعتبارهم رماة مهرة . أما المشاة متوسطو التسليح (أو "النظاميون") ، الذين تسلحوا أيضاً بالأقواس أو الرماح ، فقد ارتدوا الخوذة الآشورية المدببة المصنوعة من البرونز (أو البرونز والحديد) وحملوا أشكالاً متنوعة من الدروع ، لكنهم لم يرتدوا دروعاً واقية للجسم حتى منتصف القرن السابع ، حيث ظهرت دروع الصدر. وشملت فئة المشاة الثقيلة الرماة وحاملي الرماح وكذلك رماة المقاليع ، وقد تدربوا على القتال في تشكيلات متراصة أثناء المعارك المفتوحة ، وفي أزواج في أنماط القتال الأخرى . وغالباً ما ارتدوا دروعاً حرشفية وأحذية وخوذات مدببة وحملوا دروعاً مستديرة ، ومن المحتمل أنهم عملوا أيضاً كحراس شخصيين للملك . ولم يتم تحديد رتب الضباط في أي من فئات المشاة الثلاث إذ قد تشير كلمة "قالبو" إلى جنود المشاة ، وإن كان قد طُرح احتمال عملهم كمهندسين عسكريين (لأعمال الحصار والهدم) بينما يبدو أن مصطلح "قلب سيرتي" يشير إلى الرسل السريعين ، مما يعكس تنوع المهام التي كانوا يؤدونها . ويُشار أحياناً إلى تمييز بين حراس القصور وحراس بوابات المدن ، والذين ربما تم اختيارهم من صفوف المشاة النظاميين . ويمكن التعرف على الجنود الأجانب المجندين في صفوف المشاة من خلال خوذاتهم ذات العُرف أو أغطية الرأس المميزة الأخرى . وقد قُدِّرت سرعة المسير بـ 32 كيلومتراً في اليوم ، وهو معدل يعتمد بطبيعة الحال على الأحوال الجوية وطبيعة التضاريس . أما سلاح الفرسان فكان يعتمد على خيول صغيرة تُربى في الجبال والسهوب الواقعة شمالي الأراضي الآشورية ، وقد عملوا كمجموعة واحدة في القرن التاسع، لكنهم انقسموا لاحقاً إلى مجموعتين الرماحون ورماة السهام ، وكان أفراد كلا النوعين يحملون السيف أيضاً .

حافظت العربة الحربية على مكانتها المرموقة طوال تلك الحقبة بصفتها المركبة الملكية ووسيلة تنقل كبار المسؤولين ، بمن فيهم حاملو الرايات المخصصة للإلهين "ايزيد" و"آدي" ، والذين قادوا الجيش كما فعلوا على مدى ألف عام وبحلول القرن التاسع استُبدلت العربة الخفيفة ذات الجوانب المفتوحة التي كانت سائدة في القرن الثاني عشر بطراز أثقل وزناً ، وإن كان الطراز القديم ربما ظل قيد الاستخدام ، لا سيما في رحلات الصيد ، حيث عُرف سائقو هذه العربات بلقب مهني هو "غاب مش" وتظهر في العربة الثقيلة ثلاثة خيول ، اثنان منها مربوطان بالعربة ، بينما يُرجح

أن الثالث كان احتياطياً . ومن الابتكارات المهمة في تصميم العربات والتي ظهرت بوادرها في منتصف القرن التاسع نقل محور العجلات من منتصف صندوق العربة إلى مؤخرته . كما ضمنت إضافة إطار معدني مسمّر (مزود ببروزات) إلى السطح الخارجي للعجلة تماسكاً أفضل مع الأرض ، مما حال دون الانزلاق وأتاح تنفيذ منعطفات أكثر ضيقاً وقد صُنعت عجلات العربات الآشورية في القرن التاسع بستة أذرع (أضلاع) ، في حين كانت عجلات عربات الأعداء المعاصرة لها قد تضم ثمانية أو حتى اثني عشر ذراعاً . وبحلول عهد الملك "تغلث-بلاسر الثالث" ، أصبحت العجلات ذات الثمانية أذرع هي النمط السائد لبقية تلك الحقبة تألف طاقم العربة من المحارب النبيل المعروف بلقب " مارو دمقو " وماسك اللجام "مقلو باتي " ، و"الرجل الثالث" "تشليشو " الذي كان يحمل درعاً مستديرة ذات نتوءات مدببة . ارتدى أفراد الطاقم خوذات ، لكنهم لم يرتدوا دروعاً واقية للجسم . وتُظهر النقوش البارزة أحياناً وجود تمثال نصفي (بروتومي) لأحد الآلهة مثبتاً على صندوق العربة ، إلى جانب زوج من جعب السهام تتسع كل منها لما يصل إلى خمسين سهماً وزوج من الفؤوس . وكان المحارب النبيل يعمل بصفة أساسية رامياً للسهام إذ أتاح له موقعه المرتفع أثناء المعركة اختيار الأهداف بدقة وتوجيه الوحدات العسكرية . وبحلول عهد الملك "آشوربانيبال"، أصبحت العربات مزودة بعجلات أكبر حجماً وأكثر ثقلاً . زاد عدد طاقم المركبة من ثلاثة إلى أربعة رجال ، وكانوا يرتدون دروعاً حرشفية وخوذات مدببة ، كما حُميت الخيول بدروع جلدية على غرار ما كان متبعاً سابقاً مع خيول سلاح الفرسان . كانت المركبات تُجر بواسطة سلالة من الخيول أضخم من تلك التي كان يمتطيها الفرسان . ومثلت مصر مصدراً رئيسياً للتوريد ، إلا أن المنشأ الأصلي كان النوبة ولذا أُطلق على هذه الخيول اسم "الخيول الكوشية"، وهو الاسم الذي أُطلق أيضاً على نوع معين من أطقم السرج واللجام . وقد تم الحصول على بعض الخيول ومعها سائقو مركبات أجانب عن طريق تبادل الهدايا ، غير أنه كان هناك أيضاً تجار خيول متخصصون يُعرفون بلقب "تامكار أنشي-كور-را" ، وكان ما يصل إلى ستة عشر سائساً يُطلق عليهم "شا ماعاسي" يعملون تحت إمرة "ممسك اللجام" الكوشي ، الذي ربما كان يشغل منصب كبير المدربين . أما السائسون المعروفون بـ "سوسانو" فكانوا يعملون ربما دائماً بواقع ثلاثة أفراد لكل طاقم مركبة . وفي عهد سرجون الثاني ، كان "مسؤول التجنيد" (موشاركيسو) يتولى قيادة وحدة مركبات (تُعرف بـ "كسرو") تتألف من 100 رجل ، ويبدو أن وحدات سلاح الفرسان كانت تُنظّم أيضاً في مجموعات قوامها 100 فرد . وبدأت الوحدات الأجنبية تلعب دوراً رئيسياً ، إذ ضم جيش سرجون مجموعة مكونة من ثلاثة عشر فارساً من السامرة ، كانت مهنتهم "قائد الأطقم" (راب أوراتي) تشير في هذه الحالة إلى سلاح المركبات ، وقد يشير هذا المصطلح إلى كل من سلاح المركبات وسلاح الخيالة في حالة الوحدات التي جُلبت من حماة وكركميش ، وكان قائد سلاح المركبات أثناء الحملات العسكرية يُعرف بلقب "راب

موغي شا موغيري" كان الملك محاطاً بأقرب معاونيه ، وهم "شا قوربتي" الذين يُشار إليهم أحياناً بالحرس الملكي والذين كان يُختار بعضهم من المشاة . وهناك نوع آخر من الحراس أو المرافقين (أو ربما هي مهمة يؤديها جنود من فئات مختلفة) يُعرفون بـ "شا شيبّي وتعني حرفياً "صاحب القدمين" وهؤلاء قد يكونون من المشاة أو الخيالة أو طواقم المركبات . وكان الجيش يعتمد اعتماداً كلياً على الأدلاء "رادي كيبسي " وتارغومانّو ، والذين يُرجح أنهم كانوا يُنتقون من بين المجموعات المُهجَّرة قسراً . أما مصطلح "لابّاشو الذي يعني حرفياً "المكتسي" أو "المرتدي" فقد يشير إلى أزياء موحدة تعكس الرتبة العسكرية ، ومع ذلك ، كان الجنود المُجنَّدون من غير الآشوريين يرتدون ملابسهم القتالية المحلية ، كما كان الأعداء يُعرفون بملابسهم المحلية ولا يمكن تمييزهم إلا من خلال السياق العام . ولم يتم تحديد مصطلح خاص بصانع الأسلحة أو مُصلحها . كانت البغال حيوانات حمل موثوقة ، وغالباً ما كانت تُؤخذ كجزء من الجزية . وبحلول عهد أسرحدون ، كان للجمال مكان في "دار السلاح" (الترسانة) في نينوى ، مما قد يشير إلى وجود فيلق خاص بالجمال . كما تشير بعض الرسائل وإن كانت قليلة إلى استخدام إشارات النار ..

عند إسقاطها على خريطة حديثة ، تبدو "الإمبراطوريات العالمية" المفترضة مثل آشور او بابل (ناهيك عن أكد أو سلالة أور الثالثة) كبيرة للغاية لدرجة تجعل مصطلحي "إمبراطورية عالمية" أو "إمبراطورية شاملة" يبدوان مثيرين للدقة تقريباً . ولذا ، فإن وصفها بـ "الإمبراطوريات الإقليمية" يُعد ظلماً فادحاً ، نظراً لأن نطاق نفوذها لم يكن مقتصراً على الشرق الأدنى (أو حتى جزء منه فقط) بل مساحات شاسعة ، ومع ذلك ، ينبغي لنا أن نأخذ في الاعتبار أن مفهوم "الإمبراطورية العالمية" هو أيضاً مفهوم أيديولوجي وجغرافي في نفس الوقت ..

بادئ ذي بدء ، إن وصف إمبراطورية قديمة بأنها "شاملة" (أو عالمية) لا يعني بالضرورة أنها حكمت الكرة الأرضية بأسرها كما نعرفها اليوم لكنها لعبت الدور الأكبر عالمياً في ذلك العصر ، ويعني إن جاز التعبير أنها امتدت لتشمل العالم المأهول كما كان معروفاً في ذلك العصر وبهذا المعنى ، كان بإمكان الإمبراطورية الآشورية يحق لها أن تتدعي لنفسها صفة "الشمولية". فقد كانت "الخريطة الذهنية" للآشوريين تشمل في جوهرها بلاد الرافدين (سهول دجلة والفرات الرسوبية) ، والجبال الواقعة إلى الشمال الشرقي ، والصحاري الواقعة إلى الجنوب الغربي ، والمحيط المحيط بالعالم بأسره ، ذلك المحيط الذي كان يظهر عند طرفه العلوي في هيئة البحر الأبيض المتوسط (الشرقي) ، وعند طرفه السفلي في هيئة الخليج العربي . وكان يُنظر إلى السيطرة على كامل الأراضي الممتدة من "البحر العلوي" إلى "البحر السفلي" بما في ذلك الجزر الرئيسية مثل قبرص ودلمون باعتبارها إنجازاً معقولاً ومناسباً لسيادة عالمية شاملة أما الأراضي التي ظلت خارج نطاق الإمبراطورية فكان يمكن استبعادها بسهولة واعتبارها أراضي "خالية" ، وتصنيف سكانها على أنهم غير متحضرين ، إذ كانوا يُعتبرون أقرب إلى حدود العالم منهم إلى أجزائه المكوِّنة له . في المقابل ،

تمثلت التحديات الحقيقية في كيانات سياسية هامة مثل الفنيقيين ومصر فقد كانت محاولات ضمهما إلى الإمبراطورية أمراً شاقاً وصعباً ، ومع ذلك فقد أُقدم عليها الحكام لأغراض أيديولوجية ..

تكتسب الأسس الأيديولوجية لمفهوم "الإمبراطورية العالمية" أهمية بالغة ، فالإمبراطورية لا تكتسب صفة الشمولية (أو العالمية) بسبب حجمها فحسب ، بل بسبب "رسالتها" الإنسانية والعلمية المتمثلة في الهيمنة على العالم المعروف بأسره من خلال الهندسة المعمارية او من خلال نشر القيم السامية والنبيلة ، وهي رسالة كُلِّف الإمبراطور بتنفيذها من قِبَل إلهٍ ما .

عند إسقاطها على خريطة حديثة ، تبدو "الإمبراطوريات العالمية" مثل آشور أو بابل (ناهيك عن أكد أو سلالة أور الثالثة) كبيرة للغاية لدرجة تجعل مصطلحي "إمبراطورية عالمية" أو "إمبراطورية شاملة" يبدوان واقعيان تقريباً. ولذا، فإن وصفها بـ "الإمبراطوريات الإقليمية" يُعد أكثر ظلماً بكثير ، نظراً لأن نطاق نفوذها لم يكن مقتصراً على الشرق الأدنى (أو حتى جزء منه فقط) بل امتد لمساحات شاسعة من العالم القديم ..

بادئ ذي بدء ، إن وصف إمبراطورية قديمة بأنها "شاملة" (أو عالمية) لا يعني بالضرورة أنها حكمت الكرة الأرضية بأسرها كما نعرفها اليوم ، بل يعني إن جاز التعبير أنها امتدت لتشمل العالم المأهول كما كان معروفاً في ذلك العصر . وبهذا المعنى ، وبإمكان الإمبراطورية الآشورية أن تدعي لنفسها صفة "الشمولية" انطلاقاً من هذه المعطيات الاثرية . فقد كانت "الخريطة الذهنية" للآشوريين تشمل في جوهرها بلاد الرافدين (سهول دجلة والفرات الرسوبية) ، والجبال الواقعة إلى الشمال الشرقي ، والصحاري الواقعة إلى الجنوب الغربي ، والمحيط المحيط بالعالم بأسره ذلك المحيط الذي كان يظهر عند طرفه العلوي في هيئة البحر الأبيض المتوسط (الشرقي) ، وعند طرفه السفلي في هيئة المحيط الهندي . وكان يُنظر إلى السيطرة على كامل الأراضي الممتدة من "البحر العلوي" إلى "البحر السفلي" بما في ذلك الجزر الرئيسية مثل قبرص ودلمون باعتبارها إنجازاً معقولاً ومناسباً لسيادة عالمية شاملة (انظر دراسة "جغرافيا سرجون" في أعمال ليفيراني، 1999–2001) اما بعض الأراضي العربية في المغرب وافريقيا فكان يمكن استبعادها بسهولة واعتبارها أراضي "خالية"، وتصنيف سكانها على أنهم غير متحضرين ، إذ كانوا يُعتبرون أقرب إلى حدود العالم منهم إلى أجزائه المكوِّنة له . في المقابل ، تمثلت التحديات الحقيقية في كيانات سياسية مثل عيلام ومصر فقد كانت محاولات ضمهما إلى الإمبراطورية أمراً سهلاً ، ومع ذلك فقد أُقدم عليها الحكام لأغراض أيديولوجية ..

تكتسب الأسس الأيديولوجية لمفهوم "الإمبراطورية العالمية" أهمية بالغة فالإمبراطورية لا تكتسب صفة الشمولية (أو العالمية) بسبب حجمها فحسب بل برسالتها العلمية والإنسانية ، وليس بسبب "رسالتها" المتمثلة في الهيمنة على

العالم المعروف بأسره، وهي رسالة كُلِّف الإمبراطور بتنفيذها من قِبَل إلهٍ ما . تظل هذه السمة هي المعيار المميِّز عند مقارنة الإمبراطوريات بكيانات سياسية أخرى ربما لم تكن أصغر حجماً من الناحية المادية البحتة لكنها كلم تكن تفتقر إلى مثل هذه الرسالة ، أو بعبارة أخرى ، إلى مثل هذه الأيديولوجيا . ولذا ، فإن الأمر يستدعي مناقشة الأيديولوجيا الإمبراطورية ودورها في العصر الآشوري الحديث بشيء من التفصيل هنا ..

يتمثل المبدأ الأساسي للملكية الآشورية في العبارة المتكررة التي تقول .. "الإله آشور هو الملك ، و(فلان/الحاكم) هو نائبه وقد وردت هذه العبارة في مستهل التاريخ الآشوري حين كانت آشور مجرد دولة مدينة في نقوش أختام كل من "صيلولو" (حوالي عام 2000 ق.م) و"إريشوم الأول" (حوالي عام 1940 ق.م) وكذلك في وقت لاحق خلال العصر الآشوري الوسيط حين أصبحت آشور دولة إقليمية ضمن طقوس التتويج الآشورية حوالي عام 1300 ق.م ، وفي أوج قوة الإمبراطورية ، حافظت طقوس تتويج الملك "آشوربانيبال" على الفكرة ذاتها ، أي اعتبار الملك نائباً للإله لقد كانت فكرة كون الملك ممثلاً أو وكيلاً بشرياً للإله شائعة للغاية في الشرق الأدنى القديم ، إذ أن مصطلح "إيشياكو" نفسه مشتق من لقب "إنسي" الذي استخدمه حكام دول المدن السومرية في الألفية الثالثة قبل الميلاد . ولكن ، وعلى خلاف بعض الملوك في عصور سابقة ، لم يعتبر أي حاكم آشوري نفسه إلهاً ، فقد كان الملوك الآشوريون مجرد ممثلين بشر للإله "القومي" آشور ..

إن فكرة الحكم الإلهي ليست بحد ذاتها شرطاً مسبقاً كافياً لقيام أيديولوجية إمبراطورية . فعلى مر تاريخ الشرق الأدنى القديم ، كان الناس يدركون أنه إلى جانب "إله المدينة" الخاص بهم ، توجد آلهة أخرى في مدن أخرى . ولم تكن تلك الآلهة الأخرى "آلهة أدنى مرتبة"، بل كانت آلهة متساوية المكانة ، حيث كان كل منها مسؤولاً عن حظوظ مدينته خيراً كانت أم شراً . وبعبارة أخرى ، في ظل ثقافة تعدد الآلهة، كانت المعتقدات المتعلقة بالحكم الإلهي متوافقة تماماً مع عالم سياسي متعدد المراكز . ولأسباب سنستعرضها لاحقاً ، طرأ تغير على اللاهوت السياسي في آشور قرابة منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد . لم تعد المهمة الأساسية للملك الآشوري التي كلفه بها الإله "آشور" تقتصر (كما هو الحال في مدن أخرى) على ضمان رفاهية الرعايا وازدهار البلاد ورعاية المعابد فحسب ، بل شملت أيضاً تلك المهمة المتميزة المعروفة بماتروبشو أي "توسيع البلاد (آشور)" ، وهو ما يعني بسط حدود آشور ، ومن الناحية العملية ، غزو البلدان والشعوب المجاورة. وقد ظهر اللقب الملكي الذي يعني "موسِّع الأراضي"، لأول مرة في عهد الملك "توكولتي-نينورتا الأول" في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد ولا يُعد هذا المبدأ استثنائياً ، إذ يمكن العثور عليه أيضاً في مصر ، ولا سيما في عهد الأسرة الثامنة عشرة . ومن منظور لاهوتي ، ترتبط أسباب "توسيع البلاد"

بطبيعة مختلفة تميز "البلاد الداخلية" عن "الأراضي الخارجية" ، وتتعلق في نهاية المطاف بتقديرٍ مختلف للإله القومي مقارنةً بالآلهة التي تحكم الشعوب المجاورة ..

لقد كانت "البلاد الداخلية" وحدها باعتبارها خاضعة للتفويض الإلهي بمثابة كيان "كوني" (منظَّم) تسوده سيادة القانون والنظام والعدل والسلام . في المقابل ، كانت البلدان الخارجية تمثل جزءاً "فوضوياً" من الكون ، يفتقر إلى السمات الإيجابية التي تتسم بها البلاد الداخلية ، نظراً لجهل تلك البلدان أو الأسوأ من ذلك ، مقاومتها للحكم الأسمى للإله المركزي الأعلى ، وهو الإله "آشور" في الحالة الآشورية . ومن ثم، فإن التفويض الإلهي القاضي بـ "توسيع البلاد" و"بسط الحدود" وتحويل الفوضى إلى نظام كوني ، كان يمثل مهمة تفوق القدرات البشرية المعتادة ، إذ كان بمثابة عملٍ لتنظيم العالم وإتمامٍ لعملية الخلق . ولم يقتصر أثر غزو العالم على تعزيز مجد الإله "آشور" والملك الآشوري فحسب ، بل عاد بالنفع أيضاً على الشعوب المفتوحة ، التي أُدرجت أخيراً هي الأخرى ! ضمن ذلك النظام الكوني الخاضع للحكم الإلهي . تُعد العبارة الواردة في طقوس التتويج الآشورية الوسطى "بصولجانك القويم وسّعْ رقعة بلادك! وليمنحك آشور السلطة والطاعة، والعدل والسلام") صريحةً للغاية في هذا الصدد ، إذ إن لقبي "موسِّع البلاد" و"موسِّع الحدود" يترددان بكثرة في الألقاب الملكية الآشورية ، في حين يغيبان تماماً عن تقاليد بلاد الرافدين السابقة ، التي كانت تطمح إلى بسط السيادة العالمية "من البحر إلى البحر"، وإن عبّرت عن ذلك بأسلوب مختلف

في حين أن الأسس اللاهوتية للأيديولوجيا السياسية للدولة الآشورية واضحة وهي شمسانية ، فإن الظروف التاريخية التي حولت آشور إلى إمبراطورية ليست بتلك السهولة في التحديد . إذ يتعين علينا التمييز بين مرحلتين مختلفتين مرحلة أولى وفرت متطلبات مسبقة معينة ، ومرحلة ثانية شهدت التحقق الفعلي للمشروع الإمبراطوري . وحتى وقت متأخر من النصف الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد ، لا يمكننا الحديث إلا عن تلك المتطلبات المسبقة . وتشمل هذه المتطلبات ..

(1) الشبكة التجارية القديمة (الموثقة منذ القرن العشرين قبل الميلاد) التي امتدت عبر مساحة واسعة ، مما دفع باحثين سابقين للحديث عن "إمبراطورية آشورية قديمة" غير أن تلك الشبكة كانت تعتمد إلى حد كبير على المبادرات الفردية الخاصة مع دعم سياسي محدود من المدينة الأم ..

(2) "عقدة الحصار" الآشورية (أي فكرة التعرض الدائم للحصار) ، والتي تجلت بوضوح في صلاة للملك "توكولتي–نينورتا الأول" تحث الآشوريين على الرد على الضغوط التي تمارسها شعوب الجبال المحيطة وتفسر هذه العقدة النزعة

الحربية لدى الآشوريين ، وإن كان تبرير بناء الإمبراطورية باعتباره رد فعل ضد الأعداء المحيطين يمثل بطبيعة الحال أيديولوجيا قديمة وليس تفسيرنا التاريخي الحديث..

(3) النموذج الذي قدمه تراث الإمبراطورية الأكدية القديمة، والذي كان الملك "شمشي-أداد الأول" قد أحياه بالفعل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد رغم أن مملكته شملت كامل منطقة أعالي بلاد الرافدين وكان مركزها يقع خارج آشور نفسها ..

أما الفرصة الأولى لتطوير سياسة توسعية -وبالتالي نوع من الأيديولوجيا الإمبراطورية- فقد سنحت عام 1360 قبل الميلاد إلا أن الملك الآشوري "آشور-أوباليط" تمكن أيضاً من استغلال الفرصة ، فشن هجمات واصلها من بعده خلفاؤه على الأعداء القادمين من القوقاز ، مما أدى في النهاية إلى توسيع الحدود الغربية لآشور لتصل إلى نهر الفرات ، وتحويل "آشور" من دولة-مدينة إلى مملكة إقليمية واسعة تحولت الى عالمية فيما بعد . في الفترة ما بين عامي 1350 و1200 قبل الميلاد ، أصبحت آشور جزءاً من شبكة دولية من الممالك قامت على التعايش السلمي ، أو بالأحرى على الموازنة الدقيقة للمصالح السياسية والعسكرية لستة "ملوك عظام" ، وهم حكام مصر وبلاد الحيثيين (خاتي) ، وآشور ، وبابل ، وعيلام ، وبعض الشركاء ذوي المكانة غير المحددة بدقة (مثل ألاشيا وأخياوا وأرزاوا). وبينما قبلت معظم الدول في نظام "التفاعل بين كيانات متكافئة" هذا بمبادئ التسوية والمعاملة بالمثل التي روج لها الشركاء ، تبنت آشور التي دخلت هذا النظام في مرحلة متأخرة موقفاً أكثر عدوانية ، مما أثار ردود فعل سلبية لدى الأعضاء الأقدم عهداً مثل الحيثيين والبابليين . وفي هذا النظام ، لعبت مصر أيضاً دوراً فريداً إذ قبلت بـ "التفاعل بين الأنداد" في صورة تبادل الهدايا ، مع احتفاظها في الوقت ذاته بشعور معين بالتفوق.

وبغض النظر عن التوترات القائمة بين هذه القوى ، ظل النظام الدولي قائماً وفعالاً حتى أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، حين أدى غزو "شعوب البحر" (إلى جانب عوامل محتملة أخرى) إلى انهياره ، لا سيما في الغرب . وقد نجح الشركاء في الشرق في مقاومة حالة التفكك التي تلت ذلك لقرن آخر من الزمان (وهو القرن الذي شهد عهود كل من تغلث-بلاسر الأول في آشور ، ونبوخذ نصر الأول في بابل ، إلا أنهم تأثروا في نهاية المطاف بتلك الأزمة أيضاً . مع نهاية هذه العملية ، كانت مصر قد انكفأت داخل حدودها التقليدية وشهدت الأناضول وبلاد الشام بأسرها تراجعاً كبيراً في الطابع الحضري ، كما عانت بابل من تدهور حاد، وانعزلت "عيلام" عن قلب الشرق الأدنى في حين تعرضت أعالي بلاد ما بين النهرين لغزو القبائل الآرامية وانتقالها من الجنوب الى الشمال السومري . ورغم أن آشور نفسها مرت بأزمة خانقة (1070–930 ق.م) ، إلا أنها كانت أول من استعاد عافيته وقدرته على

التوسع ، إذ لم تجد في طريقها منافسين أقوياء أو مقاومة تذكر في جنوب بلاد ما بين النهرين أو في بلاد الشام . وبصفتها القوة الكبرى الوحيدة المتبقية في عالمٍ كان يتعافى ببطء ولكنه لا يزال منقسماً إلى دويلات مدن وتحالفات قبلية متعددة ، تمكنت آشور من تنفيذ مشروعها الرامي لتوسيع رقعة المملكة المركزية على حساب الأطراف المحيطة بسهولة نسبية ، لتخضع في نهاية المطاف العالم المعروف بأسره تحت راية (أو بالأحرى نير) الإله "آشور".

لم تكن عملية التوسع الإمبراطوري الآشوري متصلة أو مستمرة ، بل مرت بمراحل متعددة:

(1) مرحلة "استعادة الأراضي" (930–860 ق.م)، حيث أُعيدت السيطرة على أراضٍ كانت آشورية بالفعل في القرن الثالث عشر .

(2) مرحلة التوسع الأول خارج الحدود التقليدية (860–830 ق.م) ، حين نجح شلمنصر الثالث في إخضاع معظم مناطق بلاد الشام (دون ضمها فعلياً) .

(3) مرحلة "إقطاعية" (830–745 ق.م) ، شهدت تحدي حكام الأقاليم للسلطة المركزية وتوقفاً مؤقتاً للتوسع الآشوري .

(4) مرحلة التوسع الثاني (745–705 ق.م) ، حيث قام كل من تغلات بلاسر الثالث وسرجون الثاني بغزو (وضم) معظم الأراضي المحيطة ، مما منح الإمبراطورية هيكلها "الكلاسيكي" .

(5) مرحلة الهيمنة المطلقة دون منازع (705–640 ق.م) إذ تجرأ الملوك الآشوريون على شن حملات عسكرية ضد مناطق نائية للغاية (مثل شبه الجزيرة العربية ومصر وعيلام) ، وإن كانت نتائج تلك الحملات واسعة وفوق قدرات الجيش الاشوري .

(6) وأخيراً ، مرحلة الحرب الأهلية التي انتهت بانهيار مفاجئ (640–610 ق.م) وخلاصة القول ، إن الأيديولوجيا الإمبراطورية الآشورية استمرت لنحو سبعة قرون (حوالي 1300–600 ق.م كأرقام تقريبية)، غير أن الإمبراطورية الآشورية بمعناها الشامل حقاً (أي تلك التي فرضت هيمنتها على العالم المعروف آنذاك) لم تدم إلا لفترة نسبياً طويلة امتدت من بداية القرن التاسع وحتى منتصف القرن السابع قبل الميلاد .

تحقق إرساء النظام "الكوني" على حساب الفوضى بطرق شتى ، مادية وأيديولوجية على حد سواء . فقد أدت الفتوحات ، على سبيل المثال ، إلى تحول مادي بحت في المشهد الطبيعي شُقّت الطرق عبر جبال كانت عصية على

العبور من قبل ، وحُفرت الآبار لتوفير المياه للمسافرين في الصحراء، وحُوّلت الأراضي البور إلى حقول منتجة وذلك تحقيقاً لما وصفه سرجون الثاني بقوله "لإعادة توطين المناطق المهجورة، وفلاحة الأراضي البور ، وغرس البساتين وزراعة المحاصيل على منحدرات شديدة الانحدار لم تزدهر فيها أي نباتات من قبل ، وزراعة النباتات في أراضٍ قاحلة لم تعرف المحراث في عهد الملوك السابقين ، وشق أخاديد البذور ، وجعل أغاني العمل تصدح في الأرجاء لقد جعلتُ ينابيع السهل تتدفق، والمياه الوفيرة تعلو وتفيض .

ورغم تكرار الإشارة إلى هذه الجهود المادية والبيئية ، إلا أن النقوش الملكية الآشورية تولي اهتماماً للقانون والنظام يفوق اهتمامها بالمشهد الطبيعي . فقد وُصف الأعداء الذين لم يُهزموا بعد بطريقتين فإما أنهم شعوب (مثل قبائل الصحراء أو سكان الجبال) لم يسبق لهم أن عرفوا إدارة الدولة ، أو وجود المسؤولين ، أو فرض الضرائب ، أو نظام السخرة أو أنهم (في حالة الدول الأكثر تطوراً) كانوا يمتلكون ملكاً وقصراً ملكياً وهيكلاً للدولة ، ولكنها لم تكن "صحيحة" أو "مشروعة"، لأنها لم تنبع من المصدر الفريد للسلطة الشرعية ، ألا وهو الإله "آشور" . وقد تجلت الطبيعة الفوضوية لهؤلاء الأعداء في كثرتهم وتعددهم (عشرات الملوك من بلاد "نايري"، والقبائل الآرامية ، ومدن الكلدان ، وأراضي عيلام) ، وهو ما كان يتناقض مع وحدة آشور تحت حكم ملكها الآشوري . لقد كان من الحماقة أن يثق الأعداء في دعمهم المتبادل ، وفي أعدادهم الغفيرة، وفي تضاريس أرضهم المعادية ، في حين لم يضع الملك الآشوري ثقته إلا في الإله "آشور" ، وكان ذلك كافياً للانتصار على أعداءٍ إما بلا إله، أو لديهم آلهة ثانوية تخلت عنهم في نهاية المطاف وتركتهم لمصيرهم المحتوم . سواء في الكيانات السياسية القبلية أو تلك التي اتخذت طابعاً حضرياً ، استعارةً تشير إلى فرض الضرائب والسخرة (العمل القسري) . ويُعبَّر عن المفهوم ذاته بشكل أكثر مباشرة من خلال العبارة الاصطلاحية ، التي تعني "فرض الضرائب والإتاوات على الشعوب المقهورة على غرار ما يُفرض على الآشوريين"، كما تشير عبارة "آشور مانو " إدراجهم في عداد شعب آشور إلى تسجيل تلك الشعوب المقهورة ضمن قوائم دافعي الضرائب أيضاً . ونظراً لغياب مفهوم المواطنة ، كان الشرط الرئيسي (أو الوحيد) لكي "يصبح المرء آشورياً" هو الوفاء بالالتزامات المالية المترتبة عليه وتطبيقه القوانين الوضعية .

الفصل السادس

الفوضى والنظام في النقوش الملكية

تتم عملية تحويل الفوضى إلى نظام (نظام كوني متناغم) عبر مرحلتين .. أولاً ، يجب القضاء على حالة الاضطراب القديمة ، ثم (وفقط بعد ذلك) يُبنى النظام الجديد . وتزخر النقوش الملكية بأوصاف لهذه الخطوة الأولى التي تتسم بالتدمير وغالباً ما يُعبّر عنها بالعبارة المتكررة: "أبول ، عقول ، اشروب " ، أي "سوّيتُ بالأرض ، ودمّرتُ ، وأحرقتُ" . إذ يمثل كل تقرير عن حملة عسكرية سرداً لأحداث التدمير والمذابح والقسوة السادية . لقد ارتكزت السيطرة على الشعوب الأجنبية بشكل أساسي على بث الرعب ، وهو ما صرّح به بوضوح الملك سرجون الثاني قائلاً : "لقد أرسيتُ دعائم سلطة الإله آشور " للأبد ، وتركتُ للأجيال القادمة رهبةً منه (أي من آشور) لا تُمحى من الذاكرة ، ولعل أكثر جوانب الرعب فاعلية هو تأثيره الأيديولوجي طويل الأمد (إذ تقتل واحداً لتلقين ألفٍ درساً) ، غير أن التدمير كان يخلّف أيضاً آثاراً مادية دائمة عززت السمعة المخيفة للآشوريين ، وهو ما يصفه الملك أسرحدون عند حديثه عن زحف جيشه . "أمامي مدنٌ ، وخلفي تلالٌ من الأنقاض" أما فيما يتعلق بمظاهر القسوة السادية (كالأوصاف والصور التي تُظهر تعذيب الأعداء ، والتمثيل بجثثهم ، وخوزقتهم ، وسلخ جلودهم ، ودفنهم أحياءً) ، فمن الشائع الاعتقاد بأن الغاية منها كانت ترهيب الأعداء وهو اعتقاد صحيح جزئياً إلا أن هدفاً إضافياً كان يكمن في تعزيز "عقلية القطيع" لدى الآشوريين أنفسهم . وبشكل عام ، تحتاج الجيوش الفعالة (سواء كانت تسعى لجلب الحرية أو فرض الاستبداد) إلى طمأنتها بشأن أمرين أثناء الحرب . أولاً، ألا يلقى الجنود حتفهم ، وثانياً ، ألا يُلاموا إذا اضطروا لقتل رجال آخرين. فيما يتعلق بالنقطة الأولى ، يجدر بنا الاقتباس من "رسائل إلى آشور"، التي تصف الخاتمة المظفرة لحملة عسكرية بعبارة نمطية مفادها: "لقي سائق عربة واحد، وفارسان، وثلاثة جنود مشاة حتفهم" ، وبذلك يجري تقليص أعداد الخسائر البشرية من الآلاف وهو الرقم الأكثر واقعية إلى مجرد حفنة قليلة . أما بخصوص النقطة الثانية ، فتصف النقوش الملكية الأعداء باستمرار بأنهم أشرار ، وأنهم يبدون مقاومةً عنيدةً لتقبّل سيادة آشور التي تعود عليهم بالخير ..

لم يكن الدمار هو الغاية النهائية للغزو ، بل مجرد إجراء تمهيدي ضروري ، إذ تمثلت الغاية القصوى في إعادة الإعمار بما يعكس السمات الإيجابية للمركز (الآشوري) . فبعد القضاء على الزعماء المحليين المتمردين ، كان يجري تعيين حكام آشوريين من المتنورين ، وبعد تدمير قصر الملك المحلي كان يُبنى قصر آشوري مكانه ، وبعد ترحيل السكان المحليين كان يجري توطين أناس جدد بدلاً منهم . وعلاوة على ذلك، كانت الأسماء المحلية تُستبدل أحياناً بأسماء آشورية جديدة . والعبارة الاصطلاحية الأساسية التي تصف هذه المجموعة من الإجراءات هي "تجديد المدينة (أو البلاد) المفتوحة" ومن المثير للاهتمام ملاحظة أن هذه العبارة كانت تشير في القرن التاسع (في عهد آشور ناصربال الثاني) إلى أعمال البناء والتشييد ، بينما أصبحت تشير في القرن الثامن (في عهد سرجون الثاني) إلى المُرَحَّلين الوافدين ، حيث تُعتبر البلاد المفتوحة "مُجَدَّدة" بعد استبدال سكانها ..

وكما ذُكر آنفاً ، كان التركيز ينصب بشكل خاص على الدمج المالي ، إذ كان الناس "يصبحون آشوريين" بمجرد خضوعهم للضرائب وتطبيق القوانين ، ونظراً لأن المبدأ اللاهوتي كان يقتضي قبول الشعوب المفتوحة لحكم الإله "آشور" وممثله البشري الملك الآشوري ، فقد كان من المتوقع أن يُجبروا على التخلي عن آلهتهم وقبول عبادة "آشور"، إلا أن الواقع لم يكن كذلك. صحيح أن "سلاح آشور" كان يُنصب داخل المدن المفتوحة ، لكنه كان يمثل رمزاً لعهد الولاء فقط . وبالإضافة إلى ذلك ، كان تمثال الملك يُنصب أحياناً . أما تماثيل الآلهة المحلية ، فكان تدميرها أمراً نادراً للغاية إذ كانت تُؤخذ غالباً ك "غنائم" وتُرحَّل إلى آشور (للدلالة على تخلي تلك الآلهة عن بلدانها) ، ثم تُعاد لاحقاً وفي بعض الحالات بعد ترميمها وإضافة نقش آشوري عليها ، خُصِّصت عناية خاصة للآلهة البابلية ومعابدها ، غير أن ذلك كان حالة استثنائية فرضتها المكانة الثقافية المرموقة لبابل . فقد ظل الدين الشمساني في الإمبراطورية الآشورية قائماً على تعدد الآلهة ، إذ كانت الوحدانية النتيجة النهائية لمفهوم أخلاقي جديد للألوهية ، لا نتاجاً للقضاء على الآلهة المنافسة أو الأقل شأناً .

كانت الغاية النهائية المرجوة من تدمير الدولة المفتوحة وإعادة بنائها لاحقاً هي إرساء السلام ، رغم أن إعلان السلام في أعقاب الدمار والمذابح قد يبدو أحياناً أمراً متناقضاً . ولنأخذ على سبيل المثال تصريح الملك سرجون "أحرقتُ مدينة قرقر ، وسلختُ جلد ملكها وقتلتُ المتمردين داخل المدن ، وبذلك أرسيتُ السلام . غير أن النصوص الآشورية من هذا النوع تخلو من أي سخرية ، سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة ، إذ كان القضاء على "المتمردين" خطوة ضرورية نحو عالم موحد ومتجانس يسوده السلام . أما من الناحية العملية ، فلم يكن نمو الإمبراطورية ثابتاً عبر الزمن (كما رأينا آنفاً) ولا متجانساً في ممارساتها السياسية والإدارية . وقد تمثلت أسباب وجود هياكل سياسية متنوعة داخل الإمبراطورية في عاملين رئيسيين .. أولاً ، محدودية التكنولوجيا ، وثانياً ، التنوع الكبير

في الأنماط المحلية التي فرضتها إلى حد كبير القيود البيئية . لقد حالت القيود المفروضة على تكنولوجيا النقل والاتصالات عموماً دون تصدير الموارد الأساسية (ولا سيما الغذاء) بشكل مربح لمسافات تتجاوز نطاق 20 إلى 25 كيلومتراً . وفي العصور القديمة ، كان الهيكل القائم على نظام "الكانتونات" (أو الوحدات الإقليمية المستقلة) هو النموذج السائد للكيانات السياسية ، ونادراً ما تم تجاوز هذا النمط الى فدرالية مثل حلب . وعليه ، لم يكن توسيع المملكة أو الإمبراطورية يتحقق عن طريق تمديد "الخلية المركزية" ، بل بإضافة المزيد والمزيد من تلك الوحدات إليها ، أو بعبارة أخرى ، من خلال إنشاء مقاطعات ظلت تتمتع بالاستقلال الذاتي في إدارة مواردها ، مع تحويل أي فائض من السلع سواء كانت مصنعة أو محولة إلى فضة أو غيرها من المقتنيات الثمينة إلى العاصمة المركزية . تمثلت إحدى الوسائل التي عالج بها الآشوريون القيود العملية التي كانت تعيق توسيع نطاق سيطرتهم في ترك الممالك تحت حكم حكام محليين غالباً ما كانوا حكاماً جدداً موالين لآشور ليحلوا محل الحكام المتمردين "الأشرار" الذين أُطيح بهم في ذلك العصر . وقد شاع استخدام أسلوب "الحكم غير المباشر" هذا كبديل لضم الأقاليم أو تطبيق "الحكم المباشر". ومن الناحية الاقتصادية ، لم يكن الحكم غير المباشر بالضرورة أقل ربحية من الحكم المباشر ، إذ كانت جدوى أي من الأسلوبين تعتمد على حجم الجزية (الخارجية) مقارنةً بحجم الضرائب (الداخلية) . بل إن الحكم غير المباشر كان قد يثبت أنه أكثر ملاءمة ، لقدرته الأفضل على الحفاظ على مستويات عالية من الإنتاجية الداخلية ، وتجنب مخاطر تدني الروح المعنوية وانخفاض الكثافة السكانية الناجمين عن عمليات الفرار والتهجير . ومع ذلك، كانت الإمبراطورية تفضل على المدى الطويل تطبيق الحكم المباشر كلما أمكن ذلك . ولم تكن الأسباب اقتصادية بقدر ما كانت سياسية ، فالحكم المباشر كان يعني القضاء على النخب السياسية المحلية (سواء بالقتل أو التهجير) وإضعاف الهوية المحلية للطبقات الدنيا (من خلال عمليات التهجير المتبادل) ، مما كان يثبط محاولات التمرد والانفصال ..

وعند النظر إلى نمطي الحكم هذين من منظور تطوري زمني ، يمكننا تمييز مرحلتين في التطور التاريخي للإمبراطورية الآشورية . ففي القرن التاسع ، كانت الإمبراطورية تتألف من منطقة مركزية تخضع لحكم مباشر وتطابق إلى حد كبير المملكة الآشورية الوسطى حيث امتدت من جبال ارارات وصولاً إلى منطقة الفرات الأوسط . وفي المقابل ، طُبِّق الحكم غير المباشر في المناطق المحيطة (الأطراف) التي كانت تضم ممالك فدرالية ، وهي مناطق كان الجيش الآشوري يصل إليها خلال حملاته الموسمية التي لم تكن تتجاوز مسافة ألف كيلومتر . أما في القرنين الثامن والسابع ، فقد توسع نطاق الحكم المباشر ليشمل المناطق التي كانت تدفع الجزية سابقاً، بينما دُفع بنظام الحكم غير المباشر تدريجياً نحو مناطق أبعد.

غير أن تطبيق الحكم المباشر كان متعذراً في المناطق الجبلية والسهوب والصحاري؛ حيث لم تكن قد نشأت أي هياكل حضرية أو مؤسسات لإعادة توزيع الموارد (مثل القصور الملكية). ونتيجة لذلك، ظلت هذه المناطق بمنأى عن الخضوع الكامل للسيطرة الآشورية. على سبيل المثال لا الحصر، حين بسطت آشور –في عهد سنحاريب– سيطرتها على رقعة شاسعة للغاية من الأراضي،

بعد زوال الدولة الآشورية في نهاية القرن السابع قبل الميلاد ، برزت بابل التي كانت منافساً قديماً وشقيقاً حضارياً لها كقوة مهيمنة في بلاد الرافدين وبلاد الشام بعد انتقال التاج لها . وعقب فقدان بابل لاستقلالها لصالح الفرس عام 539 قبل الميلاد ، أصبحت المعابد البابلية المستودع الرئيسي للذاكرة الثقافية لبلاد الرافدين ، إذ تتميز الوثائق المسمارية البابلية المتأخرة بكونها غنية ومتنوعة للغاية . وقد أنتجت الإمبراطورية البابلية في القرنين السابع والسادس مجموعة هامة من النقوش الرسمية ، كما تُقدَّر الوثائق الأرشيفية لتي تتركز غالبيتها في الفترة ما بين عامي 626 و485 قبل الميلاد بعشرات الآلاف . وتضم مكتبات المعابد والمكتبات الخاصة التي تعود إلى العصرين السومري والبابلي مئات المخطوطات للنصوص الشمسانية التقليدية ، بدءاً من سلاسل المعاجم وقوائم النبوءات (الفأل) ووصولاً إلى الحوليات والأعمال الأدبية . وتحفظ هذه المجموعة الغنية والمتنوعة ذكريات مختارة عن آشور بصفتها منافساً سياسياً وحضارياً ، فضلاً عن عناصر متفرقة من الثقافة الآشورية التي استمرت لقرون على الأرض البابلية . وقد بقيت هذه العناصر أحياناً في صورة تراثٍ جرى الحفاظ عليه وتنميته بوعي وقصد، وإن كانت في الغالب قد دُمجت وانصهرت تماماً لدرجة يصعب معها تمييزها ، وربما لم تعد تُعرف حينها بأنها آشورية الأصل . ولا شك أن الصورة المستمدة من تلك الوثائق تبدو أحادية الجانب ، إذ تنظر إلى آشور من منظور عالمٍ يتمحور حول بابل وإنجازاتها الحضارية والدينية والسياسية . ومع ذلك، تُظهر الأدلة أن آشور لم تُمحَ تماماً من الذاكرة ، لا سيما في أوساط الطبقات المتعلمة التي كانت تسيطر على المعابد وعلى المعرفة بالكتابة المسمارية .

استولى نابو بلاسر على العرش البابلي عام 626 قبل الميلاد . وعلى مدى السنوات الست التالية ، خاض حرباً ضد الآشوريين على الأراضي البابلية سعياً للسيطرة على مدنها. ورغم أن مدناً مثل أوروك ونيبور قد تبدلت تبعيتها بين الطرفين بضع مرات ، إلا أن جميع الأدلة تشير بحلول عام 620 إلى أن نابوبلاسر كان قد أزاح منافسه "سين–شارو–إشكون" عن الجنوب ، وأصبح مستعداً لنقل الصراع إلى قلب بلاد آشور نفسها ، لقد نهب البابليون وحلفاؤهم الميديون مدينة نينوى عام 612 ، لكن التاريخ الطويل للدولة الآشورية ونظامها الملكي لم يطوِ صفحاته الأخيرة إلا بعد الاستيلاء على مدينة حران عام 609 . كان الانهيار الآشوري دراماتيكياً ، فعلى الرغم من وجود أدلة تشير إلى احتلال جزئي وإعادة استيطان لاحقة ، إلا أن العواصم الإمبراطورية الشاسعة والمقار الملكية لملوك

السلالة السرجونية أصبحت مهجورة إلى حد كبير . وقد تراجعت الكتابة المسمارية الآشورية بزوال الدولة التي كانت تدعمها ، في حين كان انتشار اللغة الآرامية كلغة تخاطب يومي قد قلص بالفعل من نطاق استخدام المسمارية ، لا سيما في تدوين المعاملات الخاصة . وتتمثل الأدلة الوحيدة التي تعود لما بعد العصر الآشوري على استمرار اللغة الآشورية والكتابة المسمارية الآشورية في سياق الحياة اليومية ، في أربع وثائق اقتصادية عُثر عليها في "دور–كاتليمو " وتعود تواريخها إلى السنة الرابعة من حكم نبوخذ نصر الثاني (601–600 قبل الميلاد) .

شهدت سنوات الصراع بين نابوبلاسر والدولة الآشورية الآفلة بزوغ خطاب بابلي حول آشور ، وهو الخطاب الذي صاغ صورة تلك الدولة في الذاكرة التاريخية البابلية المتأخرة . وقد أشار نابوبلاسر إلى زوال الدولة الآشورية في بضعة نقوش ، ففي الأسطوانة التي تخلد ذكرى ترميم سور "إمجيور–إنليل" في بابل ، يصف الملك الجديد الآشوريين بأنهم كانوا ظالمين سُمح لهم بحكم بابل بطريقة غير شرعية نتيجة لغضب إلهي ، وذلك إلى أن قام هو بطردهم من البلاد وساعد البابليين على التخلص من نير حكمهم . في ختام هذا النقش، يُجري نابوبولاسر مقارنةً بين القسوة الآشورية والاعتماد على القوة المحضة ، وبين إيمانه هو بقوة الإلهين "مردوخ" و"نابو" ، مستخلصاً بذلك درساً أخلاقياً من انهيار النظام الإمبراطوري الآشوري ..

لقد تمثلت أعظم جريمة آشورية من وجهة النظر البابلية في المعاملة التي أنزلها "سنحاريب" بمدينتهم عقب الاستيلاء عليها عام 689 ق.م . ورغم أن نابوبلاسر لم يذكر هذه الأحداث تحديداً في نقوشه ، إلا أنه لا ريب في أن البابليين بدأوا خلال فترة حكمه ينظرون إلى التفكك والسقوط الذي كانت تشهده آشور آنذاك على أنه قصاص عادل لجرائم سنحاريب بحق مدينتهم . ويبدو هذا المنظور ضمنياً في "حولية بابلية" ترصد فترات توقف الاحتفال بعيد رأس السنة ، بدءاً من واقعة نهب سنحاريب لبابل ووصولاً إلى عام 626 ق.م ، حين تولى نابوبلاسر السلطة في بابل عقب وفاة "كاندالانو" ، ويظهر التفسير ذاته ولكن هذه المرة بشكل صريح ومفصل في مسلة أقامها الملك "نابونيد" في بابل بعد فترة وجيزة من اعتلائه العرش ، إذ فُقدت الأسطر الأولى من المسلة التي يُرجح أنها كانت تذكر اسم سنحاريب صراحةً ، بينما تصف الأجزاء المتبقية أفعاله الشنيعة ضد المدينة المقدسة ، وتدنيسه للموقع وإهماله للمراكز الدينية الشمسانية البابلية التابعة لشيشمس ، فضلاً عن النفي القسري الذي فرضه على الإله "مردوك" إلى مدينة "آشور". وتستمر الرواية لتقدم التفسير اللاهوتي المألوف القائل بأن "مردوخ" في غضبه هو من سمح لسنحاريب بالنجاح في مخططه ، وتختتم بعودة الإله إلى معبد "إيساجيل . عشق الإله" في بابل بعد نفي دام واحداً وعشرين عاماً . ويضيف نابونيد أن "مردوخ" كجزء من العقاب حرّض ابن سنحاريب (الذي وُصف بلقب "ملك سوبارتو") على قتل أبيه ، يشير نابونيد أيضاً إلى تدنيس معبد "إيولماش" في "سيبار–أنونيتوم" وإن كان

ينسب هذه المرة إلى الإله " شيسن" الدور التوجيهي في مجريات هذه الأحداث ، تُستحضر هذه الأحداث الدرامية أيضاً في نصين مجتزأين من بابل يعودان إلى العصر الهيلينستي ، ويسجلان تبادلاً مزعوماً للمراسلات بين نابوبلاسر وسين–شارو–إيشكون، حيث يُفصِّل المبرر الرئيسي الذي ساقه الملك البابلي المتمرد لشن الحرب على آشور ، وتُصوِّر هذه النصوص سنحاريب مجدداً بصفته من دنّس بابل ، بينما تصف نابوبلاسر بأنه "منتقم أكد" . الذي اختاره الإله مردوخ لإنهاء الحكم الآشوري والانتصار للمدينة المقدسة . وتشير هاتان الرسالتان الأدبيتان إلى أن فكرة القصاص عن خطيئة سنحاريب باعتبارها تفسيراً لسقوط آشور وصعود بابل كقوة إمبراطورية قد استمرت حاضرة في التأريخ البابلي حتى العصر السلوقي .

لقد عنى لجوء البابليين إلى التحالف مع الميديين لتدمير آشور أن بإمكان القوتين المطالبة بالميراث الآشوري على قدم المساواة ، وفي الواقع ، ظل المؤرخون لفترة طويلة يشككون في أن الملوك البابليين قد طرحوا أي مطالبة جدية بالمنطقة التي شكلت القلب التاريخي لآشور . غير أن مخطوطات لنقوش تعود لنبوخذ نصر ، ظهرت في السنوات القليلة الماضية ، قد حسمت هذا الأمر ، إذ تذكر بعض النقوش آشور بالاسم كإقليم تابع لمملكة نبوخذ نصر وتُقابلها بأكد ، أو تشير إليها باسم "سوبارتو" وإلى بابل باسم "سومر وأكد ويُرجح أن نبوخذ نصر قد طالب بالسيطرة على آشور التاريخية سعياً لبسط سلطانه الملكي على كامل بلاد الرافدين ، وليس فقط على بابل وممتلكاتها في بلاد الشام .

وثمة حقيقة تجدر الإشارة إليها ، لم يُذكر اسم أي ملك آشوري في نقوش نابوبلاسر ونبوخذ نصر وخلفائه المباشرين غير أننا نشهد تغيراً مفاجئاً مع عهد نابونيد . لا يكتفي آخر ملوك بابل بالإشارة المباشرة إلى أفعال سنحاريب وحدها ، بل يذكر أيضاً في نقوشه ملوك العصر الآشوري الحديث شلمنصر الثالث ووالده آشور ناصربال الثاني ، وأسرحدون ، وآشور بانيبال ، وآشور إيتيل إيلاني . وفي جميع الحالات ، يصف هؤلاء الحكام بدقة بلقب "ملك آشور" . وترد معظم هذه الإشارات في سياق إعادة بناء المعابد والعثور على ودائع التأسيس الخاصة بهؤلاء الملوك في حران وتحديداً في معبد "إيخولخول" وفي أكد ، داخل معبد "إيولماش" كما تظهر إشارات أخرى في السرد المتعلق بحياة "أداد–غوبي" والمدوّن على مسلتها الجنائزية المكتشفة في حران ، والتي كُتبت أيضاً في سياق إعادة بناء معبد "إيخولخول" ، وفي مسلته المكتشفة في بابل ، يشير نابونيد إلى ختم أسطواني يحمل صورة للإله "شيسن" وهو الختم الذي كان آشور بانيبال قد أودعه في معبد "إيساجيل" ، والذي يُرجح أنه قدّم الملامح التي استُند إليها في تشكيل الصورة المجددة لإله القمر الخاص بمدينة حران ويبدو جلياً أن نابونيد الذي ربما كانت له جذور آشورية جزئية من جهة والدته كان لديه اهتمام كبير بربط حكمه بحكم السلالة السرجونية .

إن ذكرى آشور لم تكن حية فقط في النصوص الملكية . تحتوي النصوص الأرشيفية البابلية الحديثة والمتأخرة على آلاف الأسماء الشخصية . وبعض هذه الأسماء تحتوي على اسم الإله آشور كعنصر ثيوفوري ، لكنها بابلية لغوياً . ربما كانت شائعة بين أحفاد العائلات الآشورية المزروعة في بابل . بعض أفضل الأدلة على مثل هذه الأسماء تأتي من أوروك في القرن السادس ، حيث من المحتمل جدًا أن يتم إعادة توطين مستعمرة من الآشوريين في القرن السابع وكانت لا تزال تدير معبدًا لآشور في القرن السادس . تسجل العديد من النصوص من أرشيف معبد إنانا عمليات تسليم السلع للقرابين في معبد آشور ، ويسرد نص واحد على وجه الخصوص أعضاء كلية الجعة (البيرة) والخبازين الذين يعملون في حرم آشور والذين تكون أسماؤهم في بعض الحالات ليس فقط من الناحية اللاهوتية ، ولكن أيضاً من الناحية اللغوية الآشورية (على سبيل المثال ، باني آشور لامور) . يشير النص أيضاً إلى هؤلاء الخدام الكهنة كرجال من لبي علي (تسمية لمجموعة تخدم المعابد) ، وهي تسمية شائعة في مدينة آشور في المصادر الآشورية ..

التعيين هو الوحيد المعتمد لهذا الإله في أرشيف معبد إنانا ، مما يشير إلى أن وصولهم إلى أوروك جاء بعد إصلاحات سنحاريب اللاهوتية الشمسانية والاعتماد المنهجي لهذا الاسم لآشور . ربما ليس من قبيل الصدفة أن أحد كبار المسؤولين في معبد إنانا في أوائل عهد آشوربانيبال كان يحمل اسم آشور–بلو–أوسور ، وهو اسم يبدو غير معتاد إلى حد كبير بالنسبة للبابليين ، وخاصةً موظف المعبد او المجيور . تشكل هذه النصوص الدليل القوي الوحيد الذي لدينا على استيراد عبادة آشور إلى بابل وبقائها بعد سقوط نينوى .

شهد العصر الهلنستي إحياءاً للحضارة البابلية ، التي انحصرت في الغالب في المعابد والجماعات الاجتماعية التي كانت تتجمع حولها . وقد أدت معابد أورو وبابل ، وفي بعض الحالات منازل الكهنة والعلماء الشمسانيين ، إلى إنشاء مكتبات تضم مئات المخطوطات من النصوص المسمارية التقليدية المتعلقة بالادب الديني الشمساني ويحفظ عدد قليل من هذه النصوص مواد آشورية أو ذكريات عن آشور بأشكال مختلفة عن تلك النصوص . في أوروك لدينا دليل على حفظ التقاليد النصية الآشورية الشمسانية ، والذي يحتوي على جزء من شرح اللوح 42 من سلسلة باروتو ، وهو فريد من نوعه من نواحٍ عديدة ، فهو مكتوب بالخط الآشوري الحديث ويحمل خاتمة مكتبة آشوربانيبال كان النص محفوظًا كإرث عائلي في عائلة متعلمة . مثال آخر هو نص مجزأ منقوش عليه دعاء يذكر آشوربانيبال وجزء من نقش ملكي يعود إلى ذلك الملك نفسه ، يبدو أن النصوص العلمية الأخرى تلتزم بتقاليد المخطوطات

التي تختص بنينوى ، أو بمراكز تعليمية آشورية أخرى . وهذا لا ينطبق فقط على علم فحص الكبد ، بل ينطبق أيضاً على مجال التنجيم .

لقد حددت دراسات التقاليد المخطوطية للسلسلة التنجيمية "إينوما أنو إنليل" أن ورش نسخ المخطوطات في مدينة أوروك المتأخرة اتبعت من بعض النواحي تقاليد نينوى في ترقيم الألواح ، فضلاً عن اتباعها تقاليد آشورية في تنقيح أجزاء محددة من السلسلة . ومع ذلك ، يجب الإقرار بأن علماء أوروك في العصور المتأخرة ربما لم يدركوا بالضرورة أن هذه التقاليد المخطوطية قد نشأت في آشور . ورغم ذلك، فإن قائمة حكماء "الأبغالو الذين عاشوا قبل الطوفان وعلماء "الأومانو التاريخيين " التي اكتُشفت في مكتبة معبد "ريش" كانت بمثابة تذكير قوي بأهمية آشور في التاريخ الفكري لبلاد الرافدين ، إذ ربطت بين الحكيم الأسطوري "أحيقار" والملك الآشوري "أسرحدون". وعلى أية حال ، فإن وجود مخطوطة آشورية بالكامل على الأقل يثبت أن بعض علماء أوروك في العصر الهيلينستي كانوا على دراية بالماضي الآشوري وثقافته . وتدفعنا الأدلة المذكورة آنفاً والتي تشير إلى قدوم الآشوريين إلى أورو في القرن السابع لتنظيم طقوس عبادة الإله "آدي" إلى افتراض أن العلماء المحليين المتأثرين بذلك التقليد الوافد ، كانوا ينسبون جذورهم الفكرية إلى آشور حتى في العصر الهيلينستي ..

سادت نظرة مختلفة نوعاً ما في مدينتي بابل وبورسيبا فهناك أيضاً ، حافظت ورش النسخ المحلية على ذكريات عن آشور في العهد السرجوني بوصفها مركزاً للقوة ، وعن نينوى بوصفها مستودعاً للفكر والمعرفة الشمسانيّين. وهناك ثلاث رسائل أدبية تتعلق بطلب الملك "آشوربانيبال" تزويده بألواح لمكتبات نينوى الملكية إحداها تسجل رد علماء بورسيبا على طلب "آشوربانيبال"، وأخرى تسجل رداً مماثلاً من علماء بابل ، بينما تتضمن الرسالة الثالثة أمراً مباشراً من "آشوربانيبال" إلى سلطات بورسيبا بجمع الألواح من المنازل الخاصة ومن معبد "إيزيدا" ورغم تعذر تأريخ هذه المخطوطات بدقة ، إلا أنها تعود في الغالب إلى العصر الهيلينستي ، وإن كانت تعكس تقاليد أقدم بكثير . ولا يمكن حسم مسألة صحة هذه الرسائل بشكل قاطع فهي شأنها شأن الرسالتين المتبادلتين بين "نبوبولاصر" و"سين–شارو–إيشكون"– تندرج ضمن فئة "المراسلات الملكية"، التي قد تحتوي على عناصر واقعية ولكنها خضعت لاحقاً لتنميق كبير لأغراض تعليمية أو تمثيلية . ومع ذلك ، يبدو سياقها العام معقولاً تماماً ، نظراً لتوفر أدلة وافرة تعود إلى القرن السابع الميلادي حول أنشطة آشوربانيبال في جمع النصوص في بابل . ومن الجوانب المهمة في تقاليد مدينتي بابل وبورسيبا نظرتها التي تختزل دور نينوى في كونها مجرد متلقٍ للمعرفة البابلية ، وهو ما يتناقض مع الوضع في مدينة أورك (الوركاء) ، حيث كان يُعترف بأن مسار انتقال المعرفة كان يسير في الاتجاه المعاكس . وقد يعود هذا الاختلاف إلى احتمال أن مكتبة معبد "إيساجيل" كانت تؤدي وظيفة مكتبة ملكية بالفعل في ظل الحكم الآشوري ، تماماً كما يُرجح أنها فعلت ذلك في الفترات اللاحقة . كما بقيت ذكريات عن آشور حاضرة في نصوص "الحوليات" إذ يمكن نسبة غالبية مخطوطات الحوليات البابلية إلى أواخر العصر الأخميني والعصر الهيلينستي ، وكانت تنتمي إلى مكتبات

بابل ولا سيما مكتبة "إيساجيل" وإن كان بعضها قد جاء من بورسيبا . وتركز هذه الحوليات حصراً على التاريخ البابلي ، ولا تذكر الآشوريين باستثناء حالات قليلة إلا في سياق تدخلهم في الشؤون البابلية . ومع ذلك ، فهي تحتوي على قدر لا يستهان به من المعلومات حول آشور وحكامها ، ولا سيما أولئك الذين تقلدوا التاج البابلي . ورغم أن تقاليد تدوين الحوليات البابلية قد نشأت في الألفية الثانية ، إلا أن تسجيل المعلومات المنهجية فيها لم يبدأ إلا في عهد الملك "نابو-ناصِر" (747–734 ق.م) وهي الفترة نفسها التي اتخذ فيها التدخل الآشوري طابعاً منهجياً ومستمراً . وتتناول خمس من هذه الحوليات الأحداث الممتدة بين عام 745 ق.م وهو عام تولي "تيغلاث-بلاسر الثالث" العرش ونهاية الحكم الآشوري في بابل مع صعود "نابوبلاسر" إلى السلطة عام 626 ق.م. وتحتوي هذه النصوص على قدر وافر من المعلومات حول الصراع الثلاثي الأطراف بين آشور وعيلام وبابل خلال القرن السابع ..

تركز اثنتان من هذه الحوليات على حالات تعطل احتفالات رأس السنة الشمسانية التي تصادف في نيسان ، وكما ذُكر سابقاً ، يبدو أن الحولية الأخيرة تقيم رابطاً ضمنياً بين تدنيس سنحاريب لمدينة بابل الشمسانية وانهيار الحكم الآشوري في بابل . وتفصّل حوليتان أخريان أحداث عهد نبوبلاسر وصولاً إلى سقوط نينوى ، موفرتين تفاصيل وافية عن العمليات العسكرية والتحالفات السياسية التي أدت إلى سقوط آشور . وتسرد بعض الحوليات التاريخ المبكر للعلاقات الآشورية مع بابل ، إذ تغطي حوليتان تتداخلان جزئياً تاريخ بابل بدءاً من عهد آخر الحكام الكاشيين ووصولاً إلى عام 822 ، مع الإشارة أحياناً إلى التدخل الآشوري . ومما يثير الاهتمام بشكل خاص تلك الحولية التي تتناول الصراعات بين آشور وعيلام وبابل في الفترة ما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر ، وتستمد مادتها من "التاريخ الآشوري المتزامن" ومن مصادر مجهولة ربما تكون ملحمة تمجد الملك الكاشي كوريغالزو-. وبذلك ، تحفظ هذه الحولية في مخطوطة بابلية متأخرة ما يُرجح أنه كان رداً بابلياً مبكراً على مزاعم المؤرخين الآشوريين . وأخيراً، يُلاحظ أن "حولية الملوك القدامى" تنتهي بذكر أن الملك الآشوري القديم "إيلوشوما" كان معاصراً للملك "سوابو" (أي سومو-أبوم) ملك بابل . باختصار ، كان لدى العلماء البابليين في العصر الهيلينستي قدر محدود من المعلومات عن آشور ، ومعظمها يتعلق بملوك السلالة السرجونية . لذا ، ليس من المستغرب أن يقدم بيروسوس (بير عيسى) الذي يتمحور عمله حصراً حول مدينة بابل بعض التفاصيل عن الملوك الآشوريين في القرن السابع ، وقد لا تكون مجرد مصادفة أن هذه الشظايا المتبقية تتعلق بشكل شبه كامل بسنحاريب ، رغم أنها لا تشير صراحةً إلى جرائمه بحق بابل ..

نظراً لأن النصوص الآشورية القديمة تتناول التجارة في المقام الأول ، فإن معرفتنا بالدين خلال هذه الفترة أصبحت وفيرة للغاية خاصة بعد الترجمات التي ظهرت للمخطوطات بعد عام 1997 . وتشير بعض النصوص إلى سلع تابعة للمعابد أو الآلهة مثل الذهب والفضة المقدمة الى المعابد كنذور ، أو إلى أيمان تُؤدَّى باسم آلهة شتى يُستشهد بهم أيضاً ، كما تشير إلى أسماء كهنة شمسانيين شاركوا في التجارة البرية وقد عُبِدَت آلهة عديدة في مدينة آشور ، يمكننا تقسيمها على الشكل التالي ..

ـ الآلهة الرئيسية .. آدي وإيزيد

ـ الآلهة المتوسطة طاوسي ملك أو إله البرق والرعد كما تسميه المخطوطات وترمز له بطير الطاوس ..

ـ الآلهة الثانوية شيسن وشيشمس

ـ الآلهة الملهمة .. ناسردين سجادين شرفدين

ـ الآلهة الحاكمة .. آشور وعشتار

البانتيون الآشوري كان يضم آلاف الصفحات عن قصص إلهية وعبر وحكم وأمثال ونصوص دينية سنية وشمسانية وكذلك أقوال ونصوص للتعامل مع كل مظاهر الطبيعة والحيوانات والحشرات ونصوص تجعل فهم الإصطفافات الفلكية مهمة للمؤمنين وتجعلهم يرتبون أعمالهم واستقامتهم استناداً لها ، وكانت داسنايا او مدينة داسن تزود المعابد في العاصمة والأطراف بالكهنة والمجيورين والقوالين المتخصصين بأداء الطقوس الدينية خاصة أن ثلاثة أماكن مهمة كانت في العاصمة وهي معابد آدي وايزيد وطاوسي ملك وكان يقابلها قصور بمثابة معابد ثانوية لآشور وعشتار وأشخارا ، يمثلون إرادة الآلهة الثلاث ، فآشور وحكامه كانوا يطلقون على أنفسهم لقب " خادم آدي " وعشتار كانت تطلق على نفسها " خادمة ايزيد " و "أشخارا " كانت رمزية تمثل اله البرق والرعد " طاوسي ملك " ، كانت المراسيم الدينية مهمة للغاية في احتفالات الدولة وكان يتم التحضير لها لمدة طويلة قبل إقامتها على الشكل الذي يُرضي الملك وحتى الشعب ..

كانت معابد "أدي" و"آشور" و"عشتار" و"إشخارا" بمثابة مخازن للبضائع والنذور التي كانت تُدار من قبل القائمين عليها من الكهنة الشمسانيين ، غير أن خزانة الإله آشور ، ربما كانت تُحفظ في مبنى البلدية (أو مقر إدارة المدينة) نظراً لكونها تقع تحت مسؤولية الوكيل الإداري ، وفي مدينة "كانيش"، كانت تؤدى الأيمان عند بوابة الإله " آدي " التي كانت تُعرف أيضاً بـ "الحرم المقدس" ، وهي البوابة التي ربما مثّلت مصلّىً مكرّساً للإله كجزء من مجمع مكاتب

الـ "كاروم" (المؤسسة التجارية) . وقد ورد ذكر كهنة شمسانيين يرتدون الأبيض كاملاً لدورهم في النشاط التجاري فعلى سبيل المثال، كان "مانوبا" كاهن آشور يتلقى الفضة المكتسبة من التجارة في الأناضول كما امتلك أحد كهنة "سوين" واحداً من المنازل القليلة التي أتيح فيها شراء القصدير والمنسوجات المخصصة للتصدير إلى الأناضول ومن بين الشخصيات التي حملت لقب "عليمو" (المسؤول السنوي الذي يُؤرَّخ العام باسمه) في آشور: "إلعلي" كبير مسؤولي المعبد و"إدين–آشور" –وهو ابن كاهن ..

وتُظهر رسائل النساء اهتماماً كبيراً منهن بالشؤون الدينية ، فقد كنّ يقدّمن القرابين للمعابد ، ويؤدين النذور للآلهة ، ويذكّرن أزواجهن بواجباتهم تجاه الآلهة . وغالباً ما تولّت النساء المنخرطات في الحياة العامة في آشور مهاماً دينية إذ كانت هناك مهن دينية تشغلها النساء تقليدياً ، وكذلك بعض النساء من اللائي كنّ ينذرن أنفسهن لخدمة آدي وأحدث الخلل في الترجمات عدم تمميز بين الكاهنات وبين نساء كن يمارسن أعمال غير دينية مثل مفسّرة الأحلام والعرافة ، والمرأة المكرّسة وقد كتبت امرأتان رسالة إلى قريب لهما . انت زاهد وتتبرع كثيراً بالفضة والمقدمات للآلهة لكن الإله آشور حاكم البلاد والعباد غير راض عنك أرجو ان تستقر في الجانب الشمالي من المملكة لتسلم بحياتك .

تأتي المعلومات المتعلقة بالحياة اليومية في المقام الأول من الرسائل العديدة الموجودة في أرشيفات التجار والمتبادلة بين أفراد الأسرة المختلفين ، وبشكل أكثر تحديداً ، من مراسلات النساء يمكن أن يضم أرشيف أسرة آشورية مئات النصوص أو أكثر ، تتناول في المقام الأول التجارة لمسافات طويلة ، وتتناول ثانياً موضوعات أخرى مثل الحياة اليومية . وكانت هذه النصوص تُرتّب على أرفف بمحاذاة جدران المنازل أو تُحفظ في صناديق خشبية وجرار فخارية مزودة ببطاقات مطبوعة على احجار كريمة لتحديد محتواها ، تحمل أغلفة الرسائل والعقود ، وكذلك البطاقات طبعات أختام أسطوانية تعمل بمثابة توقيع وعلامة ملكية ، وبهذه الطريقة كانت النصوص القانونية المختومة تُعتمد وتوثّق يُعد النظام المقطعي المستخدم خلال العصر الآشوري القديم بسيطاً نسبياً ، إذ لا يتجاوز عدد علاماته 150 إلى 200 علامة ، مع ندرة شديدة في استخدام العلامات الدالة على كلمات كاملة والعلامات المقطعية المعقدة .

ويبدو أن الرسائل كانت تُكتب غالباً بأيدي أصحابها أنفسهم ، إذ قد تفسّر حاجة التجار إلى التنقل سبب عدم استعانتهم بخدمات الكتبة . ورغم أن التدريب المهني للكتبة كان يمكن أن يتم في منزل معلم يُدرّب عدداً قليلاً من التلاميذ ، إلا أن الكثيرين تعلموا مبادئ الكتابة في المعبد وقسماً في المنزل مما أتاح لهم كتابة مراسلاتهم وملاحظاتهم الشخصية بأنفسهم . ويمكن التمييز بين الألواح المتقنة الصنع والمكتوبة بخط منتظم ، وبين ألواح أخرى ذات أشكال

غير متقنة وكتابة خشنة أو غير مرتبة ، ومن المحتمل ألا يقتصر تعلم القراءة والكتابة على الرجال فحسب، بل شمل بعض النساء أيضاً ومن بين الألواح المُرسلة سواء من قبل الرجال أو النساء تظهر بعض النصوص أخطاءاً كثيرة في العلامات والقواعد اللغوية ، مما يرجح بشدة أنها كُتبت بأيدي أصحابها أنفسهم .

تمثل الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد مرحلة انتقالية بين العصر الآشوري القديم والعصر الآشوري الوسيط ، وهما عصران تحظى أحداثهما بتوثيق وافٍ ومفصل . ففي العصر الآشوري القديم اقتصرت دولة آشور على مدينة آشور والمدن المحيطة بها ، آشور نفسها كمدينة كانت تجارية صغيرة تتمتع بحكم ذاتي اقتصادي . أما في العصر الآشوري الوسيط، فقد تطورت الدولة لتصبح كياناً إقليمياً واسعاً مُنظَّماً في مقاطعات وامتدت أراضيها على طول نهر دجلة وفي منطقة الجزيرة . وتُعد "المرحلة الانتقالية" الفاصلة بين هاتين الحقبتين التاريخيتين إحدى "العصور المظلمة" في تاريخ بلاد الرافدين ، إذ تتسم التطورات التاريخية داخل مدينة آشور ومحيطها بالغموض الشديد في أحسن الأحوال أو تكون مجهولة تماماً ، وذلك بسبب الندرة الحادة في المصادر التاريخية ..

وفي أواخر العصر الآشوري القديم ، وتحديداً خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، خضعت مدينة آشور إلى حد كبير لهيمنة قوى خارجية فقد حكمتها السلالة الأمورية التي أسسها "شمشي-أداد الأول" (أو "سامسي-أدو" بلغته الأمورية الأصلية) و" شمس آدي باللغة الأكدية " وبسط نفوذه من خلالها على معظم أجزاء أعالي بلاد الرافدين حتى وفاته قرابة عام 1776 قبل الميلاد . وقد واصل ابنه "إشمي-داغان الأول" حكم مدينة آشور باعتبارها العاصمة الدينية لمملكته التي تقلصت مساحتها ، وذلك إلى جانب عاصمته الإدارية "إيكالاتوم" التي كانت تقع على مسافة قصيرة شمالي آشور . لقد بسطت ممالك "إيكالاتوم" و"إشنونا" و"بابل" سيطرتها على آشور في مراحل مختلفة خلال تلك الفترة الغامضة الممتدة تقريباً بين عامي 1775 و1720 قبل الميلاد ، ورغم ذلك ، يبدو أن المدينة احتفظت بقدر من الاستقلال الذاتي ، وحافظت على بنيتها المؤسسية الأساسية كدولة مدينة ، وعلى مستوطنتها التجارية في الأناضول . وتستند معرفتنا بمدينة آشور خلال هذه الفترة إلى أدلة وثائقية تأتي في المقام الأول من مناطق أعالي بلاد الرافدين ولا سيما مدن ماري (تل الحريري) ، وقطارة (تل الرماح) ، وشخنا (تل ليلان) ومن مدينة "كانيش" (كول تبه) في وسط الأناضول . تنقطع المعلومات المستمدة من كل هذه المصادر قرابة عام 1720 قبل الميلاد ، تزامناً مع نهاية "كاروم كانيش" في طبقتها " آب " ، وهي المحطة التي تؤذن ببدء "العصر المظلم" أو "المرحلة الانتقالية" التي تلت ..

تُعد النقوش الملكية والنصوص الأرشيفية المتعلقة بحكام مدينة آشور كثيفة للغاية فيما يخص القرون السابع عشر إلى الخامس عشر قبل الميلاد ، وذلك على الرغم من أن المصادر التأريخية التي دُوّنت في فترات لاحقة مثل قوائم الملوك والحوليات تُسجّل سلسلة من الملوك الذين حكموا مدينة آشور . كما أن المصادر القادمة من خارج آشور لا تُسلط الضوء كثيراً على المدينة ومحيطها ، باستثناء بعض الأدلة غير المباشرة المستمدة من الأناضول الحيثية ومن "نوزي" (يورغان تبه)، وهي بلدة تقع شرق آشور ..

يتعين دراسة التاريخ السياسي لآشور في الفترة التي تلت عهد "شمشي–أداد الأول" بالاعتماد على الصيغة المعتمدة لـ "قائمة الملوك الآشوريين ويُشار إليها اختصاراً بـ " أكل " وجزء آخر من قائمة ملوك عُثر عليه في آشور ، وهو النص المعروف بـ "كهف 14 " وتجدر الإشارة إلى أن هذه النصوص قد دُوّنت في فترات متقاربة ، مما يستدعي الثقة بها والأخذ بمعطياتها على الشكل الأكمل ، تغطي قائمة الملوك الآشوريين " أكل " لمعروفة من خلال خمس مخطوطات متفاوتة الطول حقبة زمنية طويلة من تاريخ السلالات الحاكمة في آشور ، تمتد من العصور القديمة وصولاً إلى العصر الآشوري الحديث . وتشير بعض الأدلة غير المباشرة إلى أن الصيغة الحالية للقائمة قد تبلورت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد كحد أقصى ، ثم خضعت لعمليات تحديث دورية ، إذ تتضمن أحدث النسخ الباقية أسماء ملوك تمتد حتى القرن الثامن قبل الميلاد . وتصف القائمة الفترة التي نتناولها بالبحث أي من منتصف القرن الثامن عشر تقريباً وحتى أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد على النحو التالي :

ـ حكم عشمي–داغان (الأول) ، ابن شمشي–أداد (الأول) ، لمدة أربعين عاماً .

ـ حكم آشور–دوغول — وهو من سلالة غير ملكية (أي من عامة الشعب) ولم يكن له حق في العرش لمدة ست سنوات .

ـ في عهد آشور–دوغول و آشور–أبلا–آدي ، وناسر–سين ، وسين–نامير ، وإبقي–عشتار ، و أدي–صلولو، و داسي وهم ستة ملوك من عامة الشعب حكم كل منهم لمدة "سنة واحدة (أو بداية فترة مدتها سنة واحدة) .

ـ حكم بيل–باني ، ابن داسي ، لمدة عشر سنوات .

ـ حكم ليبايا ، ابن بيل–باني ، لمدة سبع عشرة سنة .

ـ حكم شارما–أداد (الأول)، ابن ليبايا، لمدة اثنتي عشرة سنة .

- حكم إب–تار–سين ، ابن شارما–أداد (الأول)، لمدة اثنتي عشرة سنة .

- حكم بازايا ، ابن بيل–باني ، لمدة ثمانية وعشرين عاماً ..

- حكم لوللايا لمدة ست سنوات .

- حكم كيدين–نينوا ، ابن بازايا، لمدة أربع عشرة سنة ..

- حكم شارما–أداد (الثاني) ، ابن كيدين–نينوا ، لمدة ثلاث سنوات ..

- حكم إريشوم (الثالث) ، ابن كَدّي–نينوا ، لمدة ثلاث عشرة سنة .

- حكم شمشي–أداد (الثاني) ، ابن إريشوم (الثالث)، لمدة ست سنوات .

- حكم إشمي–داغان (الثاني) ، ابن شمشي–أداد (الثاني) ، لمدة ست عشرة سنة .

- حكم شمشي–أداد (الثالث) ، ابن إشمي–داغان (الثاني) وهو شقيق شارما–أداد (الثاني) ، ابن كيدين–نينوا لمدة ستة عشر عاماً .

- حكم آشور–نيراري (الأول) ، ابن إشمي–داغان (الثاني) لمدة ستة وعشرين عاماً .

- حكم بوزور–آشور (الثالث) ، ابن آشور–نيراري (الأول)، لمدة أربعة عشر عاماً (وفي رواية أخرى: أربعة وعشرين عاماً) ..

- حكم إنليل–نصير (الأول) ، ابن بوزو–آشور (الثالث) ، لمدة ثلاثة عشر عاماً ..

- حكم نور–إيلي، ابن إنليل–نصير (الأول) ، لمدة اثني عشر عاماً ..

- حكم آشور–شادوني ، ابن نور–إيلي، لمدة شهر واحد ..

- أزاح آشور–رابي (الأول)، ابن إنليل–نصير ، (آشور–شادوني عن العرش) واعتلى العرش وحكم لمدة سبعة من السنين ..

- حكم آشور–نادين–أخّي (الأول) ، ابن آشور–رابي (الأول) ، لمدة ستة سنين ..

- أزاحه شقيقه إنليل–نصير (الثاني) عن العرش (و) حكم لمدة ست سنوات ..

ـ حكم آشور–نيراري (الثاني) ، ابن إنليل–نصير (الثاني) ، لمدة سبع سنوات ..

ـ حكم آشور–بيل–نيشيشو ، ابن آشور–نيراري (الثاني) ، لمدة تسع سنوات ..

ـ حكم آشور–ريم–نشو ، ابن آشور–بيل–نشو ، لمدة ثماني سنوات .

ـ حكم آشور نادين أخخي (الثاني) ، ابن آشور ريم نشو ، حكم لمدة عشر سنوات ..

وفقاً لقائمة الملوك الآشوريين ، انتهت سلالة شمشي–أداد الأول وحكمها لمدينة آشور بانتهاء فترة حكم ابنه "إشمي–داغان الأول" التي استمرت أربعين عاماً . ومع ذلك لا يفهم من ترجم هذه الألواح المتعلقة بهذه المرحلة فالطبيعة الاجتماعية غائبة عن أذهان المترجمين ووصف الشعب الآشوري في عهد شمشي ـ آدد بأنه من أسعد الشعوب على الأرض تم تجاهله وكذلك الحالة الروحية والفكرية والرفاهية التي وصل اليها الشعب أيضاً تم تجاهله ، وكانت الحالة السياسية في عهده مستقرة تماماً، وهو ما تكشفه رسائل "ماري" ، ولم يضطر أحد لمغادرة المنطقة والعودة إليها عدة مرات خلال السنوات الإحدى عشرة التي تلت وفاة شمشي–أداد الأول . وتمتعت مدينة آشور بقدر كبير من الرفاهية والاستقرار السياسي وكانت مخازن الشعب من الأطعمة والبضائع مليئة ، حتى في ظل هيمنة قوى خارجية مختلفة في الفترة التي تلت عهد شمشي–أداد الأول . وتصف قائمة الملوك الآشوريين فترة حكم "آشور–دوغول" –التي استمرت ست سنوات وشهدت حكماً وجيزاً لستة أفراد آخرين ، والذين ربما كانوا مجرد أسماء لموظفي "الليمو" (أصحاب الأسماء السنوية) بأنها مرحلة انتقالية هيمن عليها حكام غير شرعيين وُصفوا بأنهم "أبناء لا أحد" (أي من عامة الشعب أو غير ذوي أصول ملكية) ، وذلك قبل تأسيس سلالة حاكمة مستقرة في عهد "بيل–باني ..

ورغم هذه المغالطات في الترجمات بمدة حكم إشمي–داغان الأول ، ينبغي اعتبار مدد الفترات اللاحقة الواردة في قائمة الملوك الآشوريين صحيحة وموثوقة من حيث المبدأ ، إذ يُرجح أن هذه البيانات مستمدة من سجلات زمنية دقيقة ، مثل قوائم "الليمو" (الأسماء السنوية) والحوليات التاريخية التي كانت تدوّن بعناية يوضع قسم منها في القصور وقسم منها في لالش الحرم المقدس في العهد الآشوري . والواقع أن نصوصاً تاريخية توثق عدد السنوات بدقة قد وصلتنا من العصر الآشوري القديم والعصور اللاحقة مما يشير إلى أن وثائق من هذا النوع كانت تُنتج باستمرار في مدينة آشور وتحفظ بطريقة بارعة ، حتى خلال ما يُعرف بـ "العصر المظلم" أو "المرحلة الانتقالية". في المقابل، تبيّن أن البيانات الأنسابية الواردة في "قائمة ملوك آشور للفترة الممتدة من "بيل–باني إلى "آشور–نادين–أخي الثاني غالباً ما كانت دقيقة للغاية وموثوقة ؛ إذ تعكس عملاً تحريرياً استند إلى بيانات مكتملة خلال فترة لاحقة ولذا ، ينبغي التعامل مع التسلسل السلالي الوارد في ذلك الجزء من القائمة بشيء من المصداقية والتعبير الوافي عن الحقيقة . وتُمثّل

الوثيقة الرابعة عشر المصنفة في المتحف الملكي البريطاني على أنها "كهف 14 " تقليداً مختلفاً بشأن السلالات التي حكمت مدينة آشور إذ تُدرج القائمة ثلاث سلالات وفق تسلسل تاريخي دقيق للغاية ولا يعتريه أي شك ، وتفصل بينها بخطوط فاصلة ، السلالة الآشورية القديمة المحلية التي سبقت عهد "شمشي-أداد الأول" والسلالة الأمورية التابعة لـ "شمشي-أداد الأول" ، ثم السلسلة اللاحقة لملوك آشور ، تجدر الإشارة بشكل خاص إلى ورود اسمين غير مذكورين في "قائمة ملوك آشور " أكل " ، وهما: موتا شكور ورمو . عمّوش ، من سلالة شمشي-أداد. وقد ورد ذكر "موتا - شكور" في عدد من رسائل "ماري" بصفته ابن "إشمي-داغان الأول" ، إذ كان قد بلغ سن الرشد في أربعينيات القرن الثامن عشر قبل الميلاد (حوالي 1760 ق.م) بما يكفي لقيادة جيش والتخطيط للزواج من ابنة ملك "التوروكيين ومن ثم ، اعتلى نحو نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد عرش أبيه في مدينة "إيكالاتوم" وحكم أيضاً مدينة "آشور" المجاورة ، إن "قائمة ملوك آشور " أكل " تكون قد أغفلت ذكره وذكر من يُحتمل أنهم خلفوه في الحكم ، والذين ربما حكموا "آشور" انطلاقاً من "إيكالاتوم". ومع ذلك ، لا يمكن استبعاد احتمالية أنهم حكموا "إيكالاتوم" ومحيطها فقط دون الاحتفاظ بالسيطرة على "آشور" .

الفصل السابع

الرموز التصويرية للأفكار

كان موقع المملكة الآشورية العظمى يقع في الجزء العلوي من وادي بلاد الرافدين . وقد أقيمت المدن التي تعاقبت لتكون عواصم لها جميعاً على المجرى الأوسط لنهر دجلة ، وشكّل قلب البلاد منطقةً تمتد على جانبي النهر ، محصورةً بين خطي العرض 35 و37. ومع مرور الوقت ، توسعت هذه الحدود ، نتيجة التوسع السكاني ، وأصبح مصطلح "آشور" يُستخدم بشكل أوسع للإشارة إلى رقعة شاسعة ومهمة المعالم تمتد في جميع الاتجاهات انطلاقاً من تلك المنطقة المركزية . فقد اعتبر هيرودوت بابل بأسرها مجرد مقاطعة تابعة لآشور ، بينما أدرج بليني منطقة بلاد الرافدين بأكملها ضمن نطاقها . أما سترابو ، فقد أشار إلى جانب تلك المناطق جزءاً كبيراً من جبال زاغروس وكل سوريا وصولاً إلى كيليكيا وفينيقيا وقبرص .

وإذا ما تركنا جانباً التعريفات التقليدية التي تتسم بالوضوح والدقة وسعينا لتحديد معالم طبيعية يمكن اعتبارها الحدود الفعلية للبلاد ، فإننا نلحظ في اتجاهين اثنين خطاً فاصلاً يكاد يكون قاطعاً ولا لبس فيه . فمن جهة الشرق تشكل سلسلة جبال زاغروس الشاهقة التي لا يمكن اختراقها إلا عبر ممر أو ممرين حاجزاً طبيعياً بارزاً للغاية وجزءاً مهماً من آشور ، وهي بلا شك الحد الطبيعي الذي نبحث عنه . ومن جهة الجنوب ، يفصل آشور عن بابل التي يُفضل اعتبارها بلداً مستقلاً خطٌ أقل بروزاً ولكنه محدد بوضوح ويتشكل هذا الخط عند نقطة التقاء السهل المرتفع قليلاً (في الشمال) بالتربة الرسوبية للوادي السفلي . أما في الاتجاهين المتبقيين ، فيبقى تحديد الحد الأنسب أمراً أكثر إثارة للجدل إذ يمكننا اتجاه الشمال اعتبار سلسلة جبال طور عابدين حداً طبيعياً ، أو مجرى نهر دجلة الممتد من ديار بكر إلى "تيل" أو ربما حتى السلسلة الجبلية الأرمنية الواقعة شمال ذلك الجزء من نهر دجلة ، حيث ينبع النهر ويتلقى روافده الأولى . أما جهة الغرب ، فيمكننا حصر "آشور" في المنطقة التي ترويها روافد نهر دجلة ، أو توسيع نطاقها ليشمل نهر الخابور وروافده ، أو حتى المضي أبعد من ذلك لنشمل كامل بلاد ما بين النهرين ، بحيث يكون نهر الفرات هو الحد الفاصل لها. وبوجه عام ، يُعتقد أن الحدود الأوسع هي الأدق تاريخياً في كلتا الحالتين اللتين قد تثيران الجدل ، إذ تنتشر الآثار الآشورية في كامل المنطقة الواقعة بين دجلة والخابور ، وتكثر على ضفتي هذا الأخير

مما يقدم دلالات قاطعة على استيطان طويل الأمد لتلك المنطقة من قِبَل ذلك الشعب العظيم من شعوب بلاد ما بين النهرين . وتُظهر النقوش أن الفاتحين ضمّوا مساحات أوسع بمرور الزمن ، وإذا أردنا رسم خط فاصل بين الأراضي التي أُلحقت فعلياً بالدولة الآشورية وتلك التي اكتُفي بفتحها وإخضاعها للسيطرة ، فلن نجد حداً أفضل من نهر الفرات غرباً، وسلسلة الجبال المكسوة بالثلوج –التي عرفها القدماء باسم "جبل نيفاتيس" شمالاً ، هو اسم تاريخي قديم لجبل ضمن سلسلة جبال طوروس في أرمينيا (المنطقة الحدودية بين جنوب شرق تركيا والعراق حالياً) وقد اشتهر بكونه الموقع الذي ذكره الشاعر جون ميلتون في ملحمته "الفردوس المفقود" بوصفه المكان الذي هبط فيه إله الشر لأول مرة على سطح الأرض ليتأمل المشهد ..

يتمثل التقسيم الطبيعي الرئيسي للبلاد في ذلك الذي يحدثه نهر دجلة ، إذ يفصل النهر الذي يجري مساره تقريباً من الشمال إلى الجنوب بين منطقتي "تِل بلا" و"سامراء" بلاد آشور إلى قسمين : غربي وشرقي . ومن بين هذين القسمين ، ظل القسم الشرقي أي الواقع على الضفة اليسرى لدجلة هو المنطقة الأكثر أهمية تاريخياً ، رغم كونه أصغر مساحةً بكثير . فهذه المنطقة، التي تبدأ ضيقة نسبياً ، تزداد اتساعاً كلما اتجهنا مع مجرى النهر نحو الأسفل حتى تبلغ عرضاً يتراوح بين 130 و140 ميلاً عند خط العرض الخامس والثلاثين تقريباً . وتتألف المنطقة في الغالب من سلسلة من السهول الخصبة والمنتجة الممتدة على طول مسارات الروافد المتعددة المنحدرة من جبال زاغروس لتصب في دجلة ، وهي سهول غالباً ما تتسم بطبيعة شبه رسوبية . ومع ذلك ، فإن هذه السهول ليست متصلة ببعضها ، إذ تقطع الأراضي المنبسطة الخصبة سلاسلُ تلالٍ منفصلة تسير في اتجاه موازٍ لسلسلة جبال زاغروس ، فتعمل على فصل السهول عن بعضها البعض ، كما ترفد المنطقة بجداول ومجاري مائية صغيرة تضاف إلى الأنهار المتعددة التي تنبع من داخل الحواجز الجبلية العظيمة أو من ورائها ، وتعبر السهول في طريقها إلى دجلة . أما التلال نفسها المعروفة حالياً بأسماء مثل "جبل مقلوب" و"عين الصفرة" و"قره جوق" و " عين سفني " وسلسلة الجبال التي تقع عليها اغلب البلدات التابعة للعرش الآشوري وأهمها " القوش " فهي في معظمها جبال جرداء وقاحلة وتتخذ هذه الجبال شكلاً محدباً يشبه ظهر الجمل ، فتبدو خطوطها الخارجية ملساء ومستوية عند النظر إليها من بعيد، لكن عند الاقتراب منها يتبين أنها صخرية ووعرة . وتتخلل جوانبها الكلسية أخاديد لا حصر لها ، وتكتسي بمظهر جاف وقاحل ، إذ تظل حتى في فصل الربيع عاريةً غالباً وخالية من الغطاء النباتي . وتتجلى هذه القحولة بوضوح أكبر في الجانب الغربي المواجه لأشعة الشمس الحارقة وقت الظهيرة ، بينما يكتسي المنحدر الشرقي أحياناً بغطاء نباتي شحيح من أشجار البلوط القزمية أو الشجيرات المتقزمة . وفي التربة الخصبة الغنية لهذه السهول ، عادة ما تجري الأنهار في مجارٍ عميقة ومحجوبة عن الأنظار ، باستثناء فصلي الربيع وأوائل الصيف حيث يزداد منسوب

المياه فيها بشكل كبير بفعل الأمطار وذوبان الثلوج في الجبال ، فتصل المياه إلى حافة الضفاف أو حتى تفيض لتغمر الأراضي المنبسطة المحيطة ، أهم هذه الأنهار هي : نهر "الكرنب" أو "الخابور الشرقي"، الذي يصب في دجلة عند خط عرض 37 درجة و12 دقيقة ونهر "الزاب الكبير" (الزاب الأعلى) ، الذي يمر بمحاذاة أطلال نمرود ويصب في المجرى الرئيسي عند خط عرض 30 درجة تقريباً ، ونهر "الزاب الصغير" (الزاب الأسفل)، الذي يلتقي بدجلة عند خط عرض 35 درجة و15 دقيقة تقريباً ونهر "العظيم"، الذي يصب في دجلة أسفل سامراء بقليل ، عند خط عرض 34 درجة تقريباً ونهر "ديالى"، الذي يصب حالياً أسفل بغداد ، وإن كانت بعض تفرعاته قد دخلت أحياناً في نهر دجلة عند نقطة تقع أسفل مصب نهر العظيم بقليل . ومن بين هذه الأنهار ، يجري أكثرها شمالاً وهو نهر الخابور في منطقة غير مطروقة (لم تسلكها الطرق المعتادة) ، وهي المنطقة الواقعة بين "جولاميرك" ونهر دجلة. ينبع النهر من منطقة تقع غرب "جولاميرك" بقليل ، وتُعد من أعلى المناطق الجبلية في الشمال الآشوري ، ويتخذ مساراً عاماً نحو الجنوب الغربي حتى يلتقي بفرع كبير آخر قادم من المنطقة الواقعة مباشرة غرب "العمادية" ، ثم يتدفق غرباً تماماً ، أو باتجاه يميل قليلاً نحو الشمال الغربي ، ليصل إلى "زاخو" ، وبعد تجاوزها ينعطف شمالاً ثم يعود ليجري باتجاه الجنوب الغربي حتى يصل إلى نهر دجلة . تبلغ المسافة المباشرة من المنبع إلى المصب حوالي 80 ميلاً إلا أن هذه المسافة تتضاعف لأكثر من مرتين بسبب تعرجات النهر . يُعد الخابور نهراً كبيراً وعريضاً وسريع الجريان إذ يتعذر عبوره خوضاً في كثير من المواسم ..

أما القلب الحقيقي لآشور فكان يتمثل في الأراضي المحاذية لنهر دجلة ، والممتدة بين خطي عرض 35 درجة و36 درجة و30 دقيقة . وضمن هذه الحدود، قامت المدن الأربع الكبرى التي تشير إليها التلال الأثرية في خورس آباد والموصل ونمرود وقلعة شرقاط إلى جانب العديد من المواقع الأقل أهمية . ساد الاعتقاد بأن الضفة اليسرى للنهر كانت تمثل "آشور" الحقيقية أكثر من الضفة اليمنى ، وهي فكرة صحيحة إلى حد ما ، إذ كانت الضفة اليسرى تتمتع بالفعل بأهمية وقيمة استراتيجية كبرى ، مما أدى بطبيعة الحال إلى تشييد ثلاث من العواصم الأربع على ذلك الجانب من النهر . ومع ذلك ، فإن مجرد وجود عاصمة مبكرة واحدة على الضفة اليمنى يكفي للتدليل على أن كلا ضفتي النهر كانتا مأهولتين من قِبَل هذا الشعب منذ البداية وهي استنتاج تؤكده بقوة شواهد أخرى في أرجاء المنطقة تنتشر الآثار الآشورية التي تمثل بقايا مدن هامة في كامل المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والخابور ، سواء شمال سلسلة جبال سنجار أو جنوبها . وتوجد على ضفاف الخابور الأسفل بقايا قصر ملكي ، إلى جانب آثار أخرى عديدة تشير إلى أن المنطقة التي يجري فيها النهر كانت مأهولة بصفة دائمة من قِبَل الآشوريين . كما يُعرف بوجود تلال أثرية يُرجح أنها آشورية على امتداد مجرى الرافد الغربي الكبير لنهر الخابور ، بل عُثر حتى بالقرب من "سروج" في

المنطقة الواقعة بين حران والفرات على أدلة لا تقتصر على الانتماء فحسب ، بل تشمل التبعية الفعلية . ولعل الآثار تكون أكثر كثافة على الجانب المقابل لنهر دجلة وهي على أية حال أكثر لفتاً للانتباه وأهمية فمواقع "بافيان"، و"خورس آباد"، و"شريف خان"، و"نبي يونس"، و"تل كونجي"، و"نمرود" التي قدمت أثمن الآثار الآشورية وأكثرها إثارة للاهتمام تقع جميعها شرق دجلة ، في حين لم يسفر الجانب الغربي إلا عن موقعين اثنين قدما بقايا أثرية تضاهي تلك المواقع ، وهما "أربان" و"قلعة شرقاط".

تلعب الجغرافيا دوراً كبيراً في تكوين الشعوب الأنثروبولوجي وهذا ما نجده في تكوين الشعب الذي أطلق على نفسه إسم آشور ، فغالبية المناطق التي تعود لهم جبلية ومليئة بالثمار التي تنمو في تلك المناطق بالتحديد ، لهذا نجد ان الفن الأصيل الذي امتلكه الآشوريون هو فن النحت على الحجارة والغرانيت والمرمر وحتى على الأحجار الكريمة التي كانت تملئ المملكة وربوعها منذ ذلك الوقت ، لكن لم تكن هناك في أغلب المخطوطات التي تمت ترجمتها فعلياً مكانة للإبداع الفردي كما تثبت ذلك الألواح التصويرية ، فكل شيء في الحياة الآشورية في أعلى درجات تقدمها كانت مرتبطة بما يشبه النقابات أو الجمعيات التعاونية ، فالجيش الآشوري العملاق كان يحتاج لآلاف الطباخين والذين يعدون له الماء والطعام وأنواع الفاكهة والألبسة والسيوف والرماح وغيرها من الأسلحة ، لهذا الجهود الفردية لم تذكر في الألواح المستخرجة والمترجمة والمتعلقة بأهم حقبة في العهد الآشوري ..

لذلك تشير أغلب الألواح الى النقابات التي كانت تشرف على أغلب الأمور في الدولة الآشورية وكانت تشبه اللجان الشعبية الى حد بعيد فالكل يعمل وتذهب الأموال والقسيمة الغذائية الى الأسرة وبذلك كانت الضمانات واضحة للذين يعملون على أن حقوقهم مصانة بطريقة ثابتة طالما أنها تشمل الأغلبية من الأيدي العاملة في المجتمع ، ولم ينتبه أغلب من ترجم الألواح الى هذه النقطة وهي الجمعيات التعاونية الزراعية التي كانت تجهز الدولة بكل شيء .

لذلك نجد في أغلب هذه المخطوطات شعارات معينة مثل (الأرض مقابل الخدمة) وكانت تمنح لتلك الجمعيات التي كانت تبدأ بتصليح الأرض وتحويلها تدريجياً لأراضي صالحة للزراعة ، وكذلك النقابات العمالية التي كانت تقوم بأعمال النحت والتي كانت تضم المئات من المتخصصين في هذا المجال ، ومن خلال قرائتنا لأغلب الألواح نرى أن العملية تبدأ بنقابات العمال المسؤولة عن إستخراج الحجارة من الجبال ونقلها ، وقبلها خبراء الجيولوجيا المتخصصين في إختيار الحجارة المخصصة لهذا النوع من الأعمال والتي تختلف عن حجارة البناء أو حجارة الشوارع أو حجارة المياه الداخلية التي تنقل المياه من الدور الى بحيرة في أحضان الطبيعة ، لذلك كانت نقابات النحت تقوم بتوقيع عقود مع الحكومة لتزويدها بمختلف الخدمات مقابل دوام القسيمة الغائية التي تضم كل شيء للأسرة وتجعل حياته

مليئة بالسعادة والسرور وفي نفس الوقت تبعدهم عن ممارسة الأعمال الشائنة كالقمار والمجازفة وخسارة الأموال وفقدان الاسرة لذلك كل شيء كان مرتب بطريقة تجعل الحياة عند الأغلبية تجنح نحو الإنضباط والإلتزام الأخلاقي تجاه كل من الأسرة والدولة ..

لا أموال بيد العامة من الشعب ! الكل يعمل ويحصل على رفاهية عينية متمثلة بقسيمة غذائية تضم حتى الملابس والأحذية وأدوات الرفاهية ، تطلبت أنشطة البناء واسعة النطاق والحملات العسكرية التي نُفذت بأمر من الملوك الآشوريين بدءاً من القرن الثالث عشر قبل الميلاد نظاماً متطوراً لإدارة القوى البشرية كالنقابات والجمعيات التعاونية ، وذلك لتوفير أعداد كبيرة من العمال أو الجنود في الزمان والمكان اللذين تقتضيهما الحاجة ، ثمة رأي يشير إلى وجود مبدأ ملكي في آشور يمنح القصر حق المطالبة بجزء كبير من الأراضي ، بما في ذلك الممتلكات الخاصة وبناءً على ذلك ، إذا منح الحاكمُ أتباعَه أراضيَ زراعيةً يقتاتون منها ، فإنه كان يطالبهم بتقديم خدماتهم في المقابل وكانت الإدارة الملكية هي التي تحدد طبيعة العمل ونطاقه ، سواء كان عسكرياً أو مدنياً وفي حال الوفاة أو الإخلال بالواجب ، كان من الممكن سحب الأرض من الأسرة المعنية المرتبطة أصلاً بإحدى النقابات أو الجمعيات التعاونية الزراعية .

وقد طُبِّق هذا الإجراء المعروف بنظام "إلكو " على نطاق واسع بين موظفي الدولة الآشورية الوسطى . ومع ذلك لا تزال المعايير المستخدمة لتحديد حجم الأرض المخصصة غير معروفة ، فقد مُنح كبار المسؤولين ضياعاً واسعة ربما شملت قرى بأكملها وسكانها ، في حين أن قطع الأراضي المخصصة للأتباع من ذوي الرتب الأدنى لم تكن على ما يبدو كافية لإعالة أسرة بأكملها ، مما جعل هذه الفئة تعتمد على حصص تموينية إضافية ..

يجب الإشارة الى أن الآشوريون إستخدموا نفس النظام السومري في تقسيم السكان ، فأحياء المعلمين كانت خاصة بهم وأحياؤ المهندسين الزراعيين وغيرهم أي كان يتم تقسيم السكان إستناداً الى المهن ومستوى تطور الوعي عند الأسرة ، وهو نظام عدالة إجتماعية تمكن من جعل الكل يعيش في الطبقة التي ينتمي اليها وتفهم طبيعة حياته ، أي كانت مقتضيات هذه العدالة تتطلب الفصل بين العامل والعالم حتى في مكان السكن . من الناحية النظرية ، نشأت الرابطة الوثيقة بين التابع وأرض "الإلكو" الخاصة به بناءً على مبدأ "الأرض مقابل الخدمة". ولكن بمجرد توفر المصادر المكتوبة الخاصة بالعصر الآشوري الأوسط ، نجد أن العوامل التي أدت إلى زعزعة استقرار هذا النظام كانت موجودة بالفعل ، إذ لم يكن من الضروري أداء واجب "الإلكو" شخصياً ، بل كان بالإمكان تكليف بديل للقيام به أو الوفاء به من خلال دفع الذهب . وعلاوة على ذلك، كان من الممكن بيع أرض "الإلكو"، شريطة أن يثبت المشتري استمرار الوفاء بالواجبات التي كانت تقع على عاتق المالك السابق . وكقاعدة عامة ، كان لزاماً على

المالك السابق الاستمرار في أداء هذا الواجب حتى بعد البيع ، حيث كان يفلح الحقل بصفته تابعاً يعمل لحساب المالك الجديد . وعلى المدى الطويل ، أدى ذلك إلى إلغاء جزئي للرابط الوثيق بين واجب "الإلكو" وحيازة الأرض لتسجيل وإدارة مجموعات متنوعة من الأفراد ، استخدمت الإدارة الآشورية ألواحاً مغطاة بالشمع تُعرف باسم " لنو " وهي ممارسة تعود جذورها إلى عهد الملك "أداد–نيراري الأول ، حين استدعت المهام الإدارية المتنامية للدولة الآشورية إيجاد وسيلة أكثر كفاءة لإدارة شؤون الأفراد والجمعيات والنقابات . وقد أدت ألواح الكتابة هذه أغراضاً متعددة ، شملت جمع بيانات حول القوى العاملة المتاحة في كل نقابة وجمعية تعاونية ، وتوثيق الهياكل المعقدة للمسؤوليات ، وحساب المؤن المطلوبة ..

وتقدم وثيقة إدارية تتعلق بالقوى العاملة التي استُخدمت في أعمال البناء داخل القصور الملكية في مدينتي "آشور" و"كار–توكولتي–نينورتا" لمحةً عن التركيبة الديموغرافية لتلك القوى العاملة ، إذ تدرج الوثيقة ضمن فئة الرجال البالغ عددهم 2000 والمسجلين في "لوح كتابة الملك" مجموعات متنوعة تشمل المجندين " حردو "، وسكاناً من مدن آشورية مختلفة ، و"مهندسين/معماريين" " سليم . بجو " وموظفين دينيين " مجيورو "، ونجارين " نجيغة ". وهناك وثيقة أخرى تسجل أسماء رؤساء مجموعات مختلفة (مثل طاردي الأرواح الشريرة ، والعرافين ، والقائمين على الحظيرة الملكية) ممن كانوا يخضعون لسلطة مسؤولين رفيعي المستوى وتحت رقابة مشددة ، مثل "حاكم البلاد" أو "كبير الإداريين/أمين الخزانة" . وفي حالات أخرى ، يرد ذكر قادة عسكريين مثل "الترتنو" أو "المنادي/المعلن" نيجيرو حيث كان الأخير يتولى مهمة تزويد الجيش بالمؤن عند عودة القوات من المعارك ، لم تتضح بعد بشكل كامل آليات فرض الضرائب في المملكة الآشورية الوسطى . وكما رأينا سابقاً ، كانت الدولة تخصص قطعاً من الأراضي مقابل التزام بأداء الخدمة العسكرية والمدنية المعروفة بـ إلكو وإلى جانب ذلك ، كان من الممكن تجنيد أفراد لا يخضعون لالتزام أو تجنيد أصحاب الضياع الخاصة ويبدو أن هؤلاء كانوا يُصنّفون ضمن قوات "بيرو " البير الخاضعة لقيادة "أسياد البير " وهي سلطة عليا لها وزنها في القرار السياسي أنذاك ..

وتُعد الضريبة المباشرة الوحيدة التي يدفعها الأفراد والمعروفة حتى الآن مرتبطة باستيراد البضائع من الخارج . فوفقاً لوثيقة خاصة عُثر عليها في "تل الرماح" وتتناول فرض ضريبة على فرس تبلغ من العمر عامين ، حُدّد معدل الضريبة بخمسين "مينا" من الرصاص ، أي ما يُفترض أنه يعادل 25 بالمائة من سعر الشراء وكان يتعين على المشتري النهائي وليس المستورد تقديم ما يثبت سداد هذه الضريبة ، وغالباً ما كانت عمليات الاستيراد والتصدير تتم عن طريق شركات كانت مؤلفة من العديد من الجمعيات التعاونية والنقابات العمالية المتخصصة في الصناعة والزراعة وكانت تختار خيرة رجال الاقتصاد للإشراف على ما كانوا يُطلقون عليه بـ " الكاروانات " أي التبادل التجاري ..

وتشمل الالتزامات الأخرى التي تفرضها الدولة والتي تعود بالنفع المباشر أو غير المباشر على الحاكم أو أفراد العائلة المالكة أو المؤسسات الدينية ضريبة "جيناؤو" التي سبق ذكرها في سياق الحديث عن إدارة الأقاليم . كما كانت الجزية " ماد ـ عتو " تحظى بأهمية بالغة ، إذ جرت العادة ألا يغادر الملك المنتصر الأرض التي فتحها دون نهبها ومن خلال ذلك ، كان بإمكانه ضمن أمور أخرى خفض تكاليف الحرب ، لتصبح الغنائم بذلك بمثابة تعويضات . وكان استمرار الطرف المهزوم في دفع الجزية يحقق غرضين مزدوجين: إظهار الولاء للدولة الآشورية ، والمساهمة في إيراداتها ..

أما "هدايا المثول أمام الحاكم" (المعروفة بـ " مامورتو " أو " مام ـ ايني " ، فقد وُثّقت في أرشيف يعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد عُثر عليه في مدينة "آشور" ، حيث تسجل هذه النصوص تقديم هدايا عادة ما تكون من الأغنام للأمير "نينورتا–توكول–آشور"، ابن الملك "آشور–دان" (1168–1133 ق.م). يكشف سجلٌ يغطي فترةً تقارب ستة أشهر –تمتد من اليوم الثاني عشر من شهر "كال مارتو" وحتى اليوم الثاني عشر بعد العشرين من شهر "شا–كينا–تي" أن المسؤولين قد سلّموا الملك 914 رأساً من الأغنام خلال تلك الفترة. ومما لا شك فيه أن هدية "نامورتو" كانت ذات أهمية اقتصادية .

وأغلب الألواح التي توصّل اليها العلماء في الأثار الآشورية هي عبارة عن رموز تصويرية للأفكار لم يتمكنوا من الوصول للحقائق الكامنة خلف نحتها أو تشكيلها بهذه الطريقة لا سيما وأنها تعبر عن أفكار متقدمة ربما لم يكن وقت فهمها قد حان في حقبة مظلمة عاشتها البشرية في القرنين السابقين وقت استخراج هذا النوع من الألواح ، فمهما بلغت عبقرية عالم الآثار لن يتمكن من نوتة النغمة الموسيقى الدينية في العصر السومري وكذلك ينطبق الأمر على العصرين البابلي والآشوري ولن يتمكن من فهم النقابات والجمعيات التعاونية أو القسيمة الغذائية أو البطاقة التموينية ، لكنهم فهموا أن نوعاً من الملكية المتحدة هي من كانت تحكم أي مملكة متحدة من خمسة أطراف لكل منها ملك ، وينتقل التاج الملكي كل أربعة أعوام الى ملك من ملوكها يسمونه بانتقال التاج والصولجان بينها ..

تتعلق غالبية المصادر المكتوبة التي تعود إلى العصر الآشوري الأوسط بمجال الإدارة العامة ، فحتى المحفوظات المكتشفة في المنازل الخاصة تحتوي على العديد من الوثائق التي تتناول شؤوناً إدارية أما المعلومات المتعلقة بظروف المعيشة خلال تلك الفترة ، فهي متاحة في المقام الأول فيما يخص "النخبة" الاجتماعية والاقتصادية ، حيث كانت تحصل هذه النخب على بطاقة تموينية أوسع من تلك التي يحصل عليها العمال والفلاحين والنحاتين ، والأمر متعلق بالخدمات التي يقدمها الإداري والإقتصادي لديمومة الدولة وتطبيق قوانينها ، لذلك كانت أحدى أسس العدالة

الاجتماعية في آشور هي الحصول على ما يقابل الخدمات ، فكلما كان المرء متعلماً وعالماً في مجال تخصصه كان يحصل على نظام أوسع من القسيمة الغذائية تكفل له حتى التجول مجاناً في عموم المملكة والحصول على الخدمات من خلال القسيمة التي يحملها معه هو وأسرته ..

كانت الطبقة العليا الصغيرة تشكل الشريحة الأسمى في المجتمع وقد انحدر أعضاؤها أساساً من عائلات كبيرة عريقة يُشار إليها بـ "البيوت وشغلوا جميع المناصب الإدارية الهامة . لم يكن هناك فصل واضح بين المجالين "العام" و"الخاص" إذ عُثر على وثائق إدارية تضمنت عقوداً وقروضاً ورسائل توثق كلاً من الأنشطة العائلية الخاصة والالتزامات المترتبة على الوظيفة العامة وكان مسؤولو البلاط الملكي يستخدمون أحياناً موارد القصر التي كانت تحت تصرفهم لتحقيق مكاسب شخصية ويمكن إثبات ذلك من خلال وثيقة تسجل إقراراً لشخص يُدعى "آشور-إيدين" بن "أوراد-إيلاني " وهو مسؤول بارز كان يشغل منصب "ممثل الملك" حيث يصرح في هذا النص بأنه لم يستخدم العمال الملكيين لأغراض خاصة . ويوضح النص بجلاء أن مثل هذا السلوك كان يُعد خيانة ، إذ جاء فيه: "لو أن آشور-إيدين (قد ارتكب فعلاً ما اتُّهِم به) ، لكان قد استخف بحياة الملك، سيده ومن ناحية أخرى ، كان يتعين على المسؤولين تخصيص أجزاء من أموالهم الخاصة للمؤسسات العامة إذا طُلب منهم ذلك .

وقد توفر رأس المال اللازم لذلك من مصادر عدة ، وأهمها تزويد كبار المسؤولين بضياع ريفية غالباً ما كانت عبارة عن مزارع محصنة كبيرة المساحة ومجهزة بقوة عاملة مناسبة من الحراثين والحصادين كانت تُعرف باسم "دونو" كانت هناك عدة سبل للحصول على دخل إضافي . أولاً ، كان بإمكان أفراد الطبقة العليا استخدام مواردهم المالية لتقديم قروض للأفراد العاديين ، وغالباً ما كانت شروط هذه الاتفاقيات مجحفة للغاية بحق المدين . إذ كان يتوجب على المدين دفع فائدة تصل إلى 100 بالمائة ، بالإضافة إلى تقديم سلع إضافية (مثل الأغنام والأواني) وخدمات (كاستئجار عمال حصاد إضافيين) ، وعادة ما كان ذلك يتم في موسم الحصاد، وهي الفترة التي تشتد فيها الحاجة إلى جميع العمال المتاحين للعمل في حقول المدين نفسه ، وثانياً، كان يُسمح لمسؤولي الإدارة الحكومية بتلقي "هدية" من الأفراد تعرف بـ " سلمانو " ، مقابل وعدهم بالنظر في الطلبات المقدمة إلى الإدارة . وكان يتم تدوين قيمة هذه "الرشوة المشروعة" على لوح طيني ، تليها عبارة مثل "سينظر في قضيته (ثم) يتسلم هديته"، مع توثيق ذلك بحضور كاتب ، أما أولئك الذين لم ينتموا إلى الطبقة العليا المحدودة العدد ، فكان بإمكانهم الأمل في الحصول على "منحة الرحمة" الملكية ما يُعرف بـ " رموتو " لكنهم كانوا يضطرون عموماً إلى الاكتفاء بمستوى معيشي أدنى بكثير . ولم يشكل هؤلاء طبقة اجتماعية متجانسة ، فقد كانت الفئة الأقرب إلى الطبقة العليا تتألف من "الأحرار" الذين كانوا يحصلون أيضاً على حصص من الأراضي مقابل أداء مهام رسمية غير أنهم لم يتمكنوا من الاعتماد عليها وحدها في

معيشتهم نظراً لصغر مساحة تلك الأراضي وكان يُطلق عليهم ايضاً كلمة " عليو " أو النبلاء . وفي المقابل ، لم تكن فئة " شلحو " تمتلك حق حيازة الأراضي ، بل كانت تعتمد كلياً على ما تتلقاه من الإدارة الحكومية (من إمدادات غذائية وملابس ، وغيرها من مفردات البطاقة التموينية ، ويُشتق مسمى هذه الفئة من المصطلح الحوري " شلحولي " الذي يشير إلى الرجل الحر الذي يدخل في خدمة شخص آخر بمحض إرادته ، مقابل الحصول على حصص تموينية وملابس وكان يُسمح له بفسخ عقد العمل شريطة توفير بديل يتولى الوفاء بالتزاماته . لا يزال من غير الممكن الجزم بما إذا كانت فئة "الشلحولو " في العصر الآشوري الأوسط قد تمتعت في الأصل بحقوق مماثلة .

كان أغلب المترجمين للألواح الآشورية يصفون هذا الشعب بأنه قاسٍ في تعاملاته ولا يمتلك قدراً من الرحمة حيال فئة شلحولو أو مشلولي الحال ، وهي فئة كانت تمثل نسبة لا بأس بها في المجتمع الآشوري ، لكن الديانة الشمسانية التي كان الآشوريون يعتنقونها كانت تجعلهم يؤمنون بأن دورات التقمّص للأرواح تشهد تقدماً الى النور كلما تمتع الإنسان بالطهارة والنقاء وتشهد تراجعاً كلما تمعن الإنسان في سلوك مسلك شائن حيال النعمة التي بين يديه أو في طريقة تعامله مع تحديات الحياة ، لهذا لم يكونوا قساة القلوب بقدر ما كانوا يفهمون أن الفاسد سينحدر في حياة مستقبلية الى مراتب دونية تجعله ينتمي الى فئة مشلولي الحال بحكم عدم تعامله مع معطيات وتحديات الحياة بالشكل اللائق ..

يبدو أن المجال الرئيسي لعمل فئة "شلحولو " كان القطاع الزراعي ، لقد كانوا في هذا السياق يعتمدون اعتماداً كبيراً على أرباب عملهم ، لكنهم لم يكونوا بالضرورة ملكية خاصة لهؤلاء الأرباب . ويمكن إثبات ذلك من خلال عدة وثائق عُثر عليها في مدينة "آشور" وتتعلق بعملية تقسيم (لهم) كجزء من إرث وتُسجّل هذه الوثائق أن ما يقرب من ألف فرد من فئة "شلحولو" الذين كانوا سابقاً تابعين للمدعو "شماش-أخا-إيدّينا الراحل قد قُسّموا بين ثلاثة أبناء على الأقل . وقد تولى ممثلون عن الملك مسؤولية تنفيذ هذا الإجراء . وفي مرحلة ما ، تدخل الملك بنفسه لفصل مجموعة صغيرة من العدد الإجمالي وتخصيصها لشخص آخر ، ظلت طبيعة علاقته بعائلة "شماش-أخا-إيدّينا" غير واضحة . ومن ثم ، يبدو أن أفراد "شلحولو" كانوا يُجنّدون في الأصل من أسرى الحرب أو المُهجّرين ، ثم يُنقلون من إدارة الدولة إلى مسؤول وهو "شماش-أخا-إيدّينا" مع تخصيص قطعة أرض لهم . وقد ظل هؤلاء الأشخاص يُعتبرون ملكية تابعة للدولة ، مما أتاح للملك تخصيصهم لأي شخص يراه مناسباً ، بإختصار هم جمعية تعاونية متنقلة ..

وعلى غرار فئة "شلحولو"، يشير مصطلح "كبار القرية" (عليو . الكبار) إلى شخص مالك الأرض (سواء كان فرداً أو القصر) التي يقيم عليها وتُفرّق "قوانين آشور الوسطى" بين "سكان القرية" وبين فئة "آليك إلكي" "التجنيد وإدارة القوى العاملة" من ناحية ، وبين فئة "هوبشو" من ناحية أخرى وهي فئة المهتوشين . تشير الأدلة المستمدة من فترات أخرى من تاريخ الشرق الأدنى القديم ومن مناطق خارج آشور إلى أن هؤلاء كانوا أيضاً ينتمون إلى طبقة اجتماعية أدنى . وغالباً ما يرد ذكرهم في سياقات عسكرية ومن ذلك ، على سبيل المثال ، ما ورد في نقش للملك شلمنصر الثالث (858–824 ق.م ، حيث يُشار هنا إلى جيش المغتصب البابلي "مردوك–بيل–أوساتي". ومما يثير الاهتمام أن طقوس "تاكولتو" ، تذكر صوراً لأشخاص من فئة "هوبشو" مباشرةً بعد تماثيل الملوك والأمراء ..

لم يكن أمر الزواج متروكاً للزوجين المستقبليين ، بل كان يخضع للتفاوض بين العائلتين المعنيتين . وقد وردت معالجة لهذه المسألة في "قوانين العصر الآشوري الأوسط المادة 48 ومواضع أخرى ويمكن استقاء المزيد من المعلومات حول الظروف المعيشية للأسر في العصر الآشوري الأوسط من قوائم التعداد وقوائم الحصص التموينية التي أعدتها الإدارة كانت الأسرة الصغيرة الحجم هي النمط السائد . وقد أُبيح تعدد الزوجات لدى الآشوريين (المادة 41 من القوانين الآشورية الوسطى في حالات محددة تخص العلماء والمبدعين من أجل المحافظة على الجينات المتفوقة في المجتمع الاشوري ممن لم تتمكن نساءهم من الانجاب) ، وكذلك بين المُهجَّرين من الحوريين والعيلاميين ، إلا أنه لم يكن القاعدة العامة بأي حال من الأحوال وكان غير مرغوب بها . وعلاوة على ذلك، تشير السجلات إلى وجود خدم ضمن هذه الأسر ، سواء جُلبوا مباشرة من مواطنهم الأصلية أو خصصتهم الإدارة الآشورية للعمل لدى الأسرة ..

وفي القوائم المذكورة آنفاً ، يُصنَّف أفراد الأسرة وفقاً للجنس والعمر وعلاقتهم برب الأسرة . ونظراً للمبدأ الذي يُلزم جميع البالغين بأداء أعمال عامة مقابل الحصول على حصص تموينية ومخصصات أخرى ، فقد كان الرجال يُشار إليهم بمهنهم المحددة ، في حين كانت تُوصف زوجاتهم عادةً بعبارة "عاملات" فحسب . وفي حال عدم وجود رب أسرة ذكر على قيد الحياة ، كان بإمكان الأرملة تمثيل الأسرة مكانه ، قارن ذلك بالمادة 46 من القوانين الآشورية الوسطى ، أما بالنسبة للأطفال ، فقد كان هناك نظام متدرج للفئات العمرية وقد ساعد نظام التصنيف هذا في حساب حصص الحبوب الفردية التي يتلقاها كل شخص شهرياً .

لم يُترك أمر الزواج للزوجين المستقبليين ، بل كان يخضع للتفاوض بين العائلتين المعنيتين ، وتتناول "قوانين العصر الآشوري الأوسط " المادة 48 " ومواضع أخرى تخص هذه المسألة ويمكن استقاء المزيد من المعلومات حول الظروف المعيشية للعائلات في العصر الآشوري الأوسط من قوائم التعداد السكاني وحصص المؤن التي أعدتها الإدارة . كانت

وفي القوائم المذكورة آنفاً ، يُصنَّف أفراد الأسرة وفقاً للجنس والعمر وعلاقتهم برب الأسرة . ووفقاً للمبدأ الذي يُلزم جميع البالغين بأداء أعمال عامة مقابل الحصول على حصص المؤن والمخصصات الأخرى ، كان الرجال يُشار إليهم بمهنهم المحددة ، في حين كانت تُوصف زوجاتهم عادةً بـ "العاملات فحسب . وفي حال عدم وجود رب أسرة ذكر على قيد الحياة ، كان بإمكان أرملته تمثيل الأسرة مكانه قارن أدناه " المادة 46 " أما بالنسبة للأطفال ، فقد كان هناك نظام متدرج للفئات العمرية . ساعد نظام التصنيف هذا في حساب الحصص الفردية من الحبوب التي يتلقاها الشخص شهرياً ..

الرجل البالغ .. 8 سوتو (لتر)

المرأة البالغة: وحدتان "سوتو"

المتدرّب .. واحد ونصف وحدة "سوتو"

الطفل الصغير واحد وربع وحدة "سوتو"

الطفل المفطوم وحدة واحدة "سوتو"

الرضيعثلاثة اربا ع وحدة "سوتو"

يمكن استقاء معلومات مفصلة حول الوضع الاجتماعي للمرأة من اللوح (أ)(الخاص بقوانين آشور الوسطى)رغم وجود قدر كبير من اليقين بين العلماء حول هذه التشريعات التي تمتعت بقوة قانونية مباشرة وتتناول القوانين أنواعاً مختلفة من الجرائم الجنائية ، ولا سيما الجرائم الجنسية ، وقوانين الزواج . ففي الشارع ، كان لزاماً على النساء الشريفات ، بما في ذلك الزوجات والأرامل ، ارتداء غطاء على الرأس (اللجك) او الفيز ، وينطبق الأمر ذاته على "السرية"

أثناء مرافقتها لسيدتها (القانون 40 من قوانين آشور الوسطى) . وفي حين كان يُسمح للكاهنة من فئة "قاديلتو"

ارتداء الغطاء الكبير ذات اللون الأبيض . وتتضح العلاقة بين غطاء الرأس والزواج في القانون 41 من قوانين آشور الوسطى "إذا غطت المرأة (السرية) وجهها (ارتدت غطاء الرأس) علناً بإعلان الرجل "إنها زوجتي" فإن هذه المرأة تصبح زوجته".

إن أغلب القوانين المستمدة من العهد الآشوري إنتشرت في مجتمعاتنا الحديثة عبر سن القوانين الوضعية والدساتير الموجودة عند أغلب البلدان المتقدمة والذي يجعلنا نشعر بالإحباط أن أغلب من ترجموا الألواح السومرية في القرنين

الماضيين لم يسمعوا بالجمعيات التعاونية أو القسيمة الغذائية أو النقابات الزراعية أو نقابات البناءين والكثير من مصطلحات عصر أقل ما يقال عنه بأنه كان عصراً تحكمه رأسمالية الدولة التي تتولى فيها الدولة كامل الصلاحيات في توزيع وتوفير فرص العمل والبطاقة التموينية للأفراد ..

لذلك ألحقت عمليات الترجمة الضرر الأكبر بنوعية القوانين والتعاليم السائدة في المجتمع الآشوري بسبب جهل من تصدى لهذا النوع من الترجمات وكذلك الرغبة الجامحة لدى أغلبهم في البحث عن أي دليل يثبت صحة ما موجود في الكتاب المقدس حتى لو كان على حساب الحقيقة ، الحضارات القديمة بشكل عام سواء في سومر أو بابل أو آشور أو مصر أو راما أو ايزوتيريا أو الأزتك أو أطلانتس جميعها مرت بالمراحل الخمسة للتطور الاقتصادي (المشاعة ، الإقطاع ، والبرجوازية ، والرأسمالية ومجتمع الخدمات وأخيراً الإشتراكية والشيوعية) لهذا عندما يأتي عالم آثار ويترجم لوح فإنه لا يعلم إلى أي من الفترات هذه ينتمي اللوح ؟ وكيف كان شكل الدولة ونظامها وقوانينها آنذاك ؟

ومن خلال قرائتنا لترجمة أغلب من تصدى لعمليات الترجمة نجد أنهم كانوا يفتقدون للمهارات العلمية التي تؤهلهم لذلك ، لهذا السبب لحقت أضرار كبيرة بالمعطيات العلمية والقانونية التي وصلتنا وأغلبها غير دقيقة وقسماً منها كتب بروح العداء لتلك الحضارات لأنها لا تنتمي لديانة الباحث أو أنها تجعله يشعر بصغر حجمه أمام عظمة تلك الحضارات ، هذا الأمر لا بد من التوقف عنده طويلاً لا سيما وأن الأسس العلمية التي تم تدرسيها في أغلب أكاديميات العالم وجامعاتها كانت تفتقد للدقة والموضوعية وإتهمت أغلب حضارات العالم القديم على أنها حضارات طينية ولم تشهد في حياتها أي تقدم طوال سبعة آلاف عام من وجودها ، وهذا تجريد يُعبر عن ضحالة مستوى تفكير من يؤمن بهكذا طروحات ..

فمثلاً النجاحات العسكرية التي حققتها آشور وعمليات الترحيل القسري التي تلتها ، توثقت الروابط بين سكان قلب الدولة الآشورية والمجموعات العرقية الأجنبية التي هاجرت الى هذه البلاد بحثاً عن فرصة عمل وحياة أفضل ، إذ لم يقتصر ما جلبه الأجانب معهم على قوتهم العاملة فحسب ، بل شمل أيضاً تقاليدهم الثقافية ، ونظراً لتركيز آشور على التوسع نحو الشرق ، والمناطق الواقعة شمال وشمال شرق قلب الدولة الآشورية خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وعقب الحملات البابلية التي قادها "توكولتي-نينورتا الأول"، وفد إلى آشور العديد من سكان جنوب بلاد الرافدين الذين أطلقت عليهم الإدارة الآشورية اسم "الكاشيين" ويبدو أن غالبيتهم شغلوا مراتب متدنية في المجتمع الآشوري فقد كانت الوظائف الراقية من نصيب أبناء البلد ، إذ استُخدموا على سبيل المثال في مشاريع البناء التابعة للتاج الملكي ، ولا سيما في تشييد القصور والمعابد في العاصمة الآشورية . ومع ذلك ، تمكن بعض القادمين

من الخارج من تبوّء مناصب أكثر بروزاً فقد اختار "شلمنصر الأول" مجموعة من الشبان من "لبنان" ليدخلوا في خدمته بالبلاط الملكي ، في حين جنّد ابنه "توكولتي–نينورتا" رماة سهام من بين المُرحَّلين الحوريين والميتانيين لضمهم إلى الجيش ..

سأضرب مثلاً ثانياً في الانتقائية التي صاحبت عملية الترجمة ، فمن أعلى درجات القوانين الوضعية المتقدمة ينتقل البعض الى العصر الإقطاعي الآشوري وطبيعة الصراع على السلطة وتهديد التاج الملكي الآشوري ، فينتقل أغلب المترجمين للألواح بطريقة عجيبة بين تواريخ لا علاقة لها ببعضها البعض كتسليط الضوء على حقبة اقطاعية ويمزجها بالعصر الاشوري الأخير لهذا القارئ الذي يجب أن يُفصّل ويحلل طبيعة المراحل التي مرّت بها الإمبراطورية الاشورية ، فليس معقولاً ان تمتد عظمة مملكة لثلاثة آلاف عام ولا يحدث فيها أي تطور اقتصادي واجتماعي وفكري !!

هذا غيض من فيض التخبطات التي سطرها لنا من كانوا يسمون انفسهم علماء اثار لكن في الحقيقة اغلبهم كانوا يعملوا لشركة الهند الشرقة وهو الاسم السري لجهاز المخابرات البريطانية في حينها ، لذلك لا يمكن الإلتزام بتحليلات أناس لا علاقة لهم بالمكان والزمان الذين قامتا عليهما حضارة الدولة الآشورية والتي تركت أثراً عمرانياً نجده اليوم في كل مدينة اوربية فلولا هذه الحضارة لكانت البشرية تعيش ظروفاً مختلفة تماماً ..

كانت الدولة الآشورية في أواخر ايامها ترزح تحت وطأة أزمة هائلة تكبدت خلالها خسائر إقليمية فادحة في مصالحها وتأثيرهاالاالسياسي . غير أن عدداً من الملوك الآشوريين الذين اتسموا بالحزم والقسوة في أواخر القرن العاشر والقرن التاسع نجحوا، خطوة بخطوة ، في استعادة الأراضي المفقودة وإعادة ترسيخ النفوذ الآشوري السياسي والاقتصادي ، ولا سيما في منطقة الخابور . وفي الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع وحتى منتصف القرن الثامن ، شهدت آشور حقبة من التشرذم الداخلي ، حيث تنافس الملوك وكبار المسؤولين الذين عُرفوا بلقب "العظماء" على السلطة . وقد مثّل تولي "تغلث–بلاسر الثالث" العرش عام 745 قبل الميلاد نهايةً لتلك الفترة وبدايةً للمرحلة الإمبراطورية لآشور إذ فقد "العظماء" جانباً كبيراً من نفوذهم ، وتمكن الملوك الآشوريون في أوج ازدهار الإمبراطورية من غزو وحكم أراضٍ شاسعة المساحة بشكل غير مسبوق ، شملت بابل وبلاد الشام ومصر . أما السقوط فقد حدث في غضون سنوات قليلة ، ففي الفترة ما بين عامي 615 و609 قبل الميلاد ، تمكنت القوات المتحالفة من البابليين والميديين من هزيمة المدن الآشورية الكبرى وتدميرها ، واضعةً بذلك حداً للقوة السياسية الآشورية ولـ "العصر الآشوري الحديث" برمته . وما تلا ذلك كان فصلاً ختامياً طويلاً وغامضاً في التاريخ الآشوري ، إذ لم تعد هناك دولة آشورية قائمة لكن بعض التقاليد الثقافية والدينية الآشورية ظلت صامدة في قلب الأراضي الآشورية القديمة ، وتحديداً في مدينة

آشور لما يقرب من 800 عام أخرى . ومن الناحيتين السياسية والاقتصادية ، تميز العصر الآشوري الحديث بالتوسع الهائل الذي شهدته الدولة الآشورية خلال تلك الحقبة ، وتحولها إلى ما يُرجح أنه كان أول إمبراطورية في تاريخ العالم من الصعب تحديد ما يمكن وصفه بـ "العقلية" الآشورية الحديثة ، ولا سيما بسبب التدفق الكبير للأجانب الذين اندمجوا في المجتمع الآشوري بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد .

ومع ذلك ، تبرز بعض الخصائص التي يبدو أنها تحدد العقلية الآشورية الحديثة . بادئ ذي بدء ، تمتع الآشوريون بوضوح بحس قوي للغاية بالنظام وكانوا شعب يُضرب به المثل في العالم القديم بالإلتزام بالأنظمة ، تجلى في سمات متنوعة فمن ناحية ، ظهر ذلك في الشكل المربع والمنتظم لرموز نظام كتابتهم ، ومن ناحية أخرى ، في الإدارة المنظمة بدقة لأقاليمهم ، إذ يمكن وصف الآشوريين من بعض النواحي بأنهم "بروسيو" الشرق الأدنى القديم . وقد عمل الفاتحون الآشوريون بنشاط على تعزيز فكرة النظام هذه القائمة على تسلسل هرمي راسخ يربط بين الرؤساء والرعايا لتبرير رسالتهم الإمبراطورية . فعلى سبيل المثال ، أعلن سرجون الثاني بفخر أنه هزم عدداً من القبائل العربية التي "لم تكن تعرف سابقاً أي مشرف أو قائد ..

وتُعد "النزعة التوسعية الاستحواذية" المتطورة سمة مميزة أخرى للعقلية الآشورية الحديثة ، وتتمثل إحدى مظاهرها في المشاريع التجارية الطموحة التي انخرط فيها الآشوريون . ورغم أنهم لم يعودوا يمثلون الطبقة المهيمنة كما كانوا في العصر الآشوري القديم ، إلا أن التجار الآشوريين واصلوا لعب دور مهم خلال العصرين الآشوري الأوسط والحديث غير أن سعي الآشوريين نحو مزيد من الرخاء المادي اتخذ على مر القرون منحىً جديداً وأكثر عدوانية؛ فبدلاً من التركيز على التبادلات التجارية السلمية مع الأراضي البعيدة ، لجأ الآشوريون بشكل متزايد إلى استخدام وسائل عنيفة للحصول على السلع الأجنبية . ففي كل عام تقريباً ، وخلال أشهر الصيف ، كانت الجيوش الآشورية تشن هجمات على البلدات والمدن الواقعة خارج القلب الآشوري ، فتسلب ممتلكاتها ، وتفرض جزية دورية على حكامها ، ثم تضمها في نهاية المطاف إلى أراضيها وهكذا ، كانت تُنقل المواد الخام والمنتجات المصنعة ، فضلاً عن البشر والحيوانات وحتى الأشجار والنباتات ، إلى آشور من أماكن نائية . لا يزال من الممكن رصد العقلية التجارية التي كانت الدافع الأصلي وراء سعي الآشوريين نحو الثروة المادية في الطريقة التي تُحصي بها النقوش الملكية الآشورية الحديثة أعداد الأعداء القتلى أو المشوّهين أو المُهجَّرين ، وكذلك الكميات الدقيقة للغنائم والجزية المُقدَّمة للملك، وذلك بأسلوب يُذكّرنا بدقة المحاسب المجتهد في تدوين السجلات غير أن الواقع السياسي والاقتصادي كان قد أصبح مختلفاً تماماً إذ حلّ الاستغلال الإمبراطوري و"نمط الإنتاج القائم على الجزية" إلى حد كبير وإن لم يكن كلياً محل نظام تجاري كان فيه التجار يتعاملون مع شركائهم في الأراضي الأجنبية على قدم المساواة .

ثمة مظهر آخر للنزعة الاستحواذية يكمن وراء موقف آشور من التقاليد البابلية ، التي أثرت بقوة في ثقافة النخبة الآشورية الحديثة ، فقد كُتبت العديد من النصوص الأدبية والدينية الايزيدية والشمسانية وجميع الرسائل العلمية التي درسها العلماء الآشوريون تقريباً باللغة البابلية ، وعلى أيدي كَتَبة بابليين متديّنين في الغالب ، ومثلما حظيت الحضارة اليونانية بمكانة رفيعة لدى الرومان، تمتعت الثقافة البابلية بتقدير كبير لدى الآشوريين ، الذين غالباً ما عاملوا "إخوتهم" الجنوبيين برفق يفوق ما عامَلوا به أي شعوب أخرى في إمبراطوريتهم الشاسعة . ومع ذلك ، عندما استمر البابليون في معارضة الحكم الآشوري رغم الامتيازات التي تمتعوا بها تحوّل شعور الآشوريين ، الذي شابته خيبة الأمل إلى كراهية في نهاية المطاف . لقد عانت بابل مرتين خلال القرن السابع قبل الميلاد من الموت والدمار على يد الآشوريين ، قبل أن تنجح أخيراً في هزيمة جارتها الشمالية وتنتقم انتقاماً دامياً عبر توجيه الضربة القاضية التي أنهت وجود الدولة الآشورية ..

لقد أصبحت التسلسلية الزمنية الأساسية للعصر الآشوري الحديث راسخة ومحددة بوضوح . إذ توفر الأجزاء الأخيرة من "قائمة الملوك الآشوريين" الشهيرة إلى جانب بضع قوائم ملكية أخرى من آشور وبابل سجلات موجزة وشاملة لملوك العصر الآشوري الحديث ومعلومات حول مدد حكمهم . وتتأكد الموثوقية العامة لهذه السجلات من خلال قوائم "الليمو"حوليات الليمو المتنوعة التي تعود للعصر الآشوري الحديث وتتضمن القوائم الأولى مرتبةً زمنياً أسماء وألقاب المسؤولين الذين كان الآشوريون يطلقون أسماءهم على السنوات الفردية (وهؤلاء يُعرفون بـ "الليمو" أو حاملي اسم السنة أتباع الملك شي سن) بينما تضيف الحوليات (بدءاً من عام 857 قبل الميلاد) بعض المعلومات الأساسية عن الأحداث التي وقعت خلال تلك السنوات. وقد ساعدت الإشارة الواردة في اثنتين من حوليات الليمو إلى حدوث كسوف للشمس والذي أمكن تأريخه فلكياً لعام 763 قبل الميلاد في تحديد التسلسل الزمني المطلق للعصر الآشوري الحديث ، كما لا تزال هذه الإشارة تشكل ركيزة زمنية هامة لتاريخ بلاد الرافدين عموماً ، وذلك منذ أواخر العصر البرونزي فصاعداً وللأسف ، لا تتوفر حتى الآن قوائم ليمو أو حوليات تغطي الفترة التي تلت عام 649 قبل الميلاد ، مما يعني بقاء بعض الغموض فيما يتعلق بالتسلسل الزمني للعقود الأخيرة من الإمبراطورية الآشورية الحديثة ..

ويمكن العثور على معلومات أكثر تفصيلاً بقليل حول الأحداث التاريخية في بعض النصوص الإضافية التي تندرج تحت فئة "الحوليات". تقدم ما يُعرف بـ "التاريخ المتزامن" معلومات انتقائية من وجهة نظر آشورية حول العلاقات بين آشور وبابلية حتى عهد الملك "أداد-نيراري الثالث" (810-783 ق.م). كما تسلط العديد من الحوليات البابلية الضوء على المراحل اللاحقة للتفاعلات بين الدولتين من منظور بابلي. ورغم أهمية هذه المصادر المذكورة ،

إلا أنها لا تتيح لنا إعادة بناء أكثر من هيكل عظمي لتاريخ العصر الآشوري الحديث إذ تأتي "اللحم والدم" إن جاز التعبير لهذا التاريخ من خلال أنواع إضافية من المصادر، الموزعة بشكل متفاوت على الفترة الممتدة من عام 1000 إلى 609 ق.م. وتُعد النقوش "الرسمية" المكتوبة بأسماء الملوك الآشوريين –والمتوفرة بأعداد وفيرة بدءاً من منتصف القرن العاشر فصاعداً ، وتوجد النقوش الملكية الآشورية على ألواح ومواشير وأسطوانات اغلبها منقوشة على احجار ثمينة مثل اللازورد والروبين ، وعلى ألواح وألواح حجرية كريمة نادرة ، وكذلك على عدد من المقتنيات الأخرى التي تركها الملوك في مواقع ظاهرة أو خفية داخل القصور والمعابد والمنشآت الدفاعية في مختلف المدن الآشورية ، كما نُقش بعضها الآخر على مسلات ونقوش صخرية في بلدان نائية ، وتتمحور هذه النصوص حول الحملات العسكرية وأعمال البناء والتشييد ، حيث يتسم بعضها بطول وتفصيل بالغين ، إذ يربو عدد أسطرها على الألف سطر .

توفر المنح والمراسيم الملكية معلومات تاريخية هامة أيضاً ، وكذلك الحال بالنسبة للمعاهدات الدولية والألواح التي نُقشت عليها نصوص أيمان الولاء التي كان يتعين على الآشوريين والحكام التابعين على حد سواء أداؤها للتاج ومثل الرسائل ، يعود تاريخ معظم هذه النصوص إلى العصر الآشوري المتأخر ، غير أن بعضها يسلط الضوء على فترات زمنية أقدم . وتُقدم الوثائق الإدارية التي تأتي في المقام الأول من أرشيفات القصور في مدينتي "كالحو" و"نينوى" معلومات حول تنظيم الخدمة المدنية والجيش في آشور ، في حين تسلط الألواح التي تتضمن استشارات الوحي (التي كان يوجهها الملك لإله الشمس) الضوء على التخطيط للحملات العسكرية وتعيين كبار المسؤولين . وتُلقي الوثائق القانونية والاقتصادية المستمدة من الأرشيفات الخاصة الضوء ولو جزئياً على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المدن الآشورية المتأخرة ، ولا سيما نينوى وآشور؛ بينما تمنحنا آلاف النصوص الدينية والعلمية والأدبية المكتشفة في مكتبات مدن آشور وكالحو ونينوى وسلطان تبه ومواقع أخرى قليلة رؤىً حول التاريخ الفكري لآشور وتظل مكتبة آشوربانيبال الشهيرة في نينوى أهم مستودع لمثل هذه النصوص تم الكشف عنه على الإطلاق في بلاد الرافدين .

نحن نعلم أن الكتبة في العصر الآشوري الحديث لم يستخدموا ألواح الطين وكل من يعتقد بهذا الطرح هو ساذج ، لأنهم ببساطة استخدموا أيضاً وسائط أخرى لمراسلاتهم اليومية ، فقد كتبوا بالخط المسماري على ألواح من معادن نادرة ذات أسطح مغطاة بمادة كرستالية ، وباللغة الآرامية على ورق البردي والجلود والورق العادي المستخلص من الأشجار في معاملاتهم اليومية . ومع ذلك وباستثناء أمثلة قليلة سيئة الحفظ من النوع الأول ، لم يتبقَّ أي أثر للنصوص التي سُجلت بتلك الطرق بسبب ادعاء البريطانيين بانها حضارة طينية واخفاءهم للالواح المكتوبة على اللازورد والروبين والكرستال الغالي الثمن ، إذ إن الغالبية العظمى من الوثائق الآرامية التي تعود للعصر الآشوري الحديث قد أخفيت تماماً ولا سبيل لاستعادتها الا بموافقات دولية . تتمثل نافذتنا الوحيدة للاطلاع على استخدام

اللغة الآرامية من قِبَل الكتبة الذين نشطوا في ظل الدولة الآشورية الحديثة في عدد محدود من الألواح االثمينة التي نقلت للمتحف البريطاني ، فإما أن تكون هذه الألواح مدوّنة بالكامل باللغة الآرامية أو أنها تحمل "كتاباتٍ لاحقة"بالآرامية وهناك أيضاً شقفة فخارية (أوستراكا) مكتوبة بالآرامية عُثر عليها في مدينة آشور ، وتتضمن معلومات تاريخية مهمة .

Sources

Les Religions de Babylonie et d'Assyrie. By E. Dhorme. Paris, 1945.

BabylonienundAssyrien. Vol. II. By B. Meissner. Heidelberg, 1925.

Babylonian Magic and Sorcery. By L. W. King. Luzac, 1896.

Semitic Magic. By R. Campbell Thompson. Luzac, 1908.

The Babylonian Akitu Festival. By S. A. Pallis. Copenhagen, 1926.

The Code of Hammurabi. By R. F. Harper. Chicago, 1904.

The Assyrian Laws. By G. R. Driver and Sir J. C. Miles. Oxford, 1935.

Das weltliche Recht im Alten Testament. A. Jirku. Gutersloh, 1927.

Rituels Accadiens. By F. Thureau–Dangin. Paris, 1921.

Legends of Babylon and Egypt. By L. W. King. Schweich Lectures, 1916.

Ideas of Divine Rule in the Ancient East. By C. J. Gadd. Schweich Lectures, 1945.

Babylonian Menologies and the Semitic Calendars. By S. Langdon. Schweich Lectures, 1933.

The Origins of Early Semitic Ritual. By S. H. Hooke. Schweich Lectures, 1935.

Myth and Ritual. Ed. S. H. Hooke. Oxford, 1933.

Sumerian Mythology. By S. N. Kramer. Philadelphia, 1944.

State Letters of Assyria. By R. H. Pfeiffer. New Haven, 1935.

Die assyrische,," .," Maqlu. By G. Meier. Berlin, 1937.

Cylinder Seals. By H. Frankfort. Macmillan, 1939.

The Intellectual Adventure of Ancient Man. Ed. H. Frankfort. Chicago, 1946.

Kingship and the Gods. By H. Frankfort. Chicago, 1948.

Akkadische Götterepitheta. By K. Tallqvist. Leipzig, 1938.

Die physiognomischen Omina der Babylonier. By F. R. Kraus. Leipzig, 1935.

La Magie Assyrienne. By C. Fossey. Paris, 1902.

Aus dem Tagewerk eines assyrischen Zauberpriesters. By E. Ebeling. Leipzig, 1931.

Das assyrische Ritual By K. F. Miiller. Leipzig, 1937.

Assyrische-Bdbylonische Briefe kultischen Inhalts. By E. Behrens. Leipzig, 1906.

The Legend of Etana and the Eagle. By S. Langdon. Paris, 1932.

Chronicles concerning Early Babylonian Kings. By L. W. King. Luzac, 1907.

Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament. Ed. J. B. Pritchard. Princeton, 1950.

The Devils and Evil Spirits of Babylonia. By R. Campbell Thompson. Luzac.

Tod und Leben nach den Vorstellungen der Babylonier. By E. Ebeling. Leipzig, 1931.

Studies in Divine Kingship in the Ancient Near East. By Ivan Engnell. Uppsala, 1945.

The Early History of Assyria. By Sidney Smith. Chatto and Windus, 1928.

A History of Sumer and Akkad. By L. W. King. Chatto and Windus, 1923.

A History of Babylon. By L. W. King. Chatto and Windus, 1915.

Die Religion Babyloniens und Assyriens. By M. Jastrow. Giessen, 1912.

Babylonian-Assyrian Birth-Omens. By M. Jastrow. Giessen, 1914.

كان يُطلق على المعبد الرئيسي في بابل اسم إيزيدا ، أي "معبد رفع الرأس". يُكتب الاسم عادةً بشكل تصويري: إساج-إيل، ولكن يُكتب أيضًا إساج-جيل) بيزولد، كتالوج DT 1559] رقم 197 .([وفي نص متأخر جدًا، يظهر التهجئة إساج-كي-لا أيضًاZA III) ، ص 146، رقم 7، بتاريخ 20 يونيو 219، العصر السلوقي .(يُعد هذا المعبد بطبيعة الحال من بين أكثر معابد بابل ذكرًا. لذلك، سأكتفي بذكر بعض النصوص المهمة. ب. طقوس احتفال رأس السنة (ثورو

دانجين، الطقوس الأكادية)، والتقويم الشهري للأعياد في بابلVAT 13)

662، رايزنرSBH ، ص 145 وما بعدها)، ولكن قبل كل شيء الوصف التفصيلي

للمعبد وملحقاته في اللوح المسماري من عام

229 قبل الميلاد (السنة 83 من العصر السلوقي)، والذي يُطلق عليه عادةً اسم "لوح سميث" أو "لوح إساجيلا"، وينتمي إلى وصف المدينة 1

(القسم ك).1) وهو اللوح السادس من وصف المدينة،

ويبدأ بالكلمة المفتاحية "إساجيلا"، التي يختتم بها اللوح الخامس

(القسم 1، السطر 11). يصف اللوح مختلف أحياء المعبد بدقة، وغالبًا ما يتضمن قياسات تفصيلية للمساحة، وحتى قياسات الحجم، والتي كانت تُستخدم في بابل لحساب مساحة منطقة ما وفقًا لمحصول الحقل، كما هو الحال لدينا حتى الآن (البوشل). تبرز ستة أحياء بوضوح، والتي يتكون منها حرم المعبد:

انظر، للحصول على ملخص، أحدث ما ورد في **E. Unger in ZATW 1927, 8, 162–171;** بالإضافة إلى:

في. شيل في(1913) **Mimoires del'Acadimie de France 39** ، ص 293 وما بعدها. فايسباخ في**OLZ 1914,**

ص. 166؛ مايسنر وشفينزنر في1920 **OLZ** ، الصفحات من 112 إلى 114؛ ثورو-دانجين، تابليت

لوحات أوروك60-59 **(TC VI)** ؛ **Thureau-Dangin** في **.Revue d'Assyr** السادس عشر، ص 59-60؛ إس لانغدون

في مجلة آسير. الخامس عشر، ص. رقم. ر. كولديوي في **;(1918) MDOG 59** تي دومبارت، دير ساكرال

تورم الأول، زيكورات، ميونيخ 1920؛ دومبارت في(1924) **JSOR VIII** ، الصفحات من 103 إلى 122؛ دومبارت في **Klio XXI** (1927)، الصفحات من 135 إلى 174؛ دومبارت في(1927) **OLZ 30** ، الصفحات من 425 إلى 426؛ إ. أنغر في **"Forschungen und Fortschritte" II** (1926)، العدد 21؛ أنغر في **"Hirts Literaturbericht"** رقم 37 (1927)، الصفحات من 541 إلى 542؛

أنغر، الفن الآشوري والبابلي ("مكتبة جيدرمان") 1927، 8، 61، الشكل 104، ص. 92.

THE CIVILIZATION OF BABYLONIA AND ASSYRIA MORRIS JASTROW, JR. LECTURES DELIVERED CHDEBTHC BICHARD B. WESTBROOK LECTURESHIP FOUNDATION ASSYRIA ITS PRINCES, PRIESTS, AND PEOPLEA. H. SAYCE, M.A. DEPUTY PROFESSOR OF COMPARATIVE PHILOLOGY, OXFORD, HON. LL.D. DUBLIN, ETC. AI-THOR OF FRESH LIGHT FROM THE ANCIENT MONUMENTS, AN INTRODUCTION TO EZRA, NEHEMIAH, AND ESTHER, LONDON: THE RELIGIOUS TRACT SOCIETY, 56, PATERNOSTER Row, 65, ST. PAUL S CHURCHYARD, AND 164, PICCADILLY. .1885

.Studies in Divine Kingship in the Ancient Near East. By Ivan Engnell. Uppsala, 1945

The Early History of Assyria. By Sidney Smith. Chatto and Windus, 1928. A History .of Sumer and Akkad. By L. W. King. Chatto and Windus, 1923

.A History of Babylon. By L. W. King. Chatto and Windus, 1915

.Die Religion Babyloniens und Assyriens. By M. Jastrow. Giessen, 1912

.Babylonian-Assyrian Birth-Omens. By M. Jastrow. Giessen, 1914

A HISTORY OF ART CHALDy^A AND ASSYRIA. Xonbon: chapman and hall, Limited. ftfe yorh : A. C. ARMSTRONG AND SON. 18S4. THE RELIGION OF BABYLONIA AND ASSYRIAMORRIS JASTROW, JR., PH.D. (LEIPZIG) PROFESSOR OF SEMITIC LANGUAGES IN THE UNIVERSITY OF PENNSYLVANIA, BOSTON, U.S.A. GINN & COMPANY, PUBLISHERS 1898 MYTHS &? LEGENDS OF BABYLONIA &f ASSYRIA , LEWIS SPENCE F.R.A.I. AUTHOR OF " THE MYTHS OF MEXICO AND PERU LIZATION OF ANCIENT MEXICO " " THE POPOL VUH "the myths OF THE NORTH AMERICAN INDIANS" " MYTHS AND LEGENDS OF ANCIENT EGYPT " ETC. WITH EIGHT PLATES IN COLOUR BY EVELYN PAUL AND THIRTY-TWO OTHER ILLUSTRATIONS THE SEVEN GREAT MONARCHIES OF THE ANCIENT EASTERN WORLD; OR, THE HISTORY, GEOGRAPHY, AND ANTIQUITIES OF CHALDAEA, ASSYRIA 329 BABYLON, MEDIA, PERSIA, PARTHIA, AND SASSANIAN, OR NEW PERSIAN EMPIRE. A HISTORY OF SCIENCE,HENRY SMITH WELLIAMS; EDWARD WELLIAMS A History of Babylonia and Assyria .Volume I Robert William Rogers Published 1900 A.D

A History of Babylonia and Assyria Volume II Robert William Rogers Published 1900 A.D. EVERYDAY LIFE IN BABYLONIA AND ASSYRIA H. W. F. SAGGS Drawings by Helen Nixon Fairfield Published 1965 A.D. Assyrian International News Agency People Of Ancient Assyria Jorgen Laessoe Translated from the Danish by F. S. Leigh-Browne Published 1963 A.D. Assyrian International News Agency Assyrische Historiographie –Eine Quellenstudie Studien an der Universität von Missouri Reihe Sozialwissenschaften, Band III, Nummer 1.1916 Assyrische Historiographie THE EPIC OF GILGAMESH, N. K. Sanders Assyrian International News Agency Books Online www.aina.org Spelling and error correction by John Paulose THE STOBY OF AHIKAEFROM THE SYEIAC, AEABIC, AEMENIAN,

ETHIOPIC, GEEEK AND SLAVONICYEESIONS BY F. C. CONYBEARE, J. RENDEL HARRIS, AND AGNES SMITH LEWIS. LONDON: C. J. CLAY AND SONS, CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS WAREHOUSE, AVE MARIA LANE. GLASGOW: 263, ARGYLB STKBET. 1898